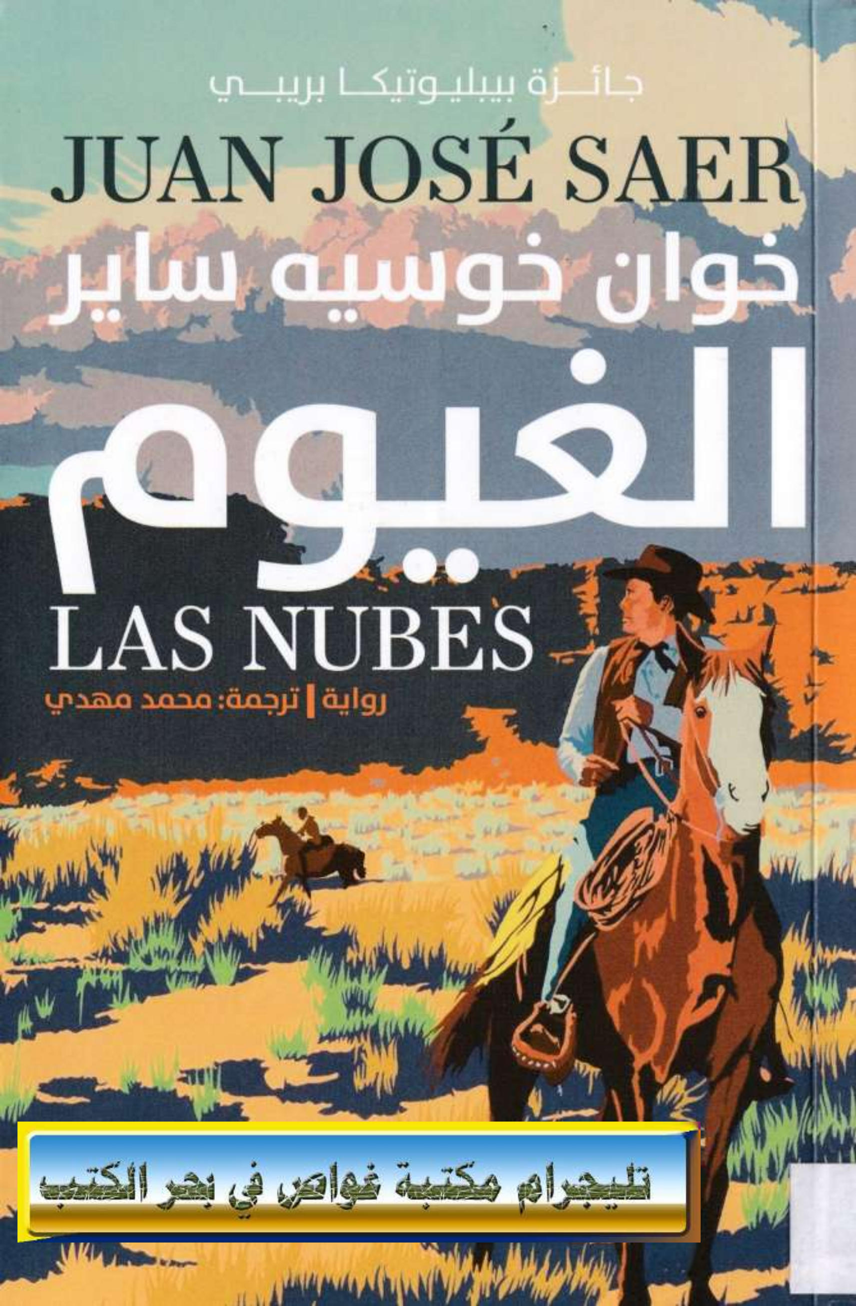
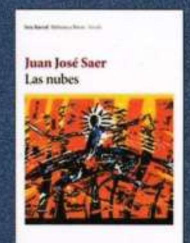


جائـزة بيبليوتيكـا بريبـي
JUAN JOSÉ SAER
خوان خوسيه ساير
الغيوم
LAS NUBES
رواية | ترجمة: محمد مهدي

الغيوم
LAS NUBES

تــحكي «الغيــوم» قصــة طبيب نفسي شــاب في عــام 1804، يقــود خمســة مجــانين نحو عيــادة نفســية، انطلــق بهم من ســانتا فيــه نحو بوينــوس آيريس. تــسير معه قافلة من ستة وثلاثين شــخصًا: مجانين وعاهرات وأفراد من الجاوتشــو وموكب من الجنــود، يعبرون السَّــهب ويتفادون العقبات بــكل أنواعها. في تلــك الملحمة الزائفــة، التي تدور وقائعها في المشــهد



اللانهــائي للسَّــهل وأمــام النظــرة العلمية للطبيب الشــاب، يغرس خوان خوســيه ســاير النَّــوى الأساســية لكتابته: أفكاره عــن الزمان والمكان والتاريــخ والموثوقية القليلة للأدوات التــي نعتمــد عليهــا -الوعــي والذاكرة- في فهم الواقع.



الغيوم
LAS NUBES

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد





- العنوان الأصلي: LAS NUBES
- العنوان العربي: الغيوم

- ترجمة: محمد مهدي
- تدقيق لغوي: سلسبيل بهاء الدين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2024م
- رقم الإيداع: 2023/2285م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-385-7

جائـــزة بيبليـوتيكـــا بريبـــي

JUAN JOSÉ SAER

خوان خوسيه ساير

الغيوم

LAS NUBES

رواية | ترجمة: محمد مهدي





إلى ألبرتو إ. دِيَّاث



أفسح المجال لرغبتك.

- لا ثيليستينا، الفصل السادس


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

وجد نفسه عند الزاوية، تحت أشعة الشمس، بالقرب من كشك بائع المثلجات الذي تُظله التندة ذات الخطوط الحمراء والبيضاء العريضة. لقد شعر سلفًا، بينما يعبر الشارع من الرصيف الظليل إلى ذلك المشمس، بالأسفلت الأملد -بفعل الحر- تحت نعل حذائه البني. والآن، فوق الرصيف الرمادي الحارق الذي يعكس الحرارة في ظهيرة الصيف، يرتسم ظله أسفل قدميه، منكمشًا بسبب وضعية الشمس التي بدأ غروبها البطيء من عند سمت الرأس.

سيكون قمع المثلجات بالكريمة والشوكولاتة الذي يستعد لتناوله هو غداؤه الوحيد، وإن كان قد انتظر حتى تلك الساعة المتأخرة -إنها الثانية والنصف تقريبًا- ليخرج من مكتبه كي يشتريه، فهذا لأنه أقر بحتمية أن تعينه قطعة المثلجات على البقاء بلا طعام حتى موعد العشاء. لا شك أن الحر هو السبب الرئيسي لعزوفه عن الأكل، لكن رواقيةً ما سببها ليس قاعدة يُطبقها على حياته بالكامل، بل نزوة راودته اليوم، ويمكن اعتبارها ذات طابع رياضي، أضفت على هذه الإستراتيجية الجسدية صبغة أخلاقية غامضة. شعر لثوانٍ بأنه بخير، بأنه سعيد وخفيف ويتمتع بالصحة، وصدق أن أمامه مستقبلًا واضحًا ومستقيمًا ومتقدًا، في قربه وبعده، مثل بساط أحمر يمتد من طرف قدميه إلى ما لا نهاية، وعلى الرغم من أن سنه قاربت الخمسين، فهو يؤمن بامتلاكه مستقبلًا -فوريًا وبعيد المدى- واضحًا وقويمًا ومتقدًا، مثل بساط أحمر يمتد من طرف قدميه إلى ما لا نهاية. لم يلبث حتى عادت به

قسوة الصيف، وضوضاء الشارع، والغازات المسوَّدة التي تخلفها السيارات وتُسمم الهواء، إلى ما هو أكثر من الواقع بقليل، إلى ذاك الحد الأوسط من الروح المعنوية الواقع في المنتصف بين القلق والابتهاج، ويسميها -بيقين غير مبرَّرٍ- من يدَّعون معرفتها جيدًا نوعًا ما بـ«مزاجيتهم»، بل وهو نفسه عندما يستسلم -بدافع التسلية- للاقتناع بما يقولون.

تطهو موجة الحر المدينة منذ أسبوع على الأقل. تبعث الشمس من قلب السماء الزرقاء، التي لا تحوي غيمة واحدة، بضوء غاشٍ ومنهِك، يحرق الأشجار ويعكر صفو الإدراك ويعيق التفكير. لا يهدأ الحر قليلًا إلا في الليل، لكن مع التوقيت الصيفي الذي يُعَد قرارًا إداريًا -كما يحب أن يسخر منه- تستنكره حتى الدجاجات، لا يكتمل أبدًا حلول الليل في هذا الوقت من العام، فبعد الثالثة صباحًا بقليل، حين يظل المرء عاجزًا عن النوم بسبب الحر، ينبلج الصبح بزرقته الداكنة، من جهة الشرق، وتعود الشمس التي لا تُحتمل إلى الظهور. على ضفتَي النهر يأخذ الناس حمامات شمس في انتظار الليل، المطر، العطلة، نسمة هواء بعيدة المنال، لكن حين ينظر إليهم العاملون المتصببون عرقًا، من أرصفة الموانئ، من أحد الجسور، من الحافلة، من المترو المعلق الذي يجتاز «نهر السين»، يتأملونهم بارتيابية أكثر منها حسدًا.

إنه السادس من يوليو. في العام الماضي، بعد عشرين عامًا من الغياب، متذرعًا بتصفية آخر الممتلكات العائلية، زار بيتشون مدينته مسقط رأسه لعدة أسابيع، من منتصف فبراير إلى مطلع أبريل. على الرغم من مرور السنين، ومن خيبات الأمل والاستغراب، فقد جلب معه، عائدًا إلى باريس، بعض الذكريات الجميلة، ووعْدَ توماتيس بالعودة لزيارته، إلا أن عامًا بأكمله مضى ولم يقرر توماتيس أن يسافر. بين الحين والآخر، في أيام الأحد، يتواصلان عبر الهاتف، حتى لو لم يكن لديهما قط أمر بعينه ليقولاه، ولكونهما يعيشان في نصفين مختلفين من الكرة الأرضية، على نحو يجعل أحدهما في ذروة

الصيف حينما يشاهد الآخرُ زخات الثلوج وهي تضرب النافذة، ولأن الفارق الزمني يجعل الوقت في المدينة صباحًا عندما يكون في باريس مساءً، وفي المدينة مساءً عندما يكون في باريس ليلًا، يحتل الطقس جزءًا معتبرًا من محادثاتهما. إلى أن حدث الأمر، منذ أقل من شهرين، ذات أحدٍ من شهر مايو تحدثا فيه عن الطقس أكثر بقليل من المعتاد لأن الأحوال المناخية، على الرغم من اختلاف الفصل والبلد والقارة ونصف الكرة الأرضية، كانت متطابقة (يوم بارد وممطر)، حين أعلن توماتيس أخيرًا عن الخبر السعيد بأنه في مطلع يوليو سيقضي بضعة أيام في باريس.

لكن ليس هذا كل شيء: أبلغه توماتيس أيضًا بأن مارثيلو سولدي، ذاك الفتى الملتحي الذي ذهبوا بزورق والده ذات يوم برفقة الفتيان لزيارة ابنة واشنطن، هل يتذكر[1]؟ قد عقد النية على مكاتبته ليبعث إليه بشيء يجهزه منذ بضعة أشهر، وربما قاصدًا إلهاب حماسه للأمر، أفلت توماتيس جملةً ملغزةً لم يردفها بمزيد من التوضيح: «خرج للبحث عن طروادة وكاد أن يصطدم بحادس»[2]. لكنه بالطبع لم يكن يمزح لأن الطرد قد وصل بعد قرابة شهر: ظرف متوسط الحجم، محفوظ ببطانة داخلية من الفقاعات البلاستيكية وذاتي الالتصاق، لكن سولدي، بدافع الحيطة، ختمه بشريط لاصق شفاف، واحتوى على خطاب طويل جدًا وقرص كمبيوتر مرن. لقد ذكّر سولدي كلمة

---

(1) توماتيس وبيتشون وسولدي شخصيات متكررة في عدد من روايات خوان خوسيه ساير، وظهر الثلاثة في رواية «التحقيق» التي سبقت «الغيوم» في صدورها، والرحلة المذكورة هنا دارت أحداثها في تلك الرواية، وذهبوا فيها لزيارة بيت واشنطن نوربيجا بعد وفاته، وهو بدوره شخصية ظهرت في رواية «Glosa»، لمقابلة ابنته خوليا والاطلاع على مخطوط لرواية مجهولة المؤلف وجدتها الابنة في مكتبة أبيها. (المترجم).

(2) في الأساطير اليونانية، حادس أو هاديس هو إله العالم السفلي والثروات الكامنة في باطن الأرض، وسوف يتضح مغزى تلك المقولة بنهاية القصة. (المترجم).

«disquette» ووضع عليها نبرة مشددة، فصار نطقها «el dísket[1]».
قال في إحدى فقرات الخطاب: «فضلًا عن المحادثات مع توماتيس، التي أحيانًا قد تستلزم جرعة معينة من الصبر، فأنا أتسلى أيضًا بنزهات السيارة العشوائية إلى الريف، والتقليب في أوراق قديمة تحتفظ، بصورة إعجازية في أغلب الأحيان، بذكرى هذا المكان أو غيره، إن كان المرء قد عاش في مكان غيره. ما يصلح لمكانٍ ما يصلح للفضاء بأكمله، ونحن نعرف سلفًا أنه إذا كان الكل يشمل الجزء، فالجزء بدوره يشمل الكل. لست أفعل ذلك مرتديًا ثوب المؤرخ لأنني لا أحمل ذرة إيمان بالتاريخ. لا أعتقد أنه قد يصلح عبرةً للحاضر، أو أننا نستطيع أن نستعيد منه شيئًا سوى القليل من الآثار المادية واللوحات الحجرية والصور والأغراض والأوراق التي، أعترف بذلك، يمكن لما يبدو مكتوبًا فيها أن يكون أكثر بقليل من مجرد مادة. ما نعتبره حقيقيًّا من الماضي ليس التاريخ، بل حاضرنا الذي يُبرز نفسه ويتأملها من الخارج».

وفي موضع آخر من الخطاب: «أتمتع بأفضلية على غيري من هواة المحفوظات: السيدات العجائز يستلطفنني. النص الذي أرسله إليك في الـ«dísket» عهدت إليَّ به سيدة تسعينية يبدو لي أنها لم تقرأه قط. لحسن حظها، ماتت المسكينة وأنا أفك تشفيره وأنقله إلى نسخة نظيفة بكل أمانة، وهكذا لن أضطر إلى مراوغتها أو الكذب عليها حيال محتوى تلك الأوراق التي، نظرًا إلى عدم وجود ورثة لمالكتها، أودعتُها في «أرشيف المقاطعة»، حيث يمكن الرجوع إليها، حالما أنهيت نسخها. نحن مهتمون جدًّا برأيك لأن توماتيس يجزم، خلافًا لما أعتقد، أن الأمر لا يتعلق بمستند حقيقي بل بعمل روائي. لكنني أتساءل، بعد إعادة النظر، أي شيء آخر قد تكونه (الحَوليّات)، أو (ذكرى عن الحر) للافوازييه، أو (قانون نابليون)، أو الحشود والمدن

(1) كلمة disquette هي كلمة فرنسية مؤنثة وتُكتب دون نبرة تشديد على حرف الـi. (المترجم).

والشموس والكون». وأخيرًا: «ليس هناك عنوان للمخطوط الذي أعطتني إياه العجوز، لكن إن كنتُ قد فهمت فقرات بعينها جيدًا، فأعتقد أن مؤلفه لن يمانع لو أطلقنا عليه (الغيوم)».

وصل الظرف في شهر يونيو، في الحادي والعشرين بالتحديد، والصيف على الأبواب. منذ ذلك الحين، لأن العام الجامعي كان على مشارف الانتهاء، وفي خضم الاجتماعات والامتحانات والندوات، لم يجد بيتشون وقتًا للاطلاع على محتوى الـ«dísket» الغامض الذي ظل متروكًا على مكتبه، والغبار يتراكم عليه، بين الكتب والمفكرات والأوراق. في الثاني من يوليو، ذهبت زوجته برفقة الأولاد إلى البحر وظل هو في باريس بسبب بعض الاجتماعات التي أجلت سفره ولأن توماتيس أخبره بأنه سيصل من مدريد بحلول السابعة مساءً. اتفق كلاهما على قضاء يومين أو ثلاثة وحدهما في باريس ليتحدثا بأريحية، ثم السفر للانضمام إلى بابيت والأولاد في (بروتاني)[1].

حضر صباح اليوم، قرابة التاسعة والنصف، اجتماعًا في الكلية، وظل يعمل في مكتبه حتى الثانية والنصف، ثم نزل ليتناول قطعة مثلجات وعاد إلى المنزل ليأخذ قيلولته. نظرًا إلى رحيل الكثير من سكان المدينة وعدم قدوم السياح بعدُ لسبب ما -ربما بسبب الحر الشديد فضلوا البحر أو الجبل- فإن المدينة خاوية، ونظرًا إلى سفر عائلته فإن شقته كذلك أيضًا، وللحظاتٍ نشأ بين الشقة والمدينة تجانس غريب، ولأن النوافذ مفتوحة دائمًا للاستفادة من التيارات الهوائية، نشأ بين المدينة والمنزل نوع من الاستمرارية؛ للحظاتٍ، لم يعد يعرف المرء أيهما يحتوي الآخر. يخيم صمت أكبر من المعتاد، ويزداد مع حلول الليل الحارق واللزج بعد النهار اللانهائي. عادةً ما يتكئ بيتشون، بسرواله القصير وجميع الأنوار مطفأة، على نافذة الطابق الثاني المطلة على الشارع الصامت الخاوي، وبينما يدخن لفافة وراء لفافة، يمضي منصتًا، ليس

---

(1) منطقة تقع شمال غرب فرنسا. (المترجم).

إلى تفاصيل الليل الخارجية فحسب، بل إلى الأحاسيس التي توقظها فيه تلك التفاصيل، وتعود به للحظاتٍ إلى الماضي، وبخاصة إلى طفولته، بصورة كثيفة وجلية يبدو معها الزمن متعطلًا، إلى حد يدفعه إلى التفكير في أن العديد من الأحاسيس التي لطالما اعتقد أنها تخص مكانًا ما، هي في واقع الأمر تنتمي إلى الصيف.

في حدود السابعة، دائخًا بسبب الحر والقيلولة التي طالت أكثر من اللازم، خرج للتبضع في الحي، لكن بعد وهلة في أحد متاجر الكحوليات قضاها وهو يختار بعض زجاجات النبيذ الأبيض للأيام القادمة، مسترخيًا ونظيفًا وفي غاية السعادة، يخترق الهواء الأزرق للغسق عبْرَ الشوارع القائظة الصامتة المقفرة، عاد إلى المنزل الخاوي. لم يكد يدخل حتى استحم مجددًا، جفف نفسه بلطف، وضع المنشفة على جلده وضغط قليلًا، تقريبًا من دون فرك، كما توضع ورقة نشَّافة على بضعة أسطر من الحبر الرطب، واقتصر ما لبسه على سروال قصير نظيف. عشاء خفيف -شريحة من لحم الخنزير، بعض الطماطم، قليل من الجبن، ماء معدني-، لكن حينما جلس أمام الكمبيوتر وشغله وأدخل الـ«dísket» ليقرأ محتواه على الشاشة، فكر في الأمر بصورة أفضل وتوجه إلى الثلاجة. عاد بقدح خزفي أبيض يمتلئ بالكرز ووضعه على المكتب، في متناول يده اليسرى، بين أقلام الحبر الجاف، وأقلام الرصاص، والقداحات، وعلبتين من السجائر، ومنفضة ثقيلة من الزجاج الأخضر الداكن السميك. لما شرع في قراءة النص بتمريره على شاشة الكمبيوتر، ومع أنه أخذ يحمل إلى فمه حبات الكرز، واحدة بواحدة، من دون أن ينظر إليها، جعله الطعم، الحلو والحامض على حد سواء، يتخيل الكريات ذات اللون الأحمر البراق كأنما أحاسيس اللمس والتذوق التي تتولد داخل فمه تنعطف عبر عينيه، أو عبر ذاكرته، قبل أن تصل إلى مخه. إنها كبيرة، دسمة، باردة، عظيمة الصلابة والاحمرار لدرجة أنه فور أن التقط إحداها، وصادف أن كانت

الأولى، أخذت مادتها تتضاعف بلا سبب، ومع أن الكثيرين يطمحون إلى عكس ذلك فإنها -بسبب جريان شهر يوليو- آخر ما تبقى من كرز الصيف. وما من شيء يؤكد أنها ستعاود الظهور بالخفة المزاجية ذاتها التي خرجت بها من العدم إلى ضوء النهار، بعد الشتاء الأسود اللانهائي.

***



أنهار تفيض بغزارة، وصيف غير متوقع، وتلك الحمولة الفريدة من نوعها: هكذا يمكن تلخيص، من منظور الوقت والمسافة، ولشرح الصعوبة التناقضية لعبور السهل، فراسخنا المئة الممتلئة بالتقلبات. حدثت هذه الرحلة بالغة الطول والصعوبة -وكيف لي أن أنسى- في أغسطس من عام ألف وثمانمئة وأربعة. في أول أيام ذاك الشهر ارتحلنا نحو بوينوس آيريس تحت صقيع رهيب، وأخذت حوافر الخيول تكسر شرائح الجليد الوردية المزرقّة، عند طلوع الشمس، لكن في غضون أيام قليلة صرنا محاصرين بصيف لزج وقاس. كنت قد قطعت المسيرة ذاتها عكسيًّا من بوينوس آيريس إلى المدينة، وعلى الرغم من كوننا بالكاد أربعة فرسان، ما جعل تقدمنا أسرع بعشر مرات منه في طريق العودة، رغم العوائق التي لا تحصى، ظل البرد يعصف بنا حتى في أوج سطوع الشمس. لذا فإن ذلك الحر المفرط أربكنا بصورة مزدوجة، أولًا بسبب قساوته الكبيرة، وأيضًا بسبب ظهوره في غير موعده، متعارضًا مع قوانين الطبيعة والتعاقب الطبيعي لفصول السنة. لقد أبدت الطبيعة لا مبالاتها بخططنا، بل حتى بالقوانين التي ننسبها إليها، بصورة فجة من خلال ذلك الحر غير المعهود الذي أتى في وسط أحد أكثر الشتاءات القارسة التي -وفقًا لشهادات عديدة- عاشتها المنطقة. إن الصيف المفاجئ الذي أزهر عنه ما يشبه الربيع ثم تلاشى، في الأسبوع نفسه، أطلق العنان في أقل من شهر لسلسلة من التتابع الشاذ للفصول التي تعاقبت في عجالة وبغير ترتيب. لكن أوسونا، الدليل الذي أرشدنا حتى المدينة واصطحبنا، في قافلة كبيرة هذه

المرة، عائدين إلى بوينوس آيريس، قال إنه بين الحين والآخر يحل في عز أغسطس صيف كهذا يبدأ في التحضير، بحلول اليوم الثلاثين، لعاصفة سانتا روسا. غني عن البيان أن أوسونا محق كالعادة، وفي اليوم الثلاثين بالضبط، قبل عدة أيام من بلوغ وجهتنا، كللت العاصفة المنتظرة، مع أنها أسهمت في تخليصنا من وضع أكثر من حرج، مسيرةَ المصائب التي تعرضنا لها.

لكنني أستبق الأحداث، ومراعاةً للقارئ المحتمل الذي قد تقع في يديه هذه المذكرات، خلال العقود المقبلة، ربما من الأفضل أن أعرِّف نفسي: أنا الدكتور ريال، متخصص في الأمراض التي لا تزعزع الجسد بل الروح. أتيت من بلدة (باخادا جراندي) في مدينة (باراناه) الأرجنتينية، ولدت وترعرعت بين التلال الناعمة الشاهدة على التيار المتواصل المُحمَرّ للنهر الكبير. تعلمت الحروف الأولى مع الفرنسيسكان، لكن حينما بلغت سن تعميق دراستي، ارتأى والداي أن مدريد تستحق عن غيرها من الأماكن أن تكون عاصمة المعرفة، الأمر الذي تفسره حقيقة أنهما نفسيهما قشتاليان، ولأنهما كانا يأملان ألا يصل إلى مدينة (ألكالاه دي إناريس)[1] ذلك الصخب الذي، بدءًا من فرنسا، هز أرجاء أوروبا منذ ستة أو سبعة أعوام. على النقيض من والدَيَّ، فإن ذلك الصخب هو ما استهواني، ولأنني بدأت أهتم بأمراض الروح، فحينما بلغتني مسألة تحرير مجانين مستشفى (سالبترير)[2] من سلاسلهم، عرفت أنني سأكمل دراستي وسط غَلَيان باريس وليس في أروقة (ألكالاه) الناعسة. مثل جميع العقود الأخرى، وفي أي حقبة من التاريخ، اتسم العقد الأخير من القرن الماضي بالصخب؛ ومثل جميع الآباء، حاول أبواي تعليمي بمنأى عن الصخب؛ ومثل جميع الشباب، ارتأيت أن الحياة الحقيقية تبدأ تحديدًا عند هذا الصخب.

---

(1) مدينة إسبانية تقع في حدود مقاطعة مدريد واسمها يعني (قلعة نهر إيناريس). (المترجم).

(2) مستشفى جامعي مشهور بباريس. (المترجم).

لم أكن مخطئًا، ففي مستشفيات باريس اكتشفت علمًا جديدًا وكذلك اكتشفت، من بين ممثليها الرئيسيين، الدكتور ڤايس. أكد جمعٌ من الأطباء والمفكرين على حد سواء أن بعض أمراض الروح، كما تبيَّن لبعض الفلاسفة القدامى، حتى وإن دلت عليها عوامل جسدية في بعض الأحيان، لا ينبغي البحث عن أسبابها في الجسد بل في الروح نفسها. أتى الدكتور ڤايس من أمستردام إلى باريس بغية تأكيد تلك الملاحظة؛ أما أنا، الأصغر سنًّا بكثير، فلكَي أعرف بوجود كلٍّ من الحكيم الهولندي وتلك الملاحظة، بل يمكن القول إنهما يشكلان كينونة واحدة. لدى وصولنا، استحالت الفكرة دليلًا حماسيًّا، وأصبح الدكتور ڤايس صديقي وأستاذي ومرشدي، فحين عزم على الإقامة في بوينوس آيريس لممارسة النهج الجديد وفقًا لمبادئه، تحولتُ بمنتهى الطبيعية إلى مساعده. غني عن البيان أنه قبل أن يتخذ قراره النهائي، تعمَّق في استجوابي بخصوص المنطقة وسكانها، لكن بما أن نيتي في هذه المذكرات هي احترام الحقيقة بحذافيرها، يجب أن أقر بأن الإقامة في أمريكا كانت مشروعه من قبل أن يعرفني بوقت طويل، وأن اهتمامه بشخصي الضئيل ازداد حينما عرف من أطراف ثالثة أن أصولي تعود إلى (ريّو دي لا بلاتا)[1]. في ذلك الحين، كانت المستعمرات الإسبانية في أمريكا تجذب العلماء والتجار والمغامرين؛ تعرَّض السياج الذي أرادت العاصمة الملكية أن تعزلها به للخرق من كل الجهات، فبات الأسهل أن يتسلل المرء عبر الفتحات، حتى إن أولئك الذين عينتهم مدريد لإيقاف الأمر استفادوا من الوضع. لكن الدكتور ڤايس لم يكن من طينة الرجال الذين يلجؤون إلى عمليات التهريب. قبل عبور المحيط، وعليَّ أن أقول إن الأمر كان أسهل من العناء الذي تكبدتُه بعد بضع سنوات لاجتياز بحر من اليابسة الصلبة، مررنا على البلاط الملكي، وفي غضون بضعة أشهر حصلنا على التصريح اللازم. وهكذا في أبريل من

(1) خليج نهري تكوَّن من التقاء نهرَي (أوروجواي) و(باراناه)، وهو اسم آخر الملكيات التابعة للإمبراطورية الإسبانية في الأمريكتين، ومعناه (نهر الفضة). (المترجم).

عام ألف وثمانمئة واثنين، افتُتحت (دار الصحة) التابعة للدكتور ڤايس على بعد فرسخين أو ثلاثة من شمال بوينوس آيريس، في مكان يُدعى (الأسناط الثلاثة)[1]، ليس بعيدًا عن النهر، لكنه يقع على أرض مرتفعة لتجنب الفيضانات، وفي ظل الموافقة الثلاثية، التي لم تدم طويلًا، من طرف الأعيان المحليين وسلطات (ريُو دي لا بلاتا) والتاج الملكي. لم تكن مساعي الدكتور ڤايس خيرية، إلا أن الثراء لم يمثل له إلا وسيلة تعينه على مواصلة أبحاثه، وإذا أمكن، استعادة جزء من استثماره الأوليّ، فقد كرّس جملة ميراثه العائلي للكتب والسفر والوصول إلى أصحاب النفوذ لنيل التصاريح اللازمة، والأهم من ذلك، لبناء (دار الصحة) المذكورة آنفًا وتسيير العمل فيها، وهي مبنى فسيح متعدد الأجنحة، حوائطه بيضاء سميكة وسقفه من القرميد، يقع أعلى الوَهدة التي تكتنف النهر.

صُممت (الدار) على غرار نموذج موجود بالفعل في أوروبا، وتحديدًا في باريس، حيث أُنشئت عدة مؤسسات من ذلك النوع في السنوات الأخيرة، لكن العمارة مستوحاة من الدير، من (البيجيناچ)[2]، المعتكف الفلسفي، وتعيد إلى الأذهان على نحو غامض أكاديمية أفلاطون وحديقة إبيقور، وتنبذ السلاسل والسجن والدياميس؛ مستشفى مثالي لتوفير الراحة والعناية، ونظرًا إلى مزاياه، لسوء الحظ لم يكن لينتفع به سوى المرضى الأثرياء. لكن نية الدكتور ڤايس كانت رعاية الفقراء أيضًا، بوسائل أخرى وفي مكان آخر، الذين حتى لو بدوا له غير مبالين، وهو ما لم يكن صحيحًا بالطبع، فقد ألحت عليه اهتماماته العلمية بذلك، بما أنه يرى أن أمراض الروح وإن نبعت أسباب معظمها من الروح نفسها، يمكن في بعض الحالات أن يكون مردها إلى أسباب مصاحبة

(1) اسم المكان (Las tres acacias) أي (أشجار السنط الثلاثة) أو (الأسناط الثلاثة). (المترجم).

(2) Béguinage: مصطلح فرنسي يعني «دير المترهبات» وهو مجمع معماري يؤوي النساء المتدينات اللاتي لم يأخذن العهود أو يعتزلن الدنيا. (المترجم).

تأتي من مختلف أجزاء الجسم، بالإضافة إلى عوامل خارجية أخرى مصدرها البيئة المحيطة، المناخ، العائلة، الظروف، العِرق، تصاريف الدهر. إن كون الأثرياء وحدهم من يستطيعون دفع تكاليف العلاج يوحي بمدى تعقيده الدقيق: فقد عومل كل مريض كأنه حالة فريدة، بصورة ملائمة ولينة، في علاج طويل الأمد يستلزم -بخلاف الوقت- مساحةً وعلمًا وعملًا. لقد حلَّت (دار الصحة) محل المأوى الذي فقده المرضى، وإدراكًا منه أن العائلات الثرية لا تعرف ماذا تفعل بمجانينها، وأنها في سبيل حماية سمعتها، لم تقنع بتركهم يهيمون في الشوارع كما يفعل الفقراء بمجانينهم، ورغبت في العثور على مكان يستطيع إيواءهم، طرأت للدكتور ڤايس فكرة إنشاء (داره): ربما هي الأولى من نوعها على الأراضي الأمريكية برمتها.

من قبل افتتاحها كان عدد العائلات المتقدمة مرتفعًا بصورة مذهلة، ومع أنها جميعًا أتت من بوينوس آيريس، فبعد أشهر قليلة من بدء العمل أخذت تصل طلبات من المقاطعات ومن باراجواي وبيرو والبرازيل، الأمر الذي أظهر الحاجة الماسة في أمريكا إلى مكان يُعالَج فيه، بأحدث الوسائل العلمية المتطورة، التهاب الدماغ والهوس والاكتئاب وغيرها من عِلل الروح المعروفة إلى حد ما. الحق يقال، منذ أن أتينا أنا والدكتور ڤايس لمحاولة علاجها، لم يبد لتلك الأمراض وجود بين الطبقات العليا بأمريكا، ومرد الأمر إلى الصمت الذي ساد جميع أنحاء القارة حول هذا الموضوع، غير أنه، في غياب العلم القادر على اكتشافها، عوملت تلك الأمراض على أنها سمات طبيعية للمزاجية، الأمر الذي قد يشرح كثيرًا من الوقائع اللامفهومة في تاريخنا. الواقع أن (الدار) صارت شبه ملآنة بعد فترة وجيزة من افتتاحها وفي العام التالي فقط بدأ الدكتور يستعد لبناء جناح إضافي.

يمكن تفسير هذا الترحيب بسهولة: نادرًا ما يشكِّل المجانين خطرًا، لكنهم متعِبون على الدوام لمن لا يستطيعون التعامل معهم. وحتى لو تحلت العائلات

بنفوس طيبة ولا سيما بصبر طويل، فبعد وقت معين سينتهي بها المطاف منهكة. إن محاولة جعل مجنون يتصرف كجميع الناس تشبه محاولة تغيير مجرى نهر: لا أقول إن الأمر مستحيل، لكن لا يمكن إلا لمهندس بارع، ليس لديه بالطبع أي ضمان سابق بنجاح الأمر، أن يحاول تغيير مسار المياه إلى اتجاه آخر. يرى عامة الناس أن سلوك المجانين الشاذ لهو محض عنادٍ لا أكثر، إن لم يكن ادعاءً كاذبًا. أولئك الذين يصرون إصرارًا كبيرًا على رغبتهم في تخليصهم منا، في مقاومة للعقل والمنطق، هم من يكتشفون تخبط أحكامهم الشخصية في نهاية المطاف. لا بد من الأخذ في الاعتبار أيضًا أنه كلما كانت مبادئ البيئة التي يعيشون فيها صارمة، برزت غرابة أطوار المجانين وبدت حماقاتهم أسخف. بين الفقراء المضطرين، للبقاء على قيد الحياة، إلى اعتناق مبادئ أكثر مرونة، يبدو الجنون أكثر طبيعيةً كأنه أقل تعارضًا مع لا معقولية الشقاء. لكن أحد أكبر مزاعم علية القوم، ذاك الذي يصبو تحديدًا إلى التأصيل لشرعية نفوذهم، هو أنهم تجسيد للعقلانية، بحيث يُعد الجنون المولود في كنفهم مشكلة حقيقية لهم. يعرِّض المجنون منزل الطبقة العليا للخطر من سقفه حتى أُسسه، وينزع الوقار عن قاطنيه، الأمر الذي يفسر اختباء أمراض الروح بصفة عامة كأنها عيوب شائنة. «لا بد أيضًا من وجود عائلات لا تعرف ماذا تفعل بمجانينها»، أخبرني بذلك الدكتور ڤايس ذات يوم في مدريد، في الفترة التي انتظرنا فيها تصاريح البلاط الملكي لإنشاء (دارنا) في (النيابة الملكية)[1]. في نظر العلم الذي جعل منهم هدفه، يمثل المجانين لغزًا، لكن في نظر العائلات التي يعيشون في كنفها، يمثلون مشكلة. واضح أن هذه التعقيدات تطرأ عندما تكون السمات الخارجية للخَبَل جليةً للغاية، لأنه، في الحالات التي لا يكون محسوسًا فيها، وهي أكثر شيوعًا مما يُعتقد بكثير،

(1) (النيابة الملكية): يُقصد بها الأراضي الخاضعة للتاج الملكي الإسباني. (المترجم).

يمكن للخلل العقلي نفسه أن يرتقي كمبدأ ويتحكم -في ظل امتثال الجميع تقريبًا- بخيوط العالم.

وإذ أنتبه إلى أن تأثير أستاذي الموقر ما زال يتجلى إلى اليوم في كثير من كلماتي، أعتقد أنه من الملائم أن أستحضره بصورة أكثر تفصيلًا. أما عن هيئته الجسدية، فيكفي القول إنها تشي من النظرة الأولى بهيئة رجل العلم: طويل، سمين بعض الشيء، تكشف الانحسارات العميقة لشعره الرمادي، الأشعث دائمًا، أعلى جبهته المُحمرّة عن النشاط الداخلي الدائم لرأسه، الأكبر قليلًا من الحجم الطبيعي والمتموضع جيدًا بين كتفيه المتينتين. من وراء نظارةٍ أنفيةٍ ذهبية الإطار، حينما لا تعتلي أنفه تتراقص أمام صدره وهي تتدلى من سلسلة ذهبية صغيرة يعلّقها حول عنقه، تتلألأ عيناه بلون أزرق شديد الصفاء، ثابتتين وثاقبتين، ساخرتين بعض الشيء، وفي لحظات التركيز الشديد، تختفيان وراء جفنيه نصف المفتوحين لتشيا بأقصى درجات انشغال عقله. يتجهم قليلًا وجهه المتورد الصادق حينما يفحص مريضًا، لكن ساعة العشاء، بعد يومٍ من العمل الشاق، يصبح النبيذ والحديث ملذتيه الأساسيتين. بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات على موته، لم أخن الأمانة بالكتابة عن ولعه بالجنس الأنثوي، على الرغم من أن الأمر كان أكثر من عادي في مثل تلك السن المتقدمة، ومثلما يحدث عادةً مع الشعوب الشمالية، فإن الأعراق داكنة البشرة حظيت بإيثاره. لم ترهبه المواخير، بل إنها أثارت فيه فتنة مفرطة، وبدا أن النساء المتزوجات يبعثن في شهوانيته انجذابًا إضافيًّا غير مفهوم. ولما كنت مُحاوره الرئيسي ومساعده وتلميذه الوفي، وغالبًا ما وجدتُ نفسي بجانبه إلى درجة يمكن عندها الخلط بيني وبين ظله، تحولتُ لأسباب واضحة إلى أمين سره، بحيث أعتبر نفسي بضمير مرتاح، على الأقل في الثلث الأخير من حياته، أفضل شخص عرفه. بعدما انمحت (دار الصحة) من الوجود وبات فراقنا محتومًا لأسباب خارجة عن إرادتنا إثر العودة إلى

أوروبا، إذ رجع هو إلى أمستردام، فيما التحقتُ أنا بمستشفى (رين)[1] طبيبًا مقيمًا حيث أتولى حاليًا منصب نائب المدير. ظللنا نتكاتب حتى يوم وفاته ونمزج في مراسلاتنا، برشاقة ومرح، بين الموضوعات العلمية والشخصية. كان شديد التدقيق بشأن نظافته الجسدية، وطالما أحب، في الطقس الحار، أن يكتسي كليًّا بالأبيض، بصورة لم يكن غريبًا معها وهو في بوينوس آيريس، كلما خرج ليمارس تسليته المفضلة في ليالي الصيف، أن يُتمتم صوت ذكوري بطريقة يتمازج فيها الاستهزاء مع التفهم، من عند العتبات المظلمة، والغرف شبه المعتمة، أو عبر النوافذ المفتوحة على مصراعيها لخلق تيار هواء خيالي، لدى رؤيته يمر: «ها قد أتى الدكتور الأشقر للبحث عن العاهرات». أعتقد أن أفضل طريقة لوصف الدكتور ڤايس تتعلق بتلك القدرة التي تمتع بها على ممارسة رذائله بحرية أمام أنظار الجميع من دون أن يفقد وقاره.

السبب على الأرجح أنه لم يخلط قط بين الملذات والعمل وأنه كان رجلًا عند كلمته: لم أسمعه قط يتفوه بكذبة أو يقطع وعدًا لا يستطيع الوفاء به. أرغمه أحيانًا ذوقه المتطرف والغامض في النساء المتزوجات على ألاعيب أخلاقية ليست بالقليلة، وفي مناسبتين أو ثلاث، مدفوعًا بحكم الظروف إلى ازدواجية لا مناص منها، شاهدته يتخلى بإذعان عن ملذات مضمونة له. كان قد صنع من ميوله أسلوب حياة، ونظامًا للمعرفة والعيش، شيئًا أشبه بالميتافيزيقا. في أحد خطابات الفترة الأخيرة كتب لي: «اللحظة موتٌ يا صديقي المحترم، موتٌ فحسب. الجنس والنبيذ والفلسفة، وهي تنتزعنا من اللحظة، تعصمنا -وقتيًا- من الموت». ورغم أنه لم يبد عليه التمييز بأي صورة من الصور بين الأصحاء والمرضى، فإن المرضى هم من عاملهم باستقامة أكبر؛ بدا أنه يعتبر نفسه مدينًا لهم باحترام أكثر من الأصحاء. وكان الأمر صحيحًا على نحو ما: فبعدما هجرتهم عائلاتهم التي نادرًا ما أتت لرؤيتهم، أصبح المجانين بين

(1) مستشفى جامعة (رين) الفرنسية. (المترجم).

أيدينا بصورة كلية، فصرنا آخر جسر بينهم وبين العالم. لدى افتتاح (دار الصحة)، حذرنا الدكتور ڤايس، أنا وغيري من طاقم الموظفين، من أن الكذب على المجانين ضرب من الحماقة، ولو فعلناه لشعر بنا المرضى كما يشعر الأصحاء بأولئك المجانين الذين يبذلون قصارى جهدهم لمواراة جنونهم، غير مدركين أن تلك الجهود هي ما يخونهم. يرى الدكتور ڤايس أنه لا جدوى من الكذب لأن الجنون، بمحض وجوده، يجعل من الحقيقة إشكالية. لطالما أثارت فضولي تفصيلة حين أسمعه يتحاور مع المرضى، ففي مرات عديدة، وأمام أكثر تأكيدات المجانين لا معقوليةً، نشبت في عينيه الزرقاوين، أكثر منها في شفتيه اللتين تنضغطان قليلًا، ابتسامة استحسان عابرة.

لم تكن الأمراض وحدها -ليس أمراض الروح فحسب بل أمراض الجسد أيضًا، التي على الرغم من قدرته على علاجها بالمهارة نفسها، امتنع عن الأمر حتى لا يفتعل خصومة مع الأطباء الآخرين في المدينة الذين لم يرد أن يسلبهم زبائنهم- هي محور الاهتمام الوحيد لأستاذي: كانت الطبيعة كلها بأكثر مظاهرها تنوعًا، بدءًا من الجريان الدوري للأجرام السماوية حتى أضأل زُهيرات السهل، التي اعتاد جمعها بعناية في مَعشبة، توقظ بداخله الفضول ذاته، وتحفز مواهبه في الملاحظة والتفكير. إن كانت حشرة أو نسمة أكتوبر الرقيقة أو سلوك حصان أو أطوار القمر، فقد حظيت جميعها عنده بالقيمة نفسها كمدعاة للتأمل، وقد سمعته غير مرة يقول، خلافًا لما أقره البشر، إنه لا وجود للتسلسل الهرمي في الطبيعة، وإن كل ظاهرة طبيعية تنطوي على القوانين التي تحكم الكون بأكمله، فإذا ما شُرحت قفزة برغوث بطريقة صحيحة على سبيل المثال -كان يحب أن يضرب الأمثلة بأضأل الأشياء- فستُفهم طريقة سير النظام الشمسي، لكن في جميع الأحوال يستحيل تفسير حدث طبيعي تفسيرًا صحيحًا، لأن المعرفة كلما اتسعت، اتسع معها الجانب المظلم من الأشياء. كان رجلًا ظريفًا وخدومًا، أو ربما أكثر من كونه ظريفًا

وخدومًا: ميَّالًا إلى التعاطف. حُمِد فيه هذا الملمح من شخصيته أكثر من أي شخص آخر، لو أخذنا في الاعتبار أنني، فيما يتعلق بالدين، لم أرَ قط ملحدًا أكثر اقتناعًا منه. في أحد خطاباته من أمستردام قال لي: «*بما أن الرب* غير موجود *فدورنا* نحن *البشر* تقويم *اعوجاج العالم*. كم تمنيت *أن أدعَ له هذه المهمة -في نهاية المطاف، إن كان موجودًا فالشر* مسؤوليته- *والتمكن* من تكريس وقتي *كله للشيء المثالي الوحيد الذي استطاع خلقه، الجنس الأنثوي!*». أثار إلحاده حيرتي في بعض الأحيان: إذ أعطى انطباعًا بأنه يعتبر عدم وجود الرب مدعاةً للبهجة. على الرغم من أنني شاركته قناعاته، فلا بد لي أن أعترف بأنه في مرات ليست بالقليلة، في حميمية أفكاري، بدا لي الوضع أقرب إلى الإحباط، ليس فقط بسبب العدم اللانهائي الذي يتربص بكينونتي الشخصية، بل أيضًا بسبب الإهدار الفظيع الكامن في وجود كونٍ بهذا القدر من الضخامة والتنوع والتلوُّن، قد بزغ بلا مقدمات ذات يوم جميل، لكي يتكرم بالانهيار فجأةً، وفي أي لحظة، ويختفي بغتةً كسابق عهده. لم ينبهر الدكتور ڤايس بتلك الاحتمالية بل بدا -على النقيض- أنها تحفزه، وأعتقد أنه لو وُجِد في فوهة بركان ثائر -وهي مغامرة أعتقد من ناحية أخرى أنه خاضها في نابولي قبل أن يتعرف إليَّ ببضع سنين-، فبدلًا من الشروع في الفرار، لفركَ يديه استعدادًا لدراسة المادة النارية التي توشك على إحراقه. بالنسبة إلى الأعوام الأربعة عشر التي استمر فيها وجود (دار الصحة)، فهذا ليس تشبيهًا بعيدًا. كان غليان الحمم يهددنا من كل جانب: هنود حمر، قطَّاع طرق، إنجليز، قوطيون، بهذا الترتيب المتزايد في الضراوة، ناهيك بالحديث عن العواصف والفيضانات والجفاف والجراد والبلاغات والدعاوى والحروب والثورات. في نهاية المطاف تحوَّل مستشفانا-معملنا، كما اعتاد الدكتور أن يطلق عليه، الذي تصورناه أبيض وهادئًا، إلى كومة الحطام التعيسة التي -كما أخبرني صديق- لا تزال موجودة إلى اليوم بين الأجمات. فيما يبدو، بعد التشتت المأسوي لنزلائنا -بحثنا عنهم بلا جدوى طيلة أسابيع- عاد اثنان

منهم في العام التالي وأقاما بين الأنقاض، من دون أن تطالب بهما أي عائلة. (ظل الهنود يبجلونهما ويجلبون لهما الطعام يوميًا حتى وفاتهما. عُرف لاحقًا أنهم هنود من مدينة (أريكو) اعتنقوا المسيحية ومارسوا سرًا أحد أشكال العبادة نحو المجنونَين، وأحسنوا معاملتهما لكي يحمياهم من قوى الشر).

لا شك أن السياسة والمال مهمان، لكنهما يصرفان الانتباه عن الأمور الجوهرية: هكذا أدت الحروب المتعاقبة وبُخل بعض العائلات، التي كانت تدفع تكاليف العام الأول لتتخلص من مرضاها وبمجرد أن تعهد بهم إلى (الدار) تتناسى مواصلة الدفع، إلى القضاء على مؤسستنا. بالنسبة إلى الجهات السيادية، على الرغم من تشجيع بعض المستنيرين لنا، فإن الكثير من الحكام، هم بصفةٍ عامةٍ رجال أعمال وأنصاف محامين وأصحاب أملاك وكنسيُّون وعسكريون، كل هؤلاء الجشعين تقريبًا، الظلاميين غير المتعلمين، ظلوا يراقبوننا باستمرار ووضعوا كل أنواع العراقيل أمام توسعنا. وحدهم من تعاملوا مباشرةً مع الدكتور ڤايس دعمونا دعمًا غير مشروط، لأنهم من خلال تلك المعاملة أدركوا طيبته وصدقه وكفاءته. وربما لأنهم اعتمدوا عليه وفي أكثر من مرة استطاع إخماد معاناتهم، فقد عشقه المرضى. بل إن المرضى الذين اعتبروه عدوَّهم ولم يكفوا عن سبِّه أو تهديده، زاعمين أنه يتخذهم سجناء بلا أي داعٍ ويعذبهم، وهو الأسلوب الذي لم يقدر أن يعامل به حتى المجانين الهائجين، أكنُّوا له احترامًا جليًّا رغمًا عن أنفسهم، ربما لم ينتبهوا له، وحين كانوا يتصنعون الاقتناع بأن الدكتور هو سبب كل عللهم، اتضح في كلامهم وتصرفاتهم أنهم لا يؤمنون تمام الإيمان بما يُقرون به. في ظل إهاناتهم الافترائية، التي تحملها الدكتور بابتسامته الصغيرة الباردة، حتى بلغ به الأمر أحيانًا أن يهز رأسه بالإيجاب كأنه يوافقهم، بدا الأمر كأنهم يريدون دفعه، بطريقةٍ أو بأخرى، إلى أن يمنحهم دليلًا على خطئهم، أو ربما عناية إضافية أو اهتمامًا خاصًّا. كذلك عشقه عمال (الدار) الذين عكف

على تكوينهم بنفسه.. كان معظمهم أشخاصًا بلا قدر كبير من التعليم، لكنه فكر في أن متطلبات عمله، أي الذكاء واللين والقوة الجسدية والصبر، لا ترتكز على التعليم. أرادت بعض سيدات المدينة الانضمام مجانًا، كعمل خيري، للعمل في (الدار)، لكن بمهارة دبلوماسية، أقنعهن الدكتور بأنه عمل خطير، الأمر الذي في حالات معينة، بل شديدة الندرة، قد يكون صحيحًا، وحينما استطاع التخلص منهن، أسرَّ إليَّ بابتسامته الصغيرة ووهج عينيه الصافيتين: «"مجانًا" هو نوع آخر من الخدمات قد أطلبه من أكثرهن شبابًا».

هو نفسه الذي صمم ونفذ مخططات (الدار) الهندسية. من طابق واحد، على هيئة مستطيل يتألف من سلسلة أروقة تضم ثلاثة أفنية. أطلت الواجهة على النهر «كما يُطل معبد (كونكورديا)[1] على البحر في موطن أمبادوقليس[2]»، هكذا اعتاد الدكتور أن يقول بتهكم. الجدران من الطوب اللبِن السميك، بيضاء ناصعة على الدوام، والعوارض الموضوعة خلف النوافذ تحاكي القصور الكولونيالية، لكن صفوف الغرف التي تُفتح على الأفنية توحي بتصميمات الأديرة أو الأخويات الدينية أو الأكاديميات الريفية. وحدها أبواب الرواق الأخير للفناء الأخير أُغلِقت بمفاتيح. أما الأبواب الأخرى، بما فيها باب أستاذي، فقد كانت في غنى عن تلك الحماية. عشنا في مجتمع مع مجانيننا. بالنسبة إلى عمال (الدار)، لم يغلق أحد منهم على نفسه بالمفتاح إلا من رغب في ذلك، وهم قلة قليلة. خُصصت الغرف الخلفية للمرضى الذين يمرون بفترات من الهياج الحاد. انتهى المطاف بالجميع إما بالتأقلم على الانفعال الدائم لبعض المجانين وإما بالاستقالة، لكن عادةً ما كانت النوبات الفجائية لبعض الانطوائيين هي الأعنف. في تلك الحالات يصبح العزل ضروريًّا، فنتركهم بمفردهم حتى يستولي عليهم الاكتئاب مرة أخرى. في

(1) معبد يوناني يقع في (وادي المعابد) بمدينة (جرجنت) الإيطالية القديمة. (المترجم).

(2) فيلسوف يوناني عاش في فترة ما قبل سقراط. (المترجم).

واقع الأمر، من خلال تطبيق نهجنا، أي نهج الدكتور ڤايس، نادرًا ما تعرضنا على مدار الأعوام الأربعة عشر لحالات مجانين هائجين قد يعرِّضون مجتمعنا أو أحد أفراده للخطر. فكلما استهواهم العنف وجهوه نحو أنفسهم بصورة أكبر. أحيانًا، ومن دون سبب واضح، كان أحدهم يركض بغتةً ليضرب رأسه في الجدار فينزف ويفقد وعيه. واحد آخر، من دون سابق إنذار، يقرر تشريح جسده كاملًا بسكين. لكن خلال أربعة عشر عامًا، لم نُفجع إلا بثلاث حالات انتحار. فتى برازيلي مصاب بانجذاب دائم ولا يقاوَم نحو الماء، في نهاية المطاف ألقى بنفسه في النهر، وعجوز شنق نفسه على شجرة في الفناء الثاني ذات صباح شتوي، وامرأة سممت نفسها. (كانت قد أمهلت نفسها ستة أشهر للشفاء، ووصلت إلى (الدار)، كما تشرح في الرسالة التي تركتها، عاقدةً النية وبحوزتها السم مخفيًا لاستعماله إذا لم يأتِ علاج الدكتور، الذي مثَّل محاولتها الأخيرة للتعافي، بأي نتيجة).

وُزِّع طاقم الموظفين، الممتزج بالمرضى، على مجموعات الأروقة الثلاث، التي شكَّلت في الواقع ثلاثة مربعات، ذات جانبين داخليين مشترَكين. كوَّنت المربعات الثلاثة، المشيدة في صف وهيكل واحد، مستطيلًا. يشترك المربع الأوسط في الجانبين الفاصلين مع المربع الأدنى الموجود عند المدخل والمربع الداخلي: كان الدكتور شغوفًا بعلم الهندسة إذا ما تعلق الأمر بالعمارة. مثَّل أول هذين الجانبين الفاصلين للمربع الأوسط بهوًا طويلًا يُستعمل كغرفة طعام ووُضع الموقد عند أحد طرفيه. كان الطباخ موظفًا، لكن مساعديه والخدم الذين يعدون المائدة مجانين. تبعًا لتعليمات الدكتور ڤايس، إذا رغب أحدهم في الطبخ فعلى الطباخ أن يضع المطبخ تحت تصرفه. بعد فترة من الزمن، صار الطباخ يذهب في زيارة عائلته ليومين أو ثلاثة، على الجانب الآخر من بوينوس آيريس، تاركًا المطبخ في عهدة أحد المرضى. في الأروقة الجانبية المقابلة للمربع الأمامي، بعد المدخل مباشرةً، حظيتُ أنا والدكتور

ڤايس بغرفة لكل منا، هو على اليسار وأنا على اليمين، كانت في الوقت نفسه مكان عملنا.

احتوت (دار صحتنا)، على أدوية قليلة جدًّا في الحقيقة. وفقًا للدكتور ڤايس، من بين الأسباب العديدة التي يمكنها تفسير الجنون، فأقلها احتمالًا هي النابعة من الجسد، ولأنها أمراض روحية، فإن الروح هي حيثما ينبغي البحث عن السبب. «لكن هذا المزيج من المشاعر والعواطف والخيال والفِكْر، الكذب والحقيقة، الخير والشر، الحب والكراهية، الجريمة والندم، الرغبة والتخلي، الذي هو الروح...»، مثلما أخبرني الدكتور ڤايس في أحد الخطابات الأولى التي أرسلها إليَّ من أمستردام، «لا يسهل عملنا. بطريقة ما، يمثل الجسد للبشر منطقةً بعيدةً عنهم، وإن تمكنوا من تحميله مسؤولية كل شرورهم، فإنهم ينسبون هذه الشرور إلى سيطرة الطبيعة، التي هي مرادف القدَر في نظرهم. وعلى النقيض من ذلك، فهم أنفسهم متورطون بعمقٍ فيما يسمونه الروح. في الغالبية العظمى من الحالات لا يكون التعامل مع الآخرين من خلال الجسد، بل الروح. الجسد أرض مجهولة لا يمكن أن يطئها أو يتأملها إلا قلَّة من ذوي الامتيازات، بينما الروح في تعامل مستمر في الساحة العامة، ومن يتباهون بالحفاظ على عذرية روحهم واستتارها لا يعرفون إلى أي مدى قد تصبح تلك الملكية التي يظنونها خفية وأثيرية مشاعًا بين الآخرين. لذلك فالجميع تقريبًا يفضلون العثور على سبب كل الشرور في الجسد». غني عن البيان أن النهج الرئيسي للدكتور ڤايس تمثَّل في إقامة علاقات مع المرضى تمامًا كالتي يقيمها مع الأصحاء، وعدم استخدام أي نوع من العلاج، المؤقت بصورة عامة، إلا في حالات الضرورة القصوى كوصف بعض الأدوية على سبيل المثال أو العزل أو الحمامات الباردة أو الساخنة. اضطررنا في مناسبات نادرة جدًّا إلى أن نلجأ إلى سترة التقييد. أما بخصوص الحمامات فقد شكلت جزءًا من روتيننا، إذ أخذها المرضى في مكان عبارة عن بناية منفصلة، بالقرب من

النهر، بيضاء ومُعتنى بها كالمبنى الرئيسي. اعتدنا علاج أمراض الجسد وفقًا للطرق الاعتيادية، ومع الحالات التي تحمل قدرًا من الخطورة لم يتردد الدكتور في استقدام زميلٍ من بوينوس آيريس بغرض الاستشارة. لكن ينبغي لي أن أضيف، إن أردتُ مراعاة الحقيقة الصارمة، أن الغالبية العظمى من المرضى الذين خضعوا لرعايتنا بدوا بصحة استثنائية من الناحية الجسدية. في ظل إقامتهم في عالم خاص، مشيَّد كليًّا بفعل خيالهم الهذياني الذي غالبًا ما يستعصي على الآخرين فهمه، بدوا بمأمن عن العوارض الطبيعية التي لا بد أن يعانيها من يتمتعون، كما يقال، ببصيرتهم الكاملة. في ذلك العالم الخاص المتكيِّس داخل عالم المظاهر، أوحوا بأنهم يمدون جذورهم ويعانون، ليس التحلل الذي ينتظر كل مادة، بل جفافًا لا نهاية له، تكليسًا بطيئًا ربما لا يمكن حساب زمن طهوه بأدوات معروفة. إن الأجزاء التي أخذت تنفصل منهم في حد ذاتها؛ شعرًا، أسنانًا، جلدًا، أحيانًا عينًا بدت كأنها تتبخر خلف جفن عاجز عن الانفتاح، بعض الأصابع المقطوعة في حادثٍ ما، ساقًا تيبست وامتنعت عن السير فأجبرتهم على جرها طوال الوقت كقطعة أثاث قديمة؛ بدت كأجزاء طردٍ تمزقت بسبب وعثاء السفر، ورغم ذلك من دون أن يتعرض الغرض الذي تحميه لأدنى قدر من الضرر.

في الأعمال المنزلية، شارك كل فرد حسب احتياجاته ورغبته، كما كانت أعمال الإصلاحات والطلاء والحديقة والبستنة، وكذلك الاعتناء بالحظيرة الموجودة خارج المبنى، بخلاف الأسناط الثلاثة الكبيرة التي سُمي على إثرها المكان، ومهام المطبخ التي أتيت على ذكرها، توزَّع كلما دعت الحاجة بين المتطوعين المتقدمين للأمر، الذين لم يُستثن منهم الدكتور ڤايس نفسه. رأيته أكثر من مرة يرعى مريضًا بينما يعتني بالبستان أو يطلي الجدران الطوبية، التي كان الحفاظ على بياضها الناصع، إلى جانب النظافة الدقيقة للأروقة والغرف، وكذلك الاعتناء بالحظيرة والأفنية المشجَّرة، يشغل معظم

العمل اليومي. أما بخصوص هذه المهام المنزلية التي تُنجَز بالتعاون، فعليّ أن أقول إنها لم تكن نتاج تطبيق نظام معين بقدر ما هي، من ناحية المرضى، نتاج رغبة المتطوعين، ونظام العمل هذا الذي خطط له الدكتور قايس بعناية خاصة، يبرهن مجددًا على واقعيته التي يُضرب بها المثل وفطنته التي لا تخيب. إذا أمكن تعريف الجنون على أنه الهذيان ذاته الذي يكشف عنه، وإذا أمكن أن تغيب المعاناة عن المرضى في كثير من الحالات، فالواضح أن السمة الثابتة الأخرى له هي أنه لا يخضع للسيطرة: فالعقل، القادر على فرض نظامه حتى على الأشعة الساقطة من السماء، سيُخفق على الرغم من ذلك في ترويض الهذيان. عند محاولة التعامل معه، من باب الحكمة الاعتماد على أهوائه وليس على طاعته، وغالبًا ما امتثل مجانيننا للقواعد التي فرضها عليهم هذيانهم الذاتي وليس التي أُمليت عليهم من العالم الخارجي، وأحيانًا حدثت النتيجة المتوقعة وانتهى المطاف بالعالم الخارجي، الحتمي حتى ذلك الحين، بالإذعان لتلك القواعد. أذكر أنه في عام ألف وثمانمئة وأحد عشر، اضطلع أحد موظفي الثورة بتفتيش منشأتنا، ولأمكن اعتباره من ضمن أعدائنا لو لم ترسله بعد أيام قليلة من زيارته كبوة غير متوقعة لجواده إلى العالم الآخر كما يقال، وقد أدلى بتعليقٍ لم يخل من بعض الأهمية قائلًا إنه عانى الأمرّين طيلة جولته في (الدار) للتمييز بين المجانين وغيرهم، ليرد أستاذي الموقر، بالوهج المعتاد في عينيه الزرقاوين الصافيتين، لكن من دون أن يحصل منه حتى على أصغر ابتسامة تواطؤ، بأنه حين يمضي في شوارع أو صالونات بوينوس آيريس غالبًا ما تصيبه الحيرة ذاتها.

لا ترمي هذه المذكرات إلى حكاية تفاصيل الحياة في (دار الصحة)، بل تفاصيل رحلتنا عام ألف وثمانمئة وأربعة، التي تضاعفت فراسخها المئة القليلة بسبب العقبات -المتوقع منها وغير المتوقع- التي عرقلت تقدمنا، وبسبب الظواهر الطبيعية التي أفسدت خططنا، وبسبب الحوادث النادرة التي

قادتنا أكثر من مرة إلى شفير الكارثة. لكن قبل التطرق إليها، أود أن أبدي بعض الملاحظات عن الظروف التي أدت إلى اختفاء (الدار).

يمكن تفسير السهولة التي حصلنا بها في مدريد على التراخيص اللازمة لبناء منشأتنا بحقيقة أن (التاج) ارتأى أن كل مؤسسة جديدة تُقام في المستعمرات تساهم في ترسيخ وجوده فيها، وكذلك بسبب جهل أغلب مسؤولي (البلاط) بالنهج الذي نتبناه والطريقة التي ننوي تطبيقه بها، على الرغم من أن الدكتور ڤايس استقى إلهامه جزئيًا من نموذج بعض أطباء (بالنثيا)، الذين مارسوا خلال القرن الماضي علاجًا أكثر إنسانيةً للجنون. ربما لا بد لي أن أضيف إلى هذا مسألة اضطرارنا إلى دفع ضريبة، الأمر الذي، نظرًا إلى الوضع المالي لكل الممالك الأوروبية تقريبًا، يسرِّع دائمًا جميع الإجراءات. ومن جانب آخر، فلاقتناعهم بأن كل ما لا يشغل اهتمامهم غير موجود، ظن المسؤولون أنه في أمريكا لا يوجد مجانين قد تدفع عائلاتهم لأحد نظير الاعتناء بهم، بحيث إنهم في قرارة أنفسهم لم يشكوا في أنني والدكتور ڤايس ساذجان مستعدان لتبديد ثروتهما على مؤسسة لا عقلانية محكوم عليها بالفشل. لكن حينما فتح المستطيل الأبيض الطويل أبوابه على أعتاب (الأسناط الثلاثة)، وبدأ توافد المرضى، شرع المسؤولون المحليون يأخذوننا على محمل الجد، وحينما شاعت وسائلنا المستحدثة انقسم الرأي العام حول جديتها وفاعليتها بل وحتى حشمتها. فالكنيسة مثلًا، التي مُنحت صلاحيات في المستعمرات لم يكن ليجرؤ أحد على قبولها في العاصمة، سعت لإبداء رأيها حول الطريقة التي يجب أن يعامَل بها المرضى، الأمر الذي تطلب من الدكتور ڤايس صبرًا لا ينفد ومهارة دائمة الاستعداد للتغلب على الصعوبات. خلال مداولاتنا الخاصة، قال لي الدكتور إن المواجهة المباشرة مع رجال الدين في الوقت الراهن ستكون عديمة الجدوى ولا تخلو من الخطر وإن الطريقة المثلى للتصدي لهم هي مواصلة عملنا العلمي دون امتيازات،

لكنه في الوقت ذاته، حتى عندما اضطررنا إلى تجنب الاستفزازات، لم يكن على استعداد للتنصل من أفكاره. بعد ذلك بسنوات حينما اندلعت الثورة، أمِلنا أن يصل مداها إلينا وينال عملنا التقدير، لكن كثيرًا من أنصارها لم يختلفوا في شيء تقريبًا عن أعدائها من حيث أفكارهم السياسية والعلمية والدينية. لم تفعل الحروب التي أعقبتها شيئًا سوى تأزيم الأمور: كانت حروب الاستقلال حبلى بالحروب الأهلية، بل ويمكن القول إن المواجهات الأولى لحروب الاستقلال مثَّلت نوعًا من الحرب الأهلية، لأن من أردوا بعضهم قتلى هم أنفسهم من حاربوا الإنجليز معًا قبلها بخمس أو ست سنوات. خلال أعوام الحرب، والحق يقال إن المنطقة على الرغم من ذلك لم تكن قط بمثل هذا الهدوء، اعتدنا أن نرى مرور سرايا الجنود الذين انحرفوا عن مسارهم -بحرًا أو برًّا- في بعض الأحيان وجاؤوا ليطرقوا بابنا، بدافع الفضول أو في زيارة استطلاعية، أو أحيانًا لطلب بعض الماء وحتى الطعام. بصفة عامة، كلما تحققوا من كونه مستشفى، ولا سيما عقب اكتشافهم نوعية المرضى الذين نعالجهم، سارعوا إلى تركنا وشأننا: فالمعهود أن الجنون، حين لا يُضحك، يثير القلق بل والفزع أكثر من أي شيء آخر.

لم يكن كل شيء عبارة عن عدم فهم وتهديد في العالم المحيط بنا، وعليَّ الاعتراف بأنه في الأعوام الأربعة عشر التي استمر فيها وجود (دار صحة) الدكتور ڤايس، كان ثمة مجموعة من الأصدقاء والمدافعين، المنحدرين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع القطاعات السياسية، بما في ذلك مسؤولون في الحكومات المتعاقبة وعلماء ورجال دين، يساندون تجربتنا بكل السُّبل. وكانت طائفة لا بأس بها من عائلات مجانيننا، لا لشيء إلا لكيلا يضطروا إلى رؤيتهم يعودون مجددًا إلى منازلهم إذا ما أُغلقت مؤسستنا، يدفعون في المواعيد المحددة بدقة، ولأنها جميعًا بلا استثناء تشكل جزءًا من الطبقات العليا التي مُنحَت وحدها الحق في الحكم، بغض النظر عن الشريحة

التي تنتمي إليها، فقد استغلت نفوذها بكل السُّبل لكيلا نتعرض للمضايقات. لكن في مرات ليست بالقليلة، كادت بعض الضغائن والخصومات وتضارب المصالح أن تضيعنا. حينما اندلعت حروب الاستقلال، اتهمنا الثوار بالانحياز إلى الملكية واتهمنا الملكيون بالانحياز إلى الثورة. ولأننا قد أنشأنا مؤسستنا بتصريح من (التاج)، فقد اتهمنا الحكام (الكريولو)[1] بالتجسس، بل زعم بعضهم أننا لا نقبل في (الدار) سوى المرضى المنتمين إلى عائلات مناصرة لقضية الثورة. الأمر الأكثر عبثية في ذلك الموقف أنني والدكتور ڤايس كنا ثوريين عن اقتناع منذ الأزل -كان هو في شوارع باريس عام 1903- لكن لاضطرارنا إلى مواراة الأمر خلال فترة (النيابة الملكية) للبقاء على قيد الحياة، زعم الثوريون أننا نتظاهر بدعم قضيتهم بدافع انتهازي، أو الأسوأ من ذلك، بهدف ممارسة مهنتنا التجسسية المزعومة بمزيد من الكفاءة. ما حدث في الواقع هو ما يحدث في جميع الثورات، أي أنه من بين الزعماء تتكون مجموعة صغيرة من الثوريين عن اقتناع، ينتهي بها المطاف دومًا بالخسارة، بينما تتكون البقية، من جهةٍ، من رجال نافذين من الحكومة السابقة يتغيرون وفقًا لسير الأمور، ومن جهةٍ أخرى من أفراد لا يؤيدون هذا ولا ذاك ويكتفون باستغلال الظروف غير المتوقعة التي أوصلتهم إلى السلطة. بخلاف العائلات التي عهدت إلينا ببعض أفرادها، وبعض العلماء الذين اهتموا بعملنا اهتمامًا صادقًا، لم يفهم أحد ما نفعله، فعانينا الآفة الأبدية التي طالما هددت من يفكر، وهي تحمُّل ريبة أولئك الذين يعتبرون كل ما لا يفهمونه أمرًا مشبوهًا.

قيل لي إن تعرُّض المرء للذبح أمر سهل في تلك الأراضي في الوقت الحاضر (*في حدود عام 1835 وفقًا لحساباتي. ملحوظة بقلم م. سولدي*)؛ في أيامي كان الإعدام رميًا بالرصاص هو ما يبدو رائجًا. باختصار، من

(1) شعب الكريولو هم الأمريكيون اللاتينيون من أصل إسباني فقط، ويميزهم هذا المسمى عن الأمريكيين اللاتينيين متعددي الأعراق أو الذين من أصل مهاجرين أوروبيين في حقبة ما بعد الاستعمار. (المترجم).

أنقذَنا من تلك النهاية المفجعة وشديدة الإذلال حليف غير متوقع، هو القنصل الإنجليزي، الذي طالما فكر فينا كدجالَين -وسامحوني لأنني أنسب ملَكة التفكير إلى دبلوماسي، وفوق ذلك إنجليزي، في سبيل جعل حكايتي أكثر سلاسةً-، على الرغم من الشك الذي خامره في الحقيقة -لسبب وجيه من ناحية أخرى- في أنني والدكتور ڤايس، اللذين اعتدنا مصادفته في لقاءاتنا الترفيهية، نفرط في السخرية منه. بعد فترة وجيزة من استقراره مجددًا في أمستردام، كتب لي الدكتور: «ها نحن أولاء سالمان آمنان مرة أخرى في أوروبا، وهذا بفضل مستر ديكسن. كان المسكين حائرًا بين كراهيته لإسبانيا لأسباب تجارية وكراهيته لكل ما هو ثوري لفطرته القومية، فوجد نفسه دائمًا في خدمة سيدين في آنٍ واحد من دون أن يتعاطف مع أحدهما. وعلى الرغم من ذلك، فإن مفهومه عن الشرف، الذي لم يدعمه الواقع، أنقذ حياتنا». لا أعتقد أنني سأسيء إلى أحدٍ بشرح التلميحات الواردة في خطاب الدكتور بعد عشرين عامًا.

منذ بضعة أشهر استقبلت (الدار) شابًا تشيليًا مريضًا بالاكتئاب، انحاز والده إلى قضية إسبانيا فأُعدم بتهمة الخيانة العظمى في (بالبارايسو)[1]. أبلغ أحد جواسيس الحكومة قائدًا عسكريًّا في بوينوس آيريس بشأن وجود الشاب التشيلي في (الأسناط الثلاثة)، وجزم القائد العسكري بأنني والدكتور، متذرعين بمرضه، نبقيه في (الدار) لحمايته، وأنه في الواقع ليس مريضًا بل هاربًا من العدالة، وهو ما يبرهن وفقًا لذلك العسكري، ومثلما يرتاب بعض الناس، على أننا جاسوسان تابعان لملك إسبانيا. كان الشاب الذي وقع فريسة لأعمق حالات الاكتئاب مريضًا بشدة، وبطبيعة الحال رفضنا تسليمه. لكن حينما غادر مبعوثو القائد العسكري، شرح لي الدكتور ڤايس، بتعبير قلِق،

(1) مدينة وبلدية تشيلية، تُعد واحدة من أهم الموانئ البحرية في البلاد والعاصمة التشريعية لتشيلي. (المترجم)

أنه هو والرجل العسكري يعرفان أن الشاب التشيلي ليس إلا ذريعة، وأن الأسباب الحقيقية هي الشكوك غير المعلنة للرجل العسكري الذي تخونه زوجته مع الدكتور الذي تنهد قائلًا: «شكوك افترائية، فأنا وميرثيديس لم نلتق منذ ستة أشهر». بشكل ما، فإن الميل الغامض لأستاذي العزيز نحو النساء المتزوجات هو ما أوشك على وضعنا أمام فرقة الإعدام.

بعد يومين أو ثلاثة ألقوا القبض علينا وهددوا الموظفين لإجبارهم على العودة إلى بيوتهم. عاد رجلان نبيلان سرًّا إلى (الدار) بدافع القلق على المرضى، فجُلدا وقُيِّدا من أطرافهما وجُندا بالإكراه. بضراوة وتعمد، نُهب المبنى ودُمِّر بينما تشتت المرضى. سُجنت أنا والدكتور في معسكر القائد العسكري لثلاثة أسابيع حتى أتوا من أجلنا في فجر أحد الأيام وأخذونا إلى الريف، مازحين بأنهم سيطلقون النار علينا، وبعدما وجهوا إلينا بعض الضربات وضعونا نصف عاريين على صهوة جواد واحد بلا سرج -أمسكت أنا بلجامه- وحررونا.

في بوينوس آيريس، ذهب الدكتور ليطلب تفسيرًا من الحكومة لتصرف القائد العسكري الذي لا يغتفر، وهكذا علمنا بأفظع تفصيلة من مغامرتنا: على الرغم من مرضه، فقد قُبض على الشاب التشيلي بأمر من القائد العسكري، وأُعدم رميًا بالرصاص في اليوم التالي بتهمة الخيانة التي لا تقلُّ عارًا عن كونها باطلة. ارتعدنا غضبًا وألمًا، مترنحين بين الضيق والانتقام، لكن الأمر الأكثر إلحاحًا كان الخروج للبحث عن المرضى الذين شردهم الجنود، فشكَّلنا عصبةً، بدعمٍ من حُماتنا، وخرجنا إلى السهل الرحب لمحاولة العثور عليهم. أرشدنا أوسونا الأمين، الذي لم يبد عليه تعاقب السنين، عبر ذلك الفضاء المتماثل الذي لم يقدر أحد غيره على تمييز تفاصيله وفوارقه الدقيقة، الذي شابهه في تطابقه الدائم مع ذاته. لكن إبان الأسابيع التي بحثنا فيها ليلَ نهار، لم نجد أثرًا واحدًا للمرضى الذين شردهم العسكريون. بعدها بسنوات،

وحتى يوم وفاته في الحقيقة، ظللت أنا والدكتور نتكهن في مراسلاتنا حول التفسيرات المحتملة لذلك الاختفاء الكلي والمفاجئ.

استطعت للمرة الأولى أن ألاحظ في أسارير الدكتور انعكاس شعور كان مجهولًا بداخله حتى تلك اللحظة، إنه الكراهية، وشعور آخر زادني حزنًا: الندم. على مدار عدة أيام، أخذ يهيم في صمت وكآبة بين الفوضى المتقيحة التي خلَّفها الجنود في (الدار)، البستان والحدائق المدهوسة، النباتات المجتثة من جذورها، الزجاج المكسور، الأثاث المهشَّم، الكتب منزوعة الأوراق والمحترقة، الأوراق المبعثرة. انتهى المطاف بأخصب سنوات حياتنا وقد دُمرت بلا سبب يُذكر على يد الهمجية التي -لإخفاء غرائزها غير المعلنة- سعت إلى تنصيب نفسها نظامًا وقانونًا. لا بد لي أن أشير كذلك إلى أن نزيلًا ممن استضافتهم (دار) الدكتور قايس البيضاء، رغم وضعهم وافتقارهم إلى العقل، ورغم أن عائلاتهم نفسها قد تبرأت منهم، لم يكن ليقترف مثل هذه الأفعال الشنيعة، الأمر الذي قد يبرهن على أن العقل -وهي الحجة التي سمعت الدكتور يذكرها مرارًا- لا يعبر دائمًا عن أفضل ما في البشرية.

نمنا تلك الليلة بين الحطام، وفي اليوم التالي انتقلنا إلى بوينوس آيريس مع ما استطعنا إنقاذه من الكارثة: بعض الكتب، خمس أو ست صفحات من معشبة، تمثال (جالينوس)[1] النصفي الذي نجا بأعجوبة. لكن الكآبة اللانهائية التي بدت مسيطرة على الدكتور لم تدم إلا قليلًا، فبعد ثلاثة أو أربعة أيام ارتسم على وجهه إصرار جديد وحاد بثَّ في نفسي قليلًا من الرهبة. ذات ليلة، في أثناء عودتنا من إحدى الحانات، وهو تحت تأثير الثرثرة التي يسببها له النبيذ، شرح لي خطته: سيتحدى القائد العسكري في نزال. عرض عليَّ الدكتور تلك الفكرة الرعناء، التي مثلت عملًا انتحاريًّا، بوضوحه

(1) طبيب إغريقي مارس الطب في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وعالج عديدًا من الأباطرة الرومان. (المترجم).

المنطقي المعتاد، وهو راضٍ تمامًا عن حجته العقلانية، التي أوحت بأنه نسي أعوامه العديدة من ممارسة الطب، كان شغله الشاغل خلالها هدم مغالطات المرضى الهذيانية بصبر ونفاذ بصيرة، الذين عجزوا، كحال الدكتور الآن، عن رؤية تسلسلها الجنوني بأنفسهم. وفقًا للدكتور، لن يكف القائد العسكري عن ملاحقتنا، وهو أمر صحيح لا شك فيه، وليس أمامنا خيار سوى الفرار منه أو مواجهته. لكن من الجليّ أننا لا نستطيع ملاحقته في معسكره، لأن التفوق العددي لقواته عائق لا يمكن التغلب عليه، ولا اغتياله على قارعة الطريق، ولا إبلاغ السلطات عنه، فهو في جميع الأحوال يُعد جزءًا منها وله تأثير كبير فيها. لم نكن نستطيع كذلك أن ننصب له كمينًا (كل ما أفعله أنني أعدد الخيارات التي، على سخافتها، أخذ الدكتور يقترحها). وفقًا له، فإن إهانته أمام شهود وإجباره على الدخول في نزال يقدم له فائدتين أساسيتين: الأولى أن الحادثة ستسهم في أن تشيع بين العامة، وربما في العالم المتحضر كله، الهمجية التي ارتكبها القائد العسكري، وتدمير (الدار)، وإعدام الشاب التشيلي، وتشريد المرضى؛ والثانية، وقد عبَّر عنها بالزهو الطفولي بعض الشيء لمن أنهى للتو بناء قياسٍ منطقي لا تشوبه شائبة، أن النزال هو الخيار الوحيد الذي يمنح أملًا بعيدًا بالنجاة من المغامرة. في الوقت ذاته، سيؤدي هذا الاستفزاز إلى وقوع المسؤولية بأكملها على شخصه، وجعلي بمأمن عن الثأر. (كان هذا الحرص اللطيف على سلامتي اعترافًا ضمنيًا لا شك فيه بالأصل الغرامي للصراع كله).

ارتأى الدكتور أن الخطة الانتحارية التي انتهى للتو من عرضها عليَّ لا يمكن دحضها، لدرجة أنه قال لي بعدم نفاقه المعتاد، وهو يفرك يديه، إن العودة إلى الماخور ستنعش أفكاره، وتركني في الشارع المظلم الموحل، مرتعبًا مما سيأتي. بدا لي الهرب، بلا أدنى شك، أكثر الحلول عقلانية. صحيح أن الدكتور ليس من أولئك الذين يهملون العناية بأجسادهم بحجة الدراسة،

لكنه لم يعد شابًا، كما أن خصمه، كونه رجلًا عسكريًا، محترف حقيقي في الموت. كانت نتيجة ذلك النزال غير المتكافئ محسومة، لكن بريق الرضا في عيني الدكتور ڤايس جرَّدني سلفًا من أي رغبة في إقناعه بالعدول عنه.

بدأت تطاردني أفكار جنونية كأفكاره. لا شيء يحفز الهذيان أكثر من مواجهة وضع لم يكن المرء مستعدًا له؛ كان العنف والقوة التعسفية يستعصيان علينا، نحن رجلَي القاعات والمكتبات، بقدر ما تستعصي رقصة (المنويت) على الهمجي، أو التبذير على البخيل. خطَر ببالي أن أستبق الدكتور وأفتعل بنفسي نزالًا مع القائد العسكري، الذي سيوفر لي شبابي احتمالات أكثر للانتصار عليه، لكن حتى لو كلفني الأمر حياتي، فأنا واثق حتى اليوم بأن أحدًا لم يكن ليستطيع أن يثني أستاذي عن استفزاز المتسبب في جميع مشكلاتنا، فتكون تضحيتي قد ذهبت هباءً. كان إقناعه بالهرب ليقتضي جهدًا مضنيًا، لكنه فوق ذلك عديم الجدوى: وحده شخص مثلي، يعرف مرونة تفكيره الأنيقة، استطاع التمييز بين إصراره ومحض مكابرته. بمجرد أن يتخذ قرارًا يصبح مستبعدًا، إن لم يكن مستحيلًا، أن يمنعه أحد عن تنفيذه. وبينما أتقدم متحسسًا طريقي عبر شوارع بوينوس آيريس الموحلة، باغتتني بصورة ملتبسة حلول عديدة مستحيلة وجزئية على حد سواء وبدت فعالة خلال بعض الثواني، حتى اتضحت سخافتها بالانفعال ذاته الذي ظهرت به داخل رأسي، فانهارت سريعًا. حين عدت إلى هدوء غرفتي فحسب، ولا سيما إلى وجودي في الوضع الأفقي، وأخذ تعب اليوم يتبدد، بدأت أفكاري تزداد وضوحًا متيحةً لي تصور الحل الذي، ليس لأنه الأكثر عاطفية، لم يعد هو الأكثر عقلانية: الذهاب للتحدث مع زوجة القائد العسكري.

بطبيعة الحال، لو فعلت ذلك لما استطعت ألا أكشف عن معرفتي بعلاقاتها مع الدكتور، ولاضطررت إلى التحدث باسم العلم عن المرضى الشهداء، مستغيثًا بإحسانها المسيحي، إلخ. لم يكن ينبغي بتاتًا أن يعرف

الدكتور ڤايس بشأن مسعاي، لأن ذلك سيحول دون تنفيذ خطتي. بعد ذلك بأشهر، كتبت إليه من رين إلى أمستردام لأخبره بتدخلي وسيطًا (افتقرت إلى الشجاعة لأفعلها خلال عبورنا الأطلسي) لكنه -لدهشتي- أجابني بأنه كان على علم بكل شيء، وأن رسالة حديثة العهد من ميرثيديس قد استقرت بين يديه من خلال المخابرات الإنجليزية بنفسها، احتوت على التفسيرات التي قدمتُها إليه في خطابي، وغيرها مما سيتضح لاحقًا.

بعد إجراء الاستقصاءات اللازمة، بعثت إلى زوجة القائد العسكري برسالة مباشرة. تأخر الرد يومين خشيت فيهما أن يقتحم الجنود نُزُلنا ويجرجروننا نحو فصيلة الإعدام، لكن في صباح اليوم الثالث جاءت إليَّ خادمة سوداء بدعوة لمشروب شوكولاتة في عزبة بالضواحي. في تمام الخامسة من مساء ذلك اليوم أتى عبد أسود ليصحبني إلى مكان اللقاء.

في الحديقة أكد لي مالكا المنزل، وهما وطنيان لا غبار عليهما مثلما اكتشفت فور وصولي، ما خمنته خلال الدقائق الأولى من الحديث، وهو أنهما والدا أحد مرضانا التائهين الذي قد يكون، في الدقيقة التي نتحدث فيها، ميتًا في السهل. حين وصلت زوجة القائد العسكري، ظلا معنا قليلًا بعد التعارف لتبادل بعض عبارات المجاملة، لكنهما انسحبا في غضون دقائق بلباقة كبيرة. بينما أعرض عليها الموقف، ولأن السيدة ميرثيديس أصغت إليَّ بجفنين نصف مغلقين، لم أمنع نفسي من فحصها، لأتحقق إلى أي مدى اجتمعت في شخصها الصفات الأنثوية التي تكوِّن تفضيلات الدكتور ڤايس: قوالب سخية، هدوء وتحكم ذاتي، شعر أسود لامع، والأهم تلك البشرة الداكنة المشدودة التي طالما أذهبت عقله، وذلك السحر المعتاد، غير المحتمل والشهي في آن واحد لأنه يخص رجلًا آخر، الذي مثَّل لأستاذي -بمجرد ظهوره- مصدر استثارة وتعقيدات خطيرة في الوقت ذاته. لطالما جذبت طاقتَه هذه الصفاتُ مجتمعةً في قالب ناعم ودافئ، بسبب أُلفة قديمة لا يُسبر غورها، وجعلته يدور

حلزونيًا في فلكها بالانتظام الصارم لكوكبة من النجوم. حين أنهيت رواية الأحداث لها ارتفع جفناها وحدقت إلى عينيَّ عيناها الواسعتان الداكنتان، لتعبِّرا عن الاختلاجات الحميمية لعاطفة جياشة ومزهوَّة، بطريقة من شدة بلاغتها أرغمتني، لا أعرف من باب الرقة أم الكياسة، على إشاحة نظري. أكدت لي السيدة ميرثيديس باحتدام أن حياة الدكتور ڤايس أثمن عندها من حياتها شخصيًّا، وأخبرتني بأنها ستفعل ما يلزم لحمايتها.

للمرة الأولى والوحيدة، خلال أكثر من ثلاثة عقود استغرقتها صداقتنا، اضطررت آسفًا إلى الكذب على أستاذي العزيز، إذ وجدت نفسي في الموقف المؤسف للطبيب الذي -لكيلا يفصح له عن خطورة مَصابه- يجب أن يخفي الحقيقة عن صديق عجوز وعزيز. من ناحية أخرى، لم ينجح لقاء السيدة ميرثيديس في تهدئتي، على الرغم من المظهر الحازم الذي تعهدت به أن تتولى زمام الأمر، لأنني لم أعرف عنها شيئًا بعد ذلك. بينما ينتظر الدكتور الفرصة لإهانة عدونا علنًا كي يجبره على الدخول في نزال، ظل يذهب كل صباح إلى الميدان للتدرب على الرماية، وفي المساء يأخذ حصص مسايفة لصقل مهاراته، غير الموجودة من ناحية أخرى، في ذلك النشاط. لو لم يكن تدمير (الدار) وتشريد المرضى، علاوة على إعدام الشاب التشيلي وتصفيتنا الوشيكة في مستقبل ليس بالبعيد، قد أدى إلى جعل الوضع خطيرًا ومأسويًا، لكنت ضحكت من ذلك الوضع الذي لا يبدو أكثر من مشهد سخيف. وحدها ساعات الدراسة هي ما نجح في تهدئتنا قليلًا: حين ينعزل كل منا في غرفته ويشكل ضوء الشمعة، الذي يصاحبنا بوضوحه المتذبذب أحيانًا حتى الفجر، هالةً هزيلة من الأشياء المرئية، تبدو طيلة ساعات قراءتنا الصامتة كأنها تكبح العتمة الخارجية الهائلة التي تدب فيها كثير من العواطف الملتبسة وكثير من التهديدات الحقيقية مع الأسف.

وأخيرًا جاءت النهاية: تلقينا دعوة لحفل ستحضره «بوينوس آيريس كلها»، أي أعضاء من الحكومة الثورية وسلطات أخرى وعسكريون ورجال دين، إلخ؛ والأغنياء الذين، كما ذكرت سابقًا، يمثلون إلى حد ما السلطات المذكورة عينها، والدبلوماسيون الأجانب، لا سيما الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون. بسبب كثرة الفصائل التي تناحرت سرًّا أو علانيةً للوصول إلى السلطة، دُعينا نحن أيضًا على الرغم من مصابنا الأخير. كان بعض أعضاء الحكومة والتجار الأثرياء وعدد من المثقفين المستنيرين في صفنا لأسباب علمية وسياسية، بل في بعض الحالات لأسباب خاصة، لأن الدكتور قد اعتنى وعالج بعض أفراد عائلاتهم قبلها بسنوات في (دار الصحة). (لسوء الحظ، لحظة تدمير (الدار) لم يكن لدينا أي نزيل ينتمي إلى عائلات بوينوس آيريس، سوى حالتين أو ثلاث من الأقارب البعيدين).

على الرغم من أن الدكتور ڤايس كان بطبيعته معتنيًا بملبسه، كما أعتقد أنني ذكرت من قبل، فقد تضاعفت عنايته في ذلك اليوم: ظل يتهندم لساعات كأنما يعد نفسه ضيف شرف ذلك الملتقى، أو يستعد لحضور مراسم زواجه أو تأليهه أو حتى -فكرتُ في ذعر- جنازته. عبثًا حاولت، طوال كل ذلك الوقت، أن أصرفه عن الذهاب إلى الحفل، حتى دفعني عتاب عينيه الطيب إلى التسليم بما هو قادم.

إحقاقًا للحق كان حفلًا كبيرًا. فُتح المنزل على مصراعيه بسبب الحر الشديد، وتناثرت الطاولات في الداخل وفي الحديقة، حيث نصبوا مظلة كبيرة تحسبًا لهبوب عاصفة. تلألأت في الحديقة أيضًا بعض الأنوار، لكن الغُرف سطعت بالإضاءة الاستثنائية التي تسربت إلى الأفنية عبر الأبواب والنوافذ المفتوحة. كان ثمة أوركسترا تعزف -أو بالأحرى تنشز- رقصة عصرية، والكثير من الثنائيات يرقصون في مجموعات فوق عشب الحديقة أو في الصالونات الساطعة. نظرًا إلى النُدرة الشديدة للمنازل المرتفعة في بوينوس

آيريس، كان كل شيء بمحاذاة الأرض نوعًا ما، في مستوى السهل الفسيح نفسه الذي على حافته الشرقية، على ضفاف النهر الواسع البري، تتكدس المدينة. بينما أدخل الحفل وأعبر الفناء، راودني خيال غريب بأن المنزل بقاطنيه وضيوفه، بالإضافة إلى المدينة والعتمة المحيطة بها، أشبه بلقمة ضئيلة بين فكَّي فمٍ لا نهائي، النهر والسهل الفسيحين والرطبين والأسودين، السماء التي لا تنتهي، لقمة موضوعة في جوفٍ مظلمٍ شره، جاهزة للتعرض للالتهام. ألهتني تلك الفكرة الغريبة لثوانٍ عن الوضع الحرج الذي نحن فيه، لكن حين نظرت إلى الدكتور ڤايس أدركت أنه ما من اعتبار، مهما كان رومانسيًّا، قد يثنيه عن الهدف الذي عزم عليه، وبدا من الصعب تحديد هل هو الانتقام أم الانتحار.

ما من شيء مهم يحدث أبدًا -الميلاد والموت والحياة اليومية كلها أمور عديمة اللون وغير مثيرة للاهتمام- لكن حين يطرأ أمر خارج عن المألوف بحق، يبدو مع ذلك أقل واقعيةً من الهلوسة، ويمضي بخفةِ وبُعدِ حلمٍ غامض. حين لم يرَ عدوَّنا في الحديقة، على الرغم من أن نظرته السماوية الثاقبة تفحصت وجوه الحضور واحدًا واحدًا، اتجه الدكتور نحو المنزل وفي ذيله شخصي المتواضع القلِق. لم يكن القائد العسكري في قاعة الاستقبال، لكن حينما اجتزنا باب الصالون الرئيسي وجدناه في الجهة المقابلة لباب الدخول يتحدث مع مجموعة صغيرة انضمت إليها السيدة ميرثيديس، أسفل مرآة كبيرة ذهبية الإطار معلقة على الحائط. توقفنا فجأةً لدرجة أن ضيفين أو ثلاثًا قريبين من الباب رمقونا بفضول: تسمرت العينان السماويتان للدكتور على القائد العسكري الذي رفع رأسه حال دخولنا إلى الصالون، منتبهًا بفعل غريزة حُرم منها البشر لكنها بلا شك في قدرة الحيوانات الضارية، وتعرف علينا في الحال. على الرغم من خطورة اللحظة فقد أذهلتني تفصيلة بعينها: إلى جانبه ظلت السيدة ميرثيديس تتحدث كأن شيئًا لم يكن، وتوزع

ابتساماتها على الجميع من دون حتى أن ترفع رأسها، ومع ذلك فأنا مقتنع إلى اليوم بأنها، من بين كل الحاضرين في الحفل، أول شخص أحسَّ بوجودنا. على مُحيًا القائد العسكري انبثقتْ من الدهشة سعادةٌ وحشية تلذذ بها سلفًا بسبب الشر الذي، من دون رغبة متعمدة منا، سنمنحه الفرصة لارتكابه. أعتقد أنه فهم الوضع في غضون ثانية وأنه، حين رآنا نسير نحوه بخطى واثقة، استعد لاستقبالنا بالكيفية التي ارتأى أننا نستحقها. بينما نتقدم نحوه، أخذت أتبنى قناعةً قوية بأنه على الطرف الآخر من الصالون، حيث تتنحى الثنائيات الراقصة جانبًا باستغراب وقلق للسماح لنا بالمرور، كانت حياتانا التعيستان في الطريق إلى حتفهما عندما حدث فجأةً، وأكرر أنه باللامعقولية المضحكة للأحلام، ما لم يكن في الحسبان: اعترض طريقنا ديكسن، القنصل الإنجليزي، وأجبرنا على التوقف هامسًا بأن لديه أمرًا مهمًّا وعاجلًا من طرف السيدة ميرثيديس ليخبرنا به، ولأن الدكتور ڤايس رفض الإصغاء إليه، تشبث ديكسن بسترته وقال له بصوت خفيض، لكن بحدة غير معهودة، إن الرسالة التي يحملها ستساهم في تنفيذٍ أفضل لخطة الدكتور، وإن حاولنا تطبيقها كما خُطط لها فمآلنا الفشل لأنهم نصبوا لنا كمينًا. شعرت بسريان العرق على وجهي وعنقي وظهري، وحين رأيت الحبات الغليظة تنبثق على جبهة ديكسن وتنساب عبر ثنايا وجهه المُحمرّ الذابل قبل الأوان، استطعت أن أتخيل حالته الذهنية في تلك اللحظة مقارنةً بالسبب الذي جعلني أتعرق. بعدما تردد للحظة، وافق الدكتور وذهب معي ومع ديكسن إلى خارج المنزل. قبل مغادرتنا ألقيت نظرة خاطفة نحو القائد العسكري ورأيت خيبة الأمل مرسومة على مُحيَّاه، لكنني حين رمقت السيدة ميرثيديس بحذر، قبل أن أدير رأسي، ورأيتها للمرة الأخيرة في حياتي، استطعت التيقن من أنها لم تقطع ولو للحظة واحدة محادثتها الباسمة مع محاوريها الذين -وأنا متأكد من ذلك- لم يلاحظوا شيئًا.

حين خرجنا إلى الحديقة لم يكن ثمة نسمة تهب في تلك الليلة الخانقة، لكن اجتاحني إحساس، خيالي على الأرجح، بالانتعاش. طلب منا ديكسن مرافقته إلى المرفأ، حيث ينتظرنا عبد السيدة ميرثيديس برسالة من سيدته. عبرنا الشوارع المقفرة متحسسين طريقنا في المدينة المظلمة، بين سُحُب من البعوض الذي ظل يطن حولنا ويناكفنا. في نافذة مضاءة خلف قضبان حديدية، وقف رجل عارٍ حتى خصره يأكل قطعة من البطيخ هلالية الشكل. حين رفع بصره تعرف علينا، وبسخرية هادئة ومألوفة سأل: «أتبحث عن عاهرات يا دكتور؟»، ما دفع أستاذي العزيز إلى التوقف، وببشاشته الوقورة شرع في الضحك، ما بدا أنه ضايق ديكسن، ثم أجابه بهذا الرد الذي لا يُنسى: «ليس بالضرورة». هز الرجل رأسه وهو يأخذ قضمة من البطيخ كأنما لم نعد نثير اهتمامه، وحينما استأنفنا المسير، على الرغم من خطورة الوضع، ظل صدى ضحكة الدكتور المكتومة -والمُعدية بصورة لا تقاوم- يتردد في الظلام، وحين وصلنا إلى المرفأ كانت قوادسنا تهتز قبالة الضوء الخافت لليل الذي بدا كأنه يمدد المساحة الكبيرة المكشوفة للنهر، الذي وشت بقربه منا الرائحة المميزة، وقرقرة الشاطئ الإيقاعية، وبرودة حقيقية في الجو. أمرَنا ديكسن، الذي لم يتخلَّ عن جديته على الرغم من مزاجنا الرائق وغير المبرر بالتأكيد، أن نتوقف ونلزم الصمت، وحين أطعناه بدأ يصفِّر لتنبيه أحدٍ ما بوجودنا. فجأةً، من بُعد قرابة ثلاثين مترًا، ظهر ضوء وبدأ في إرسال إشارات فسِرنا باتجاهه. عندما وصلنا شرع ستة أو سبعة رجال يتجادلون همسًا بالإنجليزية مع ديكسن: كنا جميعًا محتشدين حول عمود الإنارة، يتفحص بعضنا بعضًا بريبة وفضول حتى ابتعد القنصل بضع خطوات، وهو يشير إلي الدكتور وإليَّ، واختفى داخل الليل. وعلى حين غرةٍ اجتاحتني الظلمة الحالكة، لكن الأمر استغرقني بالكاد جزء من الثانية لأدرك أنهم ألقوا بقطعة قماشية على رأسي -أو ربما بكيس- وأن رجلين أو ثلاثة يقيدونني. فطنت من احتجاجات الدكتور المكتومة ولهاثه، في تلك الظلمة الحالكة التي غمرتني،

أن الأمر نفسه بالضبط يحدث له. حاولت المعافرة لكن ذهب الأمر هباءً. رفعتني في الهواء ذراعان قويتان إسكتلنديتان، وهي التفصيلة التي خبرتها لاحقًا، وفي تلك اللحظة تحديدًا شهدت قدماي المرة الأخيرة التي تطئان فيها أرض وطني إلى الأبد، أو على الأقل حتى اليوم.

في الخطاب الذي أرسله إليَّ لاحقًا من أمستردام، قدَّم لي الدكتور بعض التفسيرات الإضافية عما حدث، إذ بَلَغتْنا الرئيسية منها في أعالي البحار، موضحًا لي الأسباب الدقيقة لتدخل القنصل الإنجليزي: «من خلال نهاية مغامرتنا، يمكنك أن تحكم، حضرة الدكتور ريال، برزانة السيدة ميرثيديس ودهائها، وهما سمتان لا بد أن نضيفهما إلى محاسنها التي لا تُنكر، التي أعتقد أن الفرصة سنحت لحضرتك للإعجاب بها بأم عينيك. إن تفسير ما فعله ديكسن، الذي طالما عاملناه بجفاء شديد، هو الآتي: بعد مدة من انقطاع علاقتنا، ولكي تحاول ميرثيديس، عبثًا على حد قولها، أن تنساني، أخذت تتردد، من دون أن تذهب إلى أبعد من ذلك وفقًا لما تؤكده في خطابها، على القنصل الإنجليزي الذي، قطعًا، لم يعرف بعلاقتنا قط. أقنعتْ ميرثيديس ديكسن بأن زوجها، الذي يعتقد أنه يتعرض للخيانة، قد أخطأ الهدف، وأنه ثأر لنفسه منا معتقدًا أنني عشيق زوجته. حينئذ وجد ديكسن نفسه مضطرًّا إلى التدخل. بهذه الطريقة أنقذ حياتنا السلك الدبلوماسي والعملاء السريون والأسطول الحربي التابع للأمة الجزيرية العظمى المهيمنة على البحار بلا منازع، التي تنشر التجارة الحرة أينما مضت، كما ينشر غيرها الطاعون الأسود».

بينما نختنق بالكيسين اللذين ألبسوهما لنا وذراعانا ملتصقتان بجسدينا بالحبال التي تقيدنا، وُضعنا على متن قارب صاخبتنا ضوضاء مجاديفه الدورية لقرابة عشرين دقيقة، ثم رُفعنا كحزمتين إلى متن سفينة، وأخيرًا، بعدما نزعوا عنا الكيسين لكن أعادوا تقييدنا من معصمينا وذراعانا خلف

ظهرينا، ومن كاحلينا، في معاملة نكائية أعترف بأنها نُفذت بحزم لكن بلا وحشية، تُركنا في قمرة صامتة وغارقة في أحلك عتمة. تناهت إلينا أصوات وضوضاء بعيدة، وفي الأخير انتبهنا إلى أن السفينة التي نرقد على متنها مختطَفين قد رفعت مرساتها وأخذت تبحر بسرعة منتظمة، نحو مصير نجهله. خلال الساعات التي استغرقها احتجازنا، أعدَّ الدكتور، الذي لم يفقد لا العادة ولا القدرة على تحكيم العقل بصبر منهجي، سلسلةً من الفرضيات عن الوقائع التي جرت لتوها، بحيث إننا حين سمعنا الباب الذي انفتح وحين شرع الصوت الهادئ لرجل مهذب جدًّا يعتذر بالإنجليزية عن المعاملة التي اضطروا إلى أن يعاملونا بها، أجابه الدكتور، وهي تفصيلة كاشفة إن وُضع في عين الاعتبار أنه مقيد القدمين واليدين وملقى في ركن مظلم، بهدوء مثالي وإنجليزية مثالية أننا نتفهم (بصورة مثالية أيضًا) ما قد حدث، وأننا ممتنان للسرعة التي تحركت بها الحكومة الإنجليزية لإنقاذ حياتنا.

عندما أضيئت الأنوار تحققنا من وجودنا في قمرة الضيوف الأنيقة لفرقاطة حربية إنجليزية، قبطانها إسكتلندي بشوش يتحلى ببعض السُّمرة، انتظر حتى فك البحَّاران اللذان رافقاه أوثقتنا وساعدانا على النهوض قبل أن يرحب بنا ترحيبًا جذلًا. بعد ذلك بشهر، ونحن مدمران ولا نزال مزعزعين بسبب أحداث الفترة الأخيرة أكثر منه بسبب الهياج الرمادي الشديد للمحيط، ودون أن يتمكن القبطان من الفوز على الدكتور ڤايس في مباراة واحدة من مباريات الشطرنج العديدة التي لعباها على مدار الرحلة، أرسينا ذات صباح حزين ومطير في ليڤربول.

لقد أسهبت في الحديث عن بناء (دار الصحة) ثم عرضت، بإيجاز، الأساليب العلاجية للدكتور ڤايس وشخصيته وفلسفته، فضلًا عن الاعتداء الهمجي الذي، في ظرف ساعات قليلة، صنع أطلالًا من العمل الذي لم يستغرق من أستاذي سنوات بل حياته بأكملها. كان إنشاء مؤسسة من العدم،

لا سيما في الأوقات العصيبة، عملًا استثنائيًّا، وإسهامي الأصلي الوحيد فيه هو تلك الرحلة عبر السهل التي استغرقت شهرًا، في ظروف شديدة الصعوبة، والتي تُعدُّ الموضوع الرئيسي لهذه المذكرات. (في جميع الأحوال، مثلت تلك الرحلة لي تجربة فريدة أدين بها كذلك، كما سيتبين فيما بعد، للدكتور ڤايس، وأرجو من قارئي، بعدما يتفهم الأنانية التي يقتضيها تقديم نفسي بطلًا لحكايتي، أن يتكرم بالأخذ في اعتباره أنها بالنسبة إليَّ أكثر المغامرات تفردًا في حياتي).

إن المرضى الذين تعين علينا نقلهم من تلك المدينة، الواقعة إزاء مسقط رأسي، لكن على الضفة المقابلة من النهر العظيم، على بُعد ما يقرب من مئة فرسخ شمال (الأسناط الثلاثة)، أولئك الأشخاص المختلون في أعماق كينونتهم بسبب آثار الجنون، احتاجوا إلى عناية خاصة لأن الرحلة عبر السهل المقفر مثَّلت ظرفًا قاسيًا على حالتهم، لكن في الوقت نفسه كان اختلالهم العقلي في حد ذاته مشوِّشًا، وبوجوده الفريد من نوعه أسهم في كسر توازن القوانين القديمة غير المكتوبة للصحراء. مرضى وهنود حمر ونساء امتهنَّ حياة السوء، وأفراد من الجاوتشو وجنود بل وحيوانات أليفة وغيرهم، وجب علينا التعايش معًا طيلة أيام عديدة في الصحراء التي، وإن كانت بحكم طبيعتها عدائية، ازداد عداؤها جرَّاء سلسلة غير متوقعة من المصائب.

لكن من المستحسن أن أحكي من البداية. بصفة عامة، حين كانت ترغب إحدى عائلات (النيابة الملكية) وقتئذٍ في إيداع أحد أفرادها في (دار الصحة)، تقع على عاتقها عملية نقل المريض، وتُعقد الاتفاقات اللازمة عن طريق الرسل: تنتهي تسوية جميع التفاصيل ويُسلَّم المريض إلينا، إن جاز التعبير، على باب منشأتنا الذي ما إن يُفتح له حتى يوضع بين أيدينا وعلى مسؤوليتنا الكاملة. كانت هذه هي القاعدة الثابتة التي تنظم عملية إدخاله المستشفى. على الرغم من ذلك، في مطلع عام ألف وثمانمئة وأربعة، وصلت إلينا أربعة

طلبات إدخال متزامنة من مناطق مختلفة، وبعد مفاوضات شاقة، ذات طابع مالي أكثر منه عملي، وافقنا على تجمع المرضى في تلك المدينة التي -كما قرر الدكتور ڤايس- سأذهب لاصطحابهم منها لوجودها في منتصف الطريق تقريبًا بين الأماكن الثلاثة التي ينتمي إليها أولئك المرضى وبين (الأسناط الثلاثة). لا شيء يبدو باهظ الثمن ولا مجهود يبدو مفرطًا حين يتعلق الأمر بالتخلص من مجنون، إذ من الصعب العثور على شيء في هذا العالم يسبب إزعاجًا أكثر منه، بحيث إنني بالجهود المشتركة للعائلات الأربع، وللدقة كانت إحداها مجتمعًا دينيًّا، استطعت تجهيز مستشفى متنقل سأكون نوعًا ما مديرًا له طوال مدة اجتياز الصحراء. (إنها صحراء نسبية من ناحية أخرى، فقد أقيمت سلسلة من الاستراحات بعد كل عشرة أو خمسة عشر فرسخ تقريبًا، وعلى الرغم من الحالة المزرية لمعظمها، فقد خففت من وعثاء المسير بعض الشيء. لسوء الحظ حرمتنا الظروف منها).

إن تلك القافلة الفريدة التي كوَّناها والحوادث التي عرضت لنا طوال الطريق، تستحق في رأيي سردًا تفصيليًا، وإن امتنعت عن نشرها في الوقت الحاضر، فإني آمل أن تقدم هذه المذكرات لقارئٍ مستقبليٍّ ليس مجرد تسلية رائعة، بل اهتمامًا علميًّا أصيلًا كذلك. من جهة أخرى، هذا الملمح الأخير هو ما يمنعني من النشر الفوري لهذه الصفحات، إذ إن وصفي لسلوك المختلين وغيرهم من أفراد القافلة، ونقل لغتهم الخالية من البلاغة الفارغة، يخضع لاهتمام موسوسٍ بالدقة، الأمر الذي قد يصدم بعض النفوس الحساسة، لكن ليس الأمر سيان بالنسبة إلى النفس العلمية المعتادة حقيقة الخبل، والدوافع الحقيقية للسلوك البشري والحيواني، والزيف الأكثر من نسبي لتصورات معينة تزعم أنها عقلانية، ولا تسود إلا في الصالونات الراقية. تلك الأوصاف الدقيقة، التي قد أُلام على غيابها في أطروحة علمية، يمكن أن تبدو مسيئة في مذكرات تندرج فيها أيضًا تجارب شخصية، لكنني في سبيل الإخلاص

للحقيقة، غير مبالٍ بتحامل الأغلبية واستهجانهم، أحذو حذو الدكتور ڤايس الذي طالما جعل من هذا الإخلاص مبدأ علميًّا وحياتيًّا.

انطلقنا إذن عند فجر يوم من أيام يونيو؛ أوسونا مرشدنا، وجنديان يحرساننا، وأنا الذي لا أزال غارقًا في سبات الليل نافد الصبر الذي انقضى لتوه، أكز على أسناني من البرد كما كنت أفعل في طفولتي أحيانًا في أوقات الفجر، فلم أتمكن من ضبط إيقاع رماحة جوادي لألحق بركب رفقائي في الرحلة. ظل أوسونا متقدمًا علينا بمسافة قليلة، متدثرًا بقُباعه المخطط بالأخضر والأحمر، منتصبًا فوق سرجه، محافظًا على الإيقاع المنتظم لرماحة جواده دون أي حركة خارجية ظاهرة توحي بسيطرته على الحيوان. من بين شتى التقلبات التي شكلت رحلتنا، فإن تلك الصورة الخالية من محتوى بعينه، الحيادية إن صح التعبير، بعد مُضي ثلاثين عامًا، هي التي تخطر ببالي بطريقة أكثر تواترًا ونقاءً: أوسونا يرمح بمحاذاة شروق الشمس التي، عند طلوعها من جانب النهر، صبغت الجانب الأيمن للفارس والجواد باللون الأحمر، بينما بقي جانبه الأيسر مطموسًا في الظل. تلك الصورة ليست مجرد ذكرى، إذ إنها بغض النظر عن رغبتي، تعود بنقائها الأول في أشد أشكال المواقف اختلافًا وأكثر لحظات اليوم بعدًا عن البال. لو أنها آخر ما يلوح لي في بعض الليالي، حين أرقد في الظلام واضعًا رأسي على الوسادة، قبل انسدال ستار النوم الأسود بالكامل، فهي أول ما أراه في بعض الصباحات، حينما أكون قد نسيتها تمامًا بعد إفلاتها مني لمدة طويلة، إذ تظهر بقوةٍ متجددةٍ قد توحي بأنها هي التي تسحب الكون بأسره معها، لتجعله يتراقص طيلة اليوم على مسرح السهر. (إن استمرارية تلك الصورة الأولية –أول ما رأيته في ضوء النهار عند بداية رحلتي– يعود تفسيرها إلى الحالة الحماسية التي تحليت بها، ومردها إلى الثقة التي وضعها فيَّ الدكتور ڤايس حين أودع مصير أولئك المرضى بين يديَّ. علمتُ لاحقًا أن الدكتور تصرف في ذاك

الصدد بتدبر حكيم. لم تُذهب شدائدُ الرحلة حماسَ البداية، لكن في أثناء العودة خففت الحيطة من حماستي في مرات ليست بالقليلة).

اقتربنا من النهر أحيانًا بينما ننحرف قليلًا باتجاه الشرق، وأحيانًا كان النهر هو الذي يقترب منا. تراءى الفيضان الشتوي في الاتساع غير المألوف لمجرى النهر وفي التيار المنحدر نحو الجنوب، الذي جرف معه جزرًا من نبات ياسنت الماء وجذوعٍ وفروعٍ وحيوانات غارقة. بين الحين والآخر يتقدم قارب بمشقة عكس اتجاه التيار، وتبتعد معدية محملة بالبضائع عن الشاطئ حيث ظلت راسية لقضاء الليل، يقودها طاقمها نحو وسط النهر ويدعها تنساق مع التيار. لم يهدأ البرد حتى بعد شروق الشمس، وحتى منتصف الصباح ظل بإمكاننا الإحساس بحوافر الخيول تكسر الجليد وأعواد العشب الضاربة إلى الرمادي تستحيل زجاجًا بفعل البرد. حتى بعد وصولنا الذي استغرق عدة أيام، ظلت الحقول الخاوية القابعة غربًا مغطاة، كل صباح وحتى قرب الظهيرة، بطبقة بيضاء من ذرات الثلج. نمنا في العراء مرتين، أو بالأحرى حاولنا النوم، مجتمعين حول نار من ضآلتها بدا الصقيع خانقًا، وفي غضون بضع ساعات، حينما ارتأينا أن الخيول استراحت بما يكفي بينما لا نزال نتجمد ونشعر بالنعاس، انطلقنا مرة أخرى. في عتمة الليل، أحاطت بنا السماء الباردة، التي لم تومض حتى نجومها المتخثرة، من كل جانب، بصورة قريبة وساحقة لدرجة أنني ذات ليلة انتابني تصور لا لبس فيه بأننا في أحد أكثر أركانها بُعدًا وهامشيةً وانقطاعًا. لم يكد يطلع الفجر حتى بدا الهواء الوردي المزرق كأنما يشل حركتنا داخل عتمة جليدية، إحساسٌ أسهم في زيادة رتابة المشهد المنوِّمة، لكن أحاله شروق الشمس بلُّوريًّا، وبدا كل شيء جليًّا وبرَّاقًا ووهميًّا بعض الشيء حتى الأفق الذي -مهما عدونا بأحصنتنا- بدا على حاله نفسها، ثابتًا في المكان نفسه، ذلك الأفق الذي يعتبره كثيرون نموذجًا للعالم الخارجي، وما هو إلا وهم متغير لإدراكنا.

عذبتني فكرة واحدة على الرغم من أنني، بالطبع، حاولت بكل الطرق، لكيلا أفقد ثباتي، ألا تنكشف وهي غياب سائقي المعديات التي تنقل المرتحلين من الضفة إلى الأخرى في الأنهار الصغيرة التي تجري من الغرب إلى مدينة (باراناه)، لأنني حينذاك سأضطر إلى العبور عومًا أو في أحد تلك الزوارق الجلدية التي لا يمكن التحكم فيها وتغير اتجاهها من أقل حركة. لكن إن لم يوجد سائقو معديات في جميع الأنهار، فإن المعديات ستكون في مكانها، ومن بين الاستراحات التي قضينا الليل فيها كان ثمة اثنتان غير نائيتين عن الماء. واحدة فقط من تينك الاستراحتين اعتُبرت ملجأ حقيقيًا، ليست مريحة بالتأكيد، لكنها على الأقل مجهزة بسقيفة نظيفة وكبيرة ومستقرة، لأن الاستراحات الأخرى ليست أكثر استقرارًا من حفنة ركام، ولا شك أنها أقذر وأكثر تهتكًا. في إحداها كان الحارس مدمنًا للشرب واضطررنا إلى هزه عدة مرات ليعلم بوجودنا، الذي يبدو أنه أنعشه قليلًا ومنحه طاقة تكفيه للوقوف على قدميه. كان الكحول، الذي أحرقه من الداخل، ينخره كذلك من الخارج، إذ اعتقدت أنه يعيش حالة من الرعب الشائعة لدى ذلك النوع من السِّكيرين لأنه ظل طيلة الوقت ينظر ناحية الباب وينتفض لأي ضجيج، بل خرج من السقيفة ثلاث أو أربع مرات في أقل من ساعة وطفق يمعن النظر في الأفق، لكن بعد ذلك، مع الجرعات الأولى من الأجوارديينتي التي حوَّلت أوسونا الكتوم إلى كثير التحدث بل وأحيانًا ثرثار، شرح لي الدليل أن الحارس، الوحيد تمامًا في وسط العراء، يخشى أن يهاجمه الهنود.

في اليوم التالي وفي الاستراحة الكبيرة، بينما نأكل لحمًا مشويًا لذيذًا أعده الحارس في الفناء، وفضلًا عن البرد والفيضان الشتوي الذي صار بالفعل يهدد كل الاستراحات القائمة على امتداد النهر، دار الحديث بصفة خاصة حول الزعيم خوسيسيتو، وهو هندي (موكوفي)[1] ظهر منذ مدة مع مجموعة

(1) اسم أحد الشعوب الأصلية في الأرجنتين. (المترجم).

من المحاربين وأخذ يهاجم الاستراحات والقرى والقوافل. عرف أهل الاستراحة والرحالة الذين يبيتون فيها كثيرًا من القصص عن الزعيم، التي تصعب معرفة هل وقعت بالفعل أم أنها محض أساطير منسوبة إليه. بعد سماع مختلف النوادر، كشف أحد الجنود المكلفين بحراساتنا، بشيء من الزهو الذي حفزه الأجواردييني، أنه تعرَّف إلى خوسيسيتو في (بارَّانكاس)، حين كان الزعيم لا يزال مزارعًا، وأنه قبل ذلك بثلاث سنوات، عندما حرست سرية من الجنود بعض الرهبان وعدة عائلات حتى (كوردوبا)، شارك خوسيسيتو، الذي كان مسيحيًّا متشددًا آنذاك ويعيش في إحدى قرى الهنود جنوبيِّ (سان خابيير)، في ذلك الموكب. وفقًا للجندي، الذي أترجم لغته الفظة والمبهمة بعض الشيء إلى لغة أوضح وأكثر اتساقًا، فبسبب نوع من النزاعات الدينية فرَّ خوسيسيتو من الحضر معلنًا الحرب على المسيحيين. لكنَّ أوسونا، الذي حينما شرب واندمج في الحديث ورواية القصص لم يعد ينظر بعين الترحاب إلى أي شخص يقاطعه، ولا سيما إن أصبح هو محور الحديث على حسابه، أصرَّ على معارضته، نافيًا برأسه بينما يتحدث الآخر، وحين استعاد زمام الكلام أكد أن خوسيسيتو، الذي التقاه عدة مرات، اعتاد التحالف مع المسيحيين لمصلحته ثم التنازع معهم للأسباب نفسها وأنه، أي أوسونا، بخلاف الخيل والنساء البيض والأجواردييني لم يعرف له دينًا آخر. قال الحارس، وهو يوازن اللفافة ويمررها بأسنانه من مقرن شفتيه إلى الآخر، بينما تبرز من بين لحية بيضاء مهذبة بعناية ونظيفة إلى حد كبير إذا ما أُخذت في الاعتبار عادات المنطقة، إن الزعيم تحلى بشجاعة كبيرة ومنذ صغره، حسبما اعتقدت أنني فهمت مما يحكيه في ارتياب وتأثر كبيرين، اتسم بحساسية شديدة تجاه غطرسة المسيحيين وشعر بالإهانة من أدنى تصرف أو كلمة صدرت عنهم واعتبرها غير لائقة. خلاصة كلمات الحارس أن وجود أولئك المسيحيين في حد ذاته بدا مهينًا للزعيم: فرض محض وجودهم تحقيرًا لكل من سواهم، كما حدث مع خوسيسيتو. عرفه الحارس منذ ولادته تقريبًا، لأن أباه، الزعيم

كريستوبال، الذي كان مزارعًا أيضًا وأراد أن يتعلم خوسيسيتو على يد القساوسة، اعتاد المجيء إلى الاستراحة بكثرة للتبضع واصطحبه معه. لكن منذ طفولته الباكرة لم يرغب خوسيسيتو في معرفة أي شيء عن البيض. وحين بلغ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، كان إذا أتى أحد البيض في عمل وألمح إلى شخصه أو عرَض له بطريقة بدت له غير لائقة، حدجه بنظرة قاتلة. لم يتساهل مع أي رفع للكُلفة، وبالطبع لم يخش أحدًا ولا شيئًا. حينما كبر -كان الحارس يعرفه منذ قرابة ثلاثين عامًا-، استحال سريع الغضب عَبوسًا، وحين «تجري يده على الأجوارديينتي»، وفقًا لكلمات الحارس، يصبح همجيًا ومشاحنًا. لكنه كان ذكيًا، ومسالمًا مع من يقدِّرهم. ولأنه وضع نفسه طوعًا على هامش المجتمع، ولأن شخصيته السيئة أسطورية، نسب إليه الناس كل الفظائع التي ارتكبها الهنود المتمردون، والهاربون والمتشردون. تعلَّم مع القساوسة العزف على الكمان، ورغم أنه في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، حين مات أبوه، اختفى من القرية وعاد إلى الصحراء للمرة الأولى ليعيش على الطريقة الهندية، رغم أنه عاد لاحقًا مع البيض ثم رحل مجددًا، وهكذا عدة مرات، فإنه لم ينفصل قط عن آلته، التي صنع لها حاملًا جلديًا على أحد جانبي السرج، وحين يركب دون سرج يحملها مائلة على ظهره. بعد اللحم المشوي، انتقل إبريق الأجوارديينتي من يد إلى يد بينما نتحادث، جالسين في السقيفة حول مجمرة ضخمة، متدثرين بقُباعين أو ثلاثة تخرج من بين فتحاتها بين الحين والآخر أزواج من الأيدي المتشققة المصابة بالتقرنات والشرث، التي تمتد براحاتها الموجهة لأسفل فوق الجمر. حين كف الحارس عن الكلام، مرت ثوانٍ دون أن يليه أحد، ولا حتى أوسونا، في استئناف الحديث، وبدا أن لذلك الصمت الممتد والمزعج بعض الشيء تفسيرًا يفلت مني، لكن حين قطعه أحد في النهاية، أدركت أن جميع من سمعوه للتو، فيما عداي، اعتبروا أن الحارس صنع من خوسيسيتو، من يدري لأي سبب، صورة محببة أكثر من اللازم. حين عقبتُ له على الأمر في اليوم التالي، فور

أن استهللنا المسير، ألمح أوسونا، الذي عاد ليصبح مقتضبًا مرة أخرى بفضل ثلاث أو أربع ساعات من النوم أذهبت عنه تأثير الأجواردييِنتي، بأشد طريقة إهليلجية وعرَّافية إلى أن الحارس حتمًا يتاجر مع الزعيم ولذلك يدافع عنه. في الليلة السابقة، حينما سكت الحارس وأُصبنا ببعض الارتباك تحت ضوء المصابيح الحزين الخافت، تجلى اختلاف الحاضرين مع ما سمعناه للتو حينما تحدث أحد الموجودين، وهو مرتحل متدثر في قُباعه الرمادي تلتمع عيناه، ربما بفعل انعكاس الجمر، من تحت جناح قبعته السومبريرو السوداء الغائرة حتى نصف جبهته. كان جالسًا بلا حراك إلى جوار النار، كأن جسده المفرط في الضخامة -بسبب طبقات الملابس المتراكبة التي تغطيه لحمايته من البرد- جزء من العتمة أكثر كثافةً لم تستطع المصابيح تبديده. لم يتحرك منه سوى فمه وشاربه الأسود الكث الذي يغطي شفته العليا ويهجم متقوسًا على مقرني شفتيه، هذا ودون أن يعارض الحارس معارضة صريحة، ربما بدافع الأدب لأن الحارس في نهاية المطاف، حتى ولو نظير المال، أحسن ضيافته، أو ربما بدافع الخجل المحض، كأنما يقصد شخصًا آخر غير الهندي الذي أتى الحارس على ذكره للتو، شرع يحكي قصصًا عن الزعيم خوسيسيتو، ورغم أنها أكدت بصفة عامة ما قاله الحارس عن طباعه، ففي المقابل ضربت بسلوكه المسالم المزعوم عرض الحائط. قال الرجل إنه من الصحيح وجود بعض المزارع وبعض القوافل وبعض الاستراحات التي لم تهاجمها عصابات الزعيم، لكن ليس بالضرورة أن يُنبئ ذلك عن حسن النية أو الشفقة، بل هو حساب تكتيكي بحت يتعلق بتحركاته في الهجوم والانسحاب، وبخططه المضللة لخداع السلطات، وباحتياجاته من الإمدادات. إذا لم يكن قد أحرق بعض المزارع وبعض الاستراحات فهذا لأنها زودته بالإمدادات على نطاق ضيق في غاراته، وفي الوقت نفسه تمكن من استغلالها للظهور فيها ومن ثم تصدير صورة مسالمة عن نفسه. لكن الثلاثة أو الأربعة المحظوظين الذين فرُّوا بأعجوبة وكانوا هم الناجون الوحيدون من مذابحه الشنيعة التي

لا تحصى، رأوه يقود الهجمات، وتعرفوا عليه تحديدًا من خلال جراب الكمان المعلق على ظهره. يحكي أحد الناجين للسلطات -كان موسيقيًّا وهو الأمر الذي أنقذ حياته لكن كلفه ثمانية أشهر في الأسر الذي تحرر منه بمحض الصدفة- أن خوسيسيتو اعتاد بعد أي مذبحة أن يتجول بين الركام الدخاني والجثث المشوهة التي لا تزال دافئة، وهو يعزف على الكمان. قال الرجل إنه وفقًا للموسيقي، تحلى خوسيسيتو ببراعة في العزف وامتلاك واحدة من أكثر قوائم المقطوعات تنوعًا، تعلمها من قساوسة القرية، وإلى جوار الكمان احتفظ بعناية شديدة بعدد كبير من القطع الموسيقية. وفقًا للرجل، أكدت قصة الموسيقي ما قاله الحارس، أي أنه هنديٌّ متجهم وحساس ومعذَّب. نادرًا ما سُمع وهو يضحك، وحتى مع محاربيه، الذين عظَّموه وساروا بلا تردد نحو الموت من أجله، كان وَجِلًا ومنزويًا. وفقًا للرجل اتسم الزعيم بغرابة شديدة، وحكى الموسيقي أنه ذات ليلة، وهو ثمل، شرع خوسيسيتو يهدده ويشير إلى موسيقى المسيحيين باحتقار، متظاهرًا بأنه سيلقي بالقطع الموسيقية في النار وأنه سيهشم الكمان. قال الرجل إنه وفقًا للموسيقي، بدا أن الهندي ليس مغتاظًا من أن موسيقى المسيحيين بهذا السوء الذي يدعيه، وأنها تتمتع بسمعة غير مستحقة، بل بالأحرى لأنها جيدة وتروقه جدًّا، أي خوسيسيتو، ما جعله في وضع مهين، كأنها رذيلة أو نقطة ضعف.

بعد برهة استلقينا للنوم أقرب ما يكون من المجمرة، في أسرَّة مرتجلة على أرضية السقيفة المكنوسة بعناية، ملتصقين بالأرض التي جمَّدها البرد القارس والجاف التي -كما تحققتُ في الصباح- عادت برَّاقةً ومزرقَّة. قبل أن أخلد إلى النوم، لكي أتخفف من آثار الأجوارديينتي الذي -بدافع الأدب- استحال عليَّ رفضه، خرجت لأنتعش قليلًا في هواء الليل. كان ثمة قمر مستدير وواضح يكسو السهل بالبياض بينما يخلق وهمًا مثاليًّا للاستمرارية بين السماء والأرض؛ صنع النور الغامر والشاحب ظلالًا رمادية ولامعة في آن

واحد والأشياء القليلة، الموضوعة في مكانها بأيادٍ بشرية -شجرة، صهريج، الجذوع الأفقية غير المتناسقة والموازية للحظيرة-، التي اخترقت المساحة الخاوية بدت كأنها تكتسب في وهم الاستمرارية ذلك صلابةً مختلفةً عن المعتاد، كما لو أن الذرات، التي تكوِّنها وفقًا للحكماء اليونانيين الألمعيين والشعراء اللاتينيين المتعمقين، أساتذة أستاذي وبالتبعية أساتذتي، فقدت تماسكها كاشفةً عن الطابع المؤقت ليس لخصائصها فحسب، بل بالأخص لتصوراتي عنها وربما لكينونتي كلها. على الرغم من قدرتها على الظهور بوضوح في ضوء النهار، وهي شديدة البروز والثبات في الهواء الشفاف، استحالت نطاقاتها غير مستقرة ومساميَّة، إذ اضطربت بفعل خِدرٍ أبيض يحمل المادة على التبعثر والامتزاج، متقلصةً إلى أصغر هيئاتها، مع هذا التدفق الرمادي غير المحسوس الذي امتزجت فيه الأرض بالسماء. انتزعتني ضوضاء من تخيلاتي: كانت الخيول تتحرك في الحظيرة، ربما لأنها تحفزت لوجودي، لكن عندما تقدمتُ بضع خطوات قاطعًا الهواء البارد ناحيتها استطعت التيقن من أنها لا تبالي بشخصي، لأن الضوضاء القصيرة التي أصدرتها قبل عدة ثوانٍ لم تبقَ على حالها فحسب، بل بدا أنها هدأت مع اقترابي. ظللت ساكنًا لبرهة، بالقرب منها، محاولًا عدم إحداث أي ضوضاء لكيلا أحفزها، وأمعنت النظر في العتمة الفضية التي اعتادتها عيناي شيئًا فشيئًا، واستطعت أن أدرك أن ما يجعلها تتحرك من حين لآخر، وتصدر نخيرًا خفيفًا وضوضاء مكتومة لحوافرها المترددة، هو محاولتها للالتصاق بغيرها قليلًا كي يحتمي بعضها في بعض من البرد، فكوَّنت كتلةً داكنة من الأنفاس واللحم والخفقان، لا تختلف في نهاية المطاف عن التي صنعناها نحن الخيَّالة قبلئذ ببرهة حول المجمرة، متحدين في الجنون ذاته الذي أوجدَنا بلا سبب، بهشاشتنا وفَنائنا، أسفل القمر الغامض البارد.

في اليوم التالي عند الغروب، وصلنا أخيرًا إلى المدينة. لم ترافقنا غيمة واحدة، في زُرقة السماء الشاحبة، في آخر يوم من سفرنا، ولكن حين أوشكنا على الوصول، ظهرت بعض الغيوم الخفيفة المتلونة ناحية الغرب، استقرت أمام قرص الشمس الأحمر الضخم الذي غاص في الأفق، وأخذت ألوانها تتغير، صفراء في البداية ثم برتقالية فحمراء فبنفسجية فزرقاء حتى اسودَّ الجو حين وصلنا، بعد عبور الذراعين اللتين يتفرع إليهما نهر (سالادو) حينما يوشك أن يصب في نهر (باراناه)، عند أول أكواخ الضواحي البائسة، لأن القمر لم يكن قد طلع بعد وبدأت أنوار المصابيح الأولى تتلألأ في أفاريز الأكواخ أو داخلها. بعد اصطحابي إلى البيت الذي سأقيم فيه، الذي وجدناه بلا صعوبة لأن أصحابه من كبرى عائلات المدينة، اتجه أوسونا والجنود إلى الثكنة التي سيحظون فيها بالطعام والفراش طيلة إقامتنا. انتظرتني عائلة بارًّا دون أن تعرف اليوم المحدد الذي سأصل فيه، وعليَّ الاعتراف بأن الحفاوة التي استقبلني بها أفرادها، على الرغم من معرفتهم بأنني لا بد أن أمكث في منزلهم لعدة أسابيع، كانت من أعذب ما يمكن، ربما ساهم فيها ارتياحهم لمعرفة أنني قادم لاصطحاب الابن البِكْر المصاب بحالة من الخَبَل منذ شهور، ووضعه في (الأسناط الثلاثة). لأنني وصلت ليلًا، كان الشاب نائمًا فأرجأت الفحص لليوم التالي، وبعد العشاء واستجوابٍ شامل من طرف بقية أفراد العائلة حول المستجدات المحتملة التي ربما جلبتها معي عن بوينوس آيريس وحتى عن البلاط الملكي، قادوني أخيرًا إلى غرفة نظيفة ومرتبة حيث أعدوا لي فراشًا مريحًا. وبينما أتأمل، قبل النوم، حسنَ الضيافة البالغ الذي عاملوني به، وهو من أعذب ما يمكن طيلة إقامتي كلها، أدركت أن ملل الحياة الرتيبة التي يعيشونها في ذلك البيت الريفي الذي بدا ضائعًا في آخر بقعة من العالم، لا بد أن يكون أحد الأسباب الرئيسية.

في الصباح التالي، استيقظت باكرًا جدًّا وسعيدًا بمعرفة أنه في ذلك اليوم لا تنتظرني ساعات من ركوب الخيل، وحين بدا أن أهل البيت لا يزالون نائمين، خرجت للتجول في المدينة. سبق أن زرتها ثلاث أو أربع مرات برفقة أبي، قبل عشرة أعوام أو خمسة عشر عامًا، بعد عبور النهر الكبير خلال ساعات من الملاحة، قادمين من (لا باخادا جراندي ديل باراناه)، ما وراء شبكة الجزر والجداول المعقدة التي تفصل، بمسافة بعض الفراسخ، بين الضفتين الرئيسيتين. لأن مسقط رأسي كان بيتًا ريفيًّا متكومًا أعلى الوَهدة التي تكتنف النهر، بدت لي المدينة كلما زرتها كبيرة ومزدحمة وملوَّنة، وبدا سكانها أناسًا مميزين أقدامهم راسخة في العالم ومنهمكين طيلة الوقت في أشغال مهمة، لكن الآن وقد عدت بعد كل تلك السنين، بعدما أخذت جولة عبر مدريد ولندن وباريس وحتى بوينوس آيريس، فقد تقلصت إلى حجمها الطبيعي في عيني التي تعاقبت عليها كل تلك المدن الحقيقية؛ ومثلما يحدث مع كل الأشياء تقريبًا، فإن المدينة التي احتفظتُ بصورة ثابتة عنها في ذاكرتي أخذت تتضاءل على أرض الواقع، كأن الأشياء الخارجية تعيش في عدة أبعاد مختلفة في آن واحد. تكونت المدينة في الواقع من عدة مربعات سكنية متناثرة حول الميدان، بينها شوارع ترابية مستقيمة أغلبها بلا أرصفة، تمتد حذاء النهر أو عموديًا عليه، ومن كنيستين ومجمع رهبان ومبنى طويل كان في الوقت نفسه جمركًا وسجنًا ومستشفى ومفرزة شرطة، وبيوت من طابق واحد أسطحها من القرميد ونوافذها ذات قضبان من شدة انخفاضها بدت منبثقة من الأرض نفسها، وكذلك أشجار فاكهة كالبرتقال واليوسفي والليمون المحمَّلة بالثمار، وأشجار تين وخوخ جرَّدها البرد من الأوراق، وأشجار بشملة وحقول تين شوكي صغيرة وأشجار سنط عملاقة وجكرندة ولاباتشو وقابوق جميل وقابوق أحمر والكثير من أشجار الصفصاف البابلي التي تشي بوجود الماء في كل مكان. ثمة بساتين وحظائر مفتوحة في الأفنية الخلفية. في الضواحي، ندرت المنازل المبنية من الطوب والقرميد، وكانت الأكواخ أقذر

وأكثر تباعدًا وبؤسًا، لكن في وسط المدينة، في نطاق الميدان، فهناك متاجر مفتوحة عديدة، والشوارع المحيطة بالميدان مبلَّطة. ثمة دير في كنيسة (سان فرانثيسكو) القديمة، التي أسهم الهنود الذين اعتنقوا المسيحية في إقامتها وزخرفتها، وعلى بُعد خمسة أو ستة مربعات سكنية خلف مجمع الرهبان، منزل يضم بعض الراهبات. من بين ستة آلاف أو سبعة آلاف نسمة، بدا أن من خرجوا من منازلهم ذاك الصباح قليلون جدًّا، ربما بسبب البرد، لكن لأنني أعرف أن كل الثراء الذي تتمتع به المدينة، من ماشية وأخشاب وقطن وتبغ وجلود، يأتي من الريف، بدا جليًّا أنه في تلك الساعة الباكرة ليس هناك الكثير أو بالأحرى لا يوجد شيء يمكن فعله في الشوارع الباردة المقفرة. كانت جميع المتاجر المحيطة بالميدان لا تزال مغلقة. ذهبت للتمشية على حافة النهر فرأيت رجالًا يصطادون على صهوة الخيل، إذ يدخلون إلى الماء بشبكة ممدودة بين فارسين يجرانها على قاع النهر ثم يطويانها بحركة قوية العزم ويقذفان بها إلى الشاطئ، حيث تتساقط الأسماك التي تتلوى في الرمال. ندَّت عن إحدى الأسماك حركة شديدة العنف واليأس جعلتها، بعدما بلغت ارتفاعًا ملائمًا، تسقط في الماء مرة أخرى ولم تعاود الظهور، وهو ما بدا للصيادين أمرًا مضحكًا جدًّا احتفوا به بقهقهات لا نهائية صاخبة.

كانت نزهتي مبالِغة في التبكير، لأنني حينما عدت إلى منزل آل بارًّا وجدتُ الساعة بالكاد الثامنة والنصف، والأسرة تصحو لتوها. مكثنا أنا والسيد بارًّا في غرفة كبيرة مجاورة للمطبخ، لا شك أنها تُستعمل غرفة طعام في الأيام العادية، وراحت شابة سوداء تسقينا المتة وتجلب لنا كعكات دافئة من المطبخ. كنا قد تناولنا العشاء في الليلة السابقة في غرفة طعام أكثر ترفًا بعض الشيء، لا بد أنها تخص المناسبات الكبيرة، لكن القرب من المطبخ، في الغرفة الأكثر تواضعًا التي تناولنا فيها الإفطار، جعل الأجواء أكثر دفئًا وعذوبة، بسبب المواقد المجاورة التي تَحتم إشعالها شتاءً في معظم الأحيان.

لم نكد نتطرق إلى موضوع ابنه برودِنثيو حتى أجاب السيد بارًّا بصدق ودماثة عن أسئلتي.

أصيب الشاب برودِنثيو بارًّا، الذي أكمل لتوه الثالثة والعشرين، بحالة من الذهول الحاد التي إحقاقًا للحق مثَّلت تتويجًا لسلسلة من النوبات، وبمرور الوقت أخذت تزداد خطورة. بدأ الشاب برودِنثيو يتصرف بطريقة غريبة منذ مرحلة البلوغ، لكن في السنتين أو السنوات الثلاث الأخيرة فحسب، أمكن اعتبار سلوكه حالةً من الاختلال العقلي. ما كان في البداية مجرد غرابة أطوار أخذ يتدهور تدريجيًّا إلى جنون. في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة اعتاد أن ينعزل لأيام كاملة في حجرته ويملأ دفاتر ودفاتر بتأملات خُلقية كما سمَّاها، ليصنع منها بعد بضعة أشهر، وغيرها من الأوراق المسوَّدة بكتابته التي لا تكاد تُقرأ، شعلة نار ضخمة في الجزء الخلفي من البيت ويعلن أنه بدءًا من ذلك اليوم سيعكف بكل كيانه على أعمال الخير، لكن هذه التقلبات المزاجية لم تشغل بال أسرته، التي عزتها إلى جرعات الحماس الزائدة المفاجئة، لكن العابرة، لمرحلة الشباب. بدا النزوع إلى الاضطرابات المزاجية من ناحية أخرى متأصلًا في سجيته، فمنذ نعومة أظفاره كانت تقلباته المباغتة، التي لم يأخذها أحد على محمل الجد، ملحوظة ليس من جانب أسرته فحسب، بل أيضًا من جانب الخدم -الذين سواء أكانوا عبيدًا أم لا، مثَّلوا فعليًّا جزءًا من الأسرة- لدرجة أن اضطراب الشاب استحال جزءًا من نوادر البيت الفكاهية. لكن بدايةً من سن الثامنة عشرة تقريبًا أخذت الأمور منعطفًا أكثر جدية، وباتت خطورة حالته واضحة. تزايدت نوبات اكتئابه وصارت أكثر حدة. فحصه عدة أطباء، من المقيمين بالمدينة أو المارِّين عليها، ووضعوه تحت العلاج من دون الوصول إلى أي نتيجة ملحوظة. كان السيد بارًّا رجلًا أعقل من أن يؤمن بشائعات المس الشيطاني أو السحر التي سرت في المدينة، وليس بين الطبقات الفقيرة فحسب، لكنه ارتاب بما يكفي لكيلا يخفيها عني

بل ويخبرني بكل ملابساتها، وهو ما سمح لي بالتحقق مرة أخرى من أنه رغم جهود العلم في انتشال البشر من الألم والجهل، لا تزال الخرافة والظلامية تعيشان ليس فقط في المناطق النائية من الكوكب، بل حتى أيضًا في ممالك أوروبا التي تدَّعي الاستنارة، إلى درجة أنهم في حالة الشاب برودِنثيو، كأن علَّته الأليمة ليست كافية، زادوا عليها بالتشهير والافتراء. وفقًا للسيد بارًا، استولى على برودِنثيو جموح نحو الدراسات الفلسفية، فمضى يقرأ ليل نهار، وحينما فرغت المكتبات المحلية، التي ليست بالكثيرة ولا بالمتنوعة، طلب كتبًا من كوردوبا أو بوينوس آيريس أو أوروبا، وبلغ توقه إلى استلامها أنه حين ينتظر بعضها يذهب يوميًّا إلى الميناء ليسأل في السفن القادمة إن كانت كتبه قد وصلت. لكن في غضون مدة معينة، تملكه نوع من خمود الهمة، وما كان في السابق حماسًا وطاقةً وهتافًا خالصًا، استحال فتورًا وخمولًا وتنهُّدًا. بدأ يشكو أن الطبيعة لم تمنحه القدرات اللازمة لدراسة العلوم والفلسفة، وأن الكبرياء الرعناء المفرطة جعلته يرتكب خطأ مقارنة نفسه بالعباقرة العظام الذين أنعموا على البشرية مثل أفلاطون وأرسطو، وتوماس الأكويني وڤولتير. حسبما استطعت استنباطه من حكاية السيد بارًا، فإن مسألة عدم أهليته للدراسة عذبت برودِنثيو لعدة أشهر، وأسهمت في تعزيز هذا العجز المفترض تدريجيًّا سلسلةٌ من الأخطاء التي لا يمكن إصلاحها وتخيَّل أنه ارتكبها، بحيث إنه في غضون بعض الوقت بدأ يشعر بأنه مسؤول عن المصائب أو محض الحوادث العارضة التي تقع في المدينة، وكذلك عن تلك التي يعرف عنها من خلال الصحف الآتية من بوينوس آيريس أو من (البلاط). حين لم يبرحه ذاك الشعور المفرط بالواجب حتى أدى به إلى حالة من الوَهَن امتدت لأسابيع كاملة، في أثنائها لم يكن هناك وسيلة لإخراجه من غرفته بل وأحيانًا من الفراش، أصابته نوبات حمى حقيقية، وخلالها بدا له ضروريًّا أن يتصرف في الحال وبكل الطرق للحيلولة دون وقوع كوارث بعينها، كان مستحيلًا أن يعرفوا منه عنها مزيدًا من التفسيرات. في أكثر من مناسبة، وفقًا للسيد بارًا،

بحث عن أسمال قذرة، مؤثرًا تلك التي تخص العبيد لكن حالتها جعلت العبيد أنفسهم يكفون عن ارتدائها، ثم هام في الشوارع، حافيًا وعاري الرأس، ليقرأ في الأركان مخطوطًا يُفترض أنه فلسفي كتبه بنفسه بمصطلحات مبهمة؛ وفقًا للسيد بارًا، تغير خط برودِنثيو تمامًا وتحول من كونه خط المراهقة المنمنم والمنمق بل وحتى غير المقروء، إلى حروف ضخمة وغير متصلة وشديدة الارتخاء والانتفاش والارتعاش بحيث لم تسع الصفحة أكثر من عشرين أو ثلاثين كلمة. بوجه عام كان الناس يرقون له ويعيدونه إلى البيت، لكن ذات مرة أخذه بعض الفاسدين الذين لم يمتلكوا مسكنًا ثابتًا وتسكعوا في الضواحي، ليتسلوا على حسابه، ثم تركوه في وسط الحقول حيث هام على وجهه طوال الليل، لأن الفرقة التي خرجت للبحث عنه لم تعثر عليه إلا في اليوم التالي. أخبرني السيد بارًا بأنهم عندما وجدوه لم يبدُ برودِنثيو ساخطًا بأي حال على الإهانات التي تعرض لها، إنما حظ المتسكعين هو ما ضايقه وألح عليه كثيرًا، وكاد يذرف الدمع متأثرًا بالبؤس الذي أرغمهم على الانزواء إلى هامش المجتمع. بعد أسبوع حينما اعتقلت الشرطة فردين من العصابة قد رجعا إلى المدينة كأن شيئًا لم يحدث لكن بعض السكان تعرفا عليهما، وبعدما قُيِّدا من أطرافهما في حقل صغير بالضواحي ونالا بعض الجلدات المحترمة، ذهب برودِنثيو لزيارتهما ومناشدة السلطات لإطلاق سراحهما. بمرور الوقت توقفت هذه الزيارات، وتمكن منه حزن أخذ يزداد ثقلًا. (أوضح لي السيد بارًا أنه خلال تلك الفترة تغير خطه من جديد، فتقلص مرة أخرى، لكن بصورة مبالغ فيها حتى عاد مبهمًا. ومن ناحية أخرى كف عن الكتابة تمامًا منذ تلك اللحظة، كما أخبرني السيد بارًا).

لم يكن يستحم، ولا يلبس الثياب، وأحيانًا لا يغادر الفراش أصلًا، واستولى عليه ضرب من اللامبالاة؛ وعلى الرغم من غرائبه، ففي طفولته كان ودودًا لا مع أفراد عائلته فحسب، بل كذلك مع الجيران والعبيد وحتى الغرباء، لدرجة

أن تصرفاته بدت مبالغًا فيها بل ومزعجة لبعض الناس المارِّين على البيت مرورًا عابرًا، لكن هذا الود أخذ يتلاشى، كأن العالم الحقيقي الذي عاش فيه حتى تلك اللحظة قد حل محله آخر بدا فيه كل شيء غريبًا ورماديًّا. لم تعد مشكلات الأشخاص الأعزاء جدًّا عليه في السابق ولا أمراضهم ولا حتى موتهم، تحرك فيه أي شعور أو عاطفة، وإن كانت تنهداته، وأحيانًا تأوهاته، من حين إلى آخر تشي بما في داخله من معاناة لا لبس فيها، استحال معرفة سببها، رغم وجود تخمينات بأن الأسباب لا تنبع من أي حادث خارجي، بل على الأرجح من أفكار قليلة وأليمة بدا أنها تتكرر على الدوام، وأنه يجترها باستمرار. كان لا بد من البدء في إجباره على مغادرة الفراش وارتداء الثياب والأكل والتمشية قليلًا أو على الأقل الخروج إلى الرواق أو الفناء، وبخاصة مع اعتدال الجو، ولو أنه اعترض في بادئ الأمر، ففي النهاية أطاع مستسلمًا. أخذت فصاحة لسانه، التي استعملها في أوقات الحمى لمحاولة إقناع نظرائه بأن ثمة كارثة غامضة لكنها وشيكة تهددهم، في فقدان قوتها، وازدادت خطاباته المتقدة تفككًا وفقدانًا للإقناع، وإذا رافقتها في البداية حركات وإيماءات تؤكد عليها ويُفهم منها ضمنيًّا، وهو الأهم، السر الذي تحاول سَورته إيصاله إلى نظرائه دون الكشف عنه كليًّا، فإنه مع تقطُّع خطبه المسهبة شيئًا فشيئًا، التي حلت فيها الجمل المبتورة والمرتابة محل الهتافات، ازداد جمود تعبيرات أعضائه وسكونها الرخو. في النهاية كان يكتفي بفتح فمه للإجابة، بكلمات أحادية المقطع فحسب، عن سؤال يوجَّه إليه. إذا ما بذل مجهودًا من حين إلى آخر لتقديم إجابة أكثر تفصيلًا بعض الشيء، كوَّن جملتين أو ثلاثًا مقطَّعة ومبهمة ولفظَها بوهَن كأنما انسحبت منه طاقته بأكملها. وصار انحطاط قواه شاملًا في الأشهر الأخيرة، لكن طرأت تفصيلة غريبة على سلوكه المفرط في الغرابة: أغلق كفه اليسرى، ومنذ ذلك الحين أبقى على قبضته مطبقةً بإحكام. حين كان يُسأل عن سبب حركته يدير رأسه ويزم شفتيه كذلك ليوحي بأنه ليس مستعدًّا للإجابة، وفي مرتين أو ثلاث لمحاولة فهم ما يجري، بل حتى في

بعض المناسبات لمجرد المزاح، حاول بعض أفراد أسرته إرغامه على فتح قبضته، إلا أنه قاوم بيأس جعل أسرته، بعدما رقَّت لحاله، تدعه وشأنه في نهاية المطاف. وذات يوم لاحظ أحدهم أن يده تنزف، فأدرك أن أظفاره طيلة كل ذلك الوقت تواصل النمو وتنغرس في لحم راحته اللدن، فتحتم إرغامه بجدية على فتح قبضته لقص أظفاره وتضميد جروحه. وفقًا للسيد بارًا أخذ الشاب برودِنثيو يعوي ويتمرغ في الأرض محاولًا منعهم من فتح قبضته، وإذ أثار فضيحة أتى في إثرها الجيران ركضًا، معتقدين أن هناك جريمة وقعت في البيت، وعلى الرغم من حالة الضعف البالغ التي عانى بسببها الشاب برودِنثيو انحطاط قواه وقلة حيلته، بلغت مقاومته من الشدة ما استدعى الحاجة إلى ثلاثة أو أربعة رجال أقوياء لشل حركته وفتح قبضته وإبقاء يده مفتوحة بينما يقصون أظفاره ويضمدون جروحه الملوثة. في أثناء تلك العملية ظل برودِنثيو يعوي أو يتباكى وبدا عليه الرعب حتى رقَّ الناس له، لكن الحاضرين لاحظوا عدة مرات أن برودِنثيو ينظر بتوجس إلى السقف وجدران الغرفة كأنما يخشى أن تنهار فوقه. ذكَّر المشهد كله السيدَ بارًا بمرةٍ حين كان هو نفسه (السيد بارًا) طفلًا، واستيقظ على إثر كابوس مرعب وهو يصرخ باكيًا، وأمام وجوه أفراد أسرته التي انكبت عليه باندفاع، وحاولت تهدئته بالكلمات والمداعبات والإيماءات غير المفهومة وغير المجدية، انتابه شعور بأنهما، على الرغم من ملاصقة الأجساد له بوضوح، كانا في عالمين مختلفين، هم في العالم الظاهري غير الحقيقي، وهو في العالم الحقيقي الذي كشفه له الكابوس للتو. وفقًا للسيد بارًا، بدا أن ابنه يهدأ قليلًا، وعلى الرغم من أن الانتحابات تباعدت أكثر فأكثر فقد استمر التباكي، تقطعه من حين إلى آخر تنهيدة ما. وبينما هو ممدد في الفراش، مثبت بإحكام من قِبل أبيه وعبدين، والطبيب يضمد جروحه، طلب بالإشارة أن يحرروا يده اليمنى، وحين نال مبتغاه قرَّبها، وهي منقبضة قليلًا، إلى اليد المجروحة التي يضمدونها، بحيث إنها حين اقتربت بدرجة تكاد تعوق عمل الطبيب، ندَّت عن يده السليمة

إيماءة فوق راحة يده المصابة، كمن يلتقط ذبابة طائرة، ثم أغلق قبضة يده اليمنى، الأمر الذي بدا أنه هدَّأه تمامًا. طيلة الوقت الذي أبقوا فيه الضمادات على يده اليسرى، وفقًا للسيد بارًا، حافظ برودِنثيو على إغلاق قبضته اليمنى، ولكن حين أزالوها بعد أيام عاد لتبديل يده. ومنذ ذلك الحين وافق على فتح قبضته كل عشرة أو خمسة عشر يومًا ليقصوا له أظفاره، لكن قبل أن يفتحها يؤدي العملية الغريبة التي يلتقط فيها بيده الأخرى شيئًا طائرًا يبدو أنه ملزَم بمنعه من الهرب مهما كلف الأمر. أوضح لي السيد بارًا أن ابنه نفَّذ تلك المناورة الغريبة بجدية مطلقة وعناية فائقة، وكلما استطاع ملاحظتها تأكد من أنه يفعلها بالدقة التفصيلية لشعيرة دينية.

قبل أن يقودني إلى غرفة ابنه، أخبرني السيد بارًا، مجيبًا عن سؤال طرحتُه، بشأن العلاجات التي وصفها له الأطباء المتعاقبون الذين فحصوه، دون أن يلاقوا نتيجةً تُذكر. تردد على علاجه الطبيبان المعتمدان من قبل مجلس البلدية بمزاولة المهنة في المدينة بصورة دائمة، لكنهما لم يعودا لرؤيته مجددًا خلال زياراتهما وأكدا أنهما أمام حالة لا يُرجى شفاؤها. كذلك استُشير طبيبان أو ثلاثة مروا على المدينة، أوصى أحدهم بالاستحمام في نهر (سالادو)، مؤكدًا أنه يُنصح به جدًّا لعلاج الاختلال العقلي بسبب نوعية مياهه وطينه خاصةً. أخبرني السيد بارًا بأنه على الرغم من أن برودِنثيو كان يرتعب من الغطس في النهر، فقد وافق عن طيب خاطر على أن يُغطَّى كاملًا بالطين المُحمَرِّ للشاطئ وأن يُمدَّد في الشمس ليجف الطين على جسده، إلى الحد الذي استوجب في أغلب الأحيان مجهودًا يستغرق وقتًا طويلًا للتمكن من إزالة طبقة الطين الجاف عن جسده. ومع ذلك، ففي آخر صيف وصلت حالة جنونه إلى درجةٍ من الخطورة استحال عندها إخراجه من حجرته لاصطحابه إلى ضفة النهر.

قادني السيد بارًا إلى غرفة ابنه. كان الجو يفوح برائحة العزلة، برائحة مواد غريبة مخلوطة ومنقوعة، برائحة الهجران، على الرغم من النظام السائد فيها، في الحجرة المؤثثة باعتدال وجيدة التدفئة بمجمرة موضوعة إلى جوار النافذة، لا بد أنها ظلت تضطرم طوال الليل. كان الشاب برودِنثيو موضوعًا في الفراش، غارقًا حتى كتفيه تحت الأغطية، ورأسه المغطى بقبعة نوم بيضاء مستندًا إلى كومة من الوسائد. بدا أن الفراش قد أُعِدَّ للتو، رغم أن من يشغله مغمض العينين، لكن السيد بارًا شرح لي أن وضعية السكون التام للشاب لا تتغير في أثناء النوم، إذ يوحي الفراش دائمًا في الصباح بأنه رُتب للتو. ظهر على وجه برودِنثيو شحوب مُصفرٌ برز أسفل اللحية الصغيرة المفرغة التي تغطي ذقنه، وكذلك بسبب النحافة الشديدة لقسمات وجهه. ثمة شيء أشبه بشق رأسي يمتد من وجنته حتى فكه تقريبًا ويشق خده الأيسر إلى نصفين، بينما الأيمن غائر في غمازة كبيرة احتلته بالكامل، تشبه منطقة مدكوكة ومسحوبة إلى داخل الأرض إثر كارثة جيولوجية ما. على الرغم من شبابه، بدا جلده المصفرُّ ذابلًا كجلد مستعمل، وبالتصاقه بوجنتيه، فقد أبرزَ محيطهما مضيفًا إليهما بريقًا غضروفيًا. لكن ما لفت الانتباه هي جبهته بالتحديد، التي قطعتها تجعيدات أفقية عميقة، ومفرق حاجبيه، حيث تجعيدة مقوسة على شكل حدوة فرس، كأنما طُبعت على لحمه علامةٌ صغيرة، وصلت بين حاجبيه بغضوض عميق. فوق الوسادة، من أسفل قبعة النوم، ظهرت بعض خصلات الشعر الطويل الخشن التي زادت من إبراز نحول وجهه. لسببٍ غامضٍ ما ظهر من أذنيه طرفا خرقتين بيضاوين موضوعتين في فتحتيهما. على الرغم من عينيه المغمضتين تبدًا على محياه تعبير أليم، بسبب التجاعيد العميقة بالتأكيد، لكن أيضًا بسبب فمه الموارب وجفنيه نصف المغلقين. بدا ذلك الألم الذي لا يُسبر غوره، وإحقاقًا للحق كان مسرحيًا بعض الشيء كأن تعبيرات وجههَ تبالغ فيه للإمعان في إظهاره، كأنما يضيف إلى سنواته الثلاث والعشرين حديثة العهد قرونًا من اليأس والكرب والشدة. وعلى الرغم

من جفنيه نصف المغلقين، صَعُب معرفة هل هو نائم أم يتصنع النوم، لكن سكونه بدا أكبر من أن يكون مفتعلًا وجعله -إلى جانب شحوبه المصفَرّ- أشبه بجثة. لكنني حين انكفأت لإزاحة الأغطية وفحص بقية جسده، أغمض جفنيه ببطءٍ قد يقول المرء إنه حدث على مراحل، ثم وبعد أن ترك نظرته تنزلق من فوقي بلا مبالاة، ثبتها على نقطةٍ غير محددة في الفراغ الكامن بين الفراش والباب. لدهشتي اكتشفت أنه أقل نحولًا مما توقعت، ما لم يكن الفِضال الأبيض الواصل إلى ركبتيه قد دفعني إلى تكوين انطباع خادع، لكن جسده بدا أكثر امتلاءً من وجهه ولم يبد على ربلتيه، المنتهيتين بقدمين ضخمتين تستند إحداهما إلى جانب الأخرى بوداعة، أصابعهما غليظة الأنامل وشديدة التباعد فيما بينها، أنهما نحيفتان ولا هشتان. رقدت ذراعه اليمنى، مفتوحة اليد، بطول جسده، أما قبضته اليسرى المستقرة على بطنه، فكانت محكمة الإغلاق لدرجة أن الجهد المبذول زاد من شحوب جلده المصفَرّ عند نتوء براجمه. كانت حالة الرخاوة العامة لجسده، وتضرر وجهه، وتبلُّد أطرافه قطنية المظهر، وخمول قدميه الكبيرتين الهامدتين، ونظرته التائهة، وتعبير وجهه العليل، تتعارض مع إصرار قبضته المغلقة، التي بدا أن طاقة جسده بأكملها قد تركزت فيها، بحيث سهُل على المرء أن يخمن، من تلك الإيماءة التي لم تمثل للكثيرين إلا عنادًا غير عقلانيٍّ ووهميًّا، أنها مسألة حياة أو موت وسيصبح من الجنون، حينئذٍ، أن أتجاهلها. أعرف كذلك أن الجنون وحده يجرؤ على تصور تلك الحدود في التفكير، التي غالبًا ما تؤثِر العقلانيةُ، بالتحديد لكي تبقى عقلانية، أن تتجاهلها، وهو ما يحيل المجانين إلى منعزلين عنيدين لا يُرجى شفاؤهم. بدا أن أمرًا عظيم الخطورة يعتمد على تلك القبضة، وبعثَ الإصرار المؤلم لإيماءته على الاعتقاد بأنه إذا ما انخفض التركيز وتراخى الشّد سامحًا ليده، الرخوة هي الأخرى، بالانفراج قليلًا، فسوف تهبُّ رياحٌ تمحق الكونَ في أعقابها، مؤذنةً بنهاية العالم. فحصته لثوانٍ دون أن أستشعر في جسده أدنى حركة؛ بمجرد أن ارتفع جفناه لم ينزلا مرة أخرى، ليبرهنا

مجددًا على ملاحظة أستاذي المعهودة، وهي أن المختلين قادرون على فعل أشياء بأجسادهم تستعصي على الأصحَّاء، وللتحقق من ذلك المبدأ بصورة أعمق، أمعنتُ التركيز بغية اكتشاف العلامات الخارجية للنشاط التنفسي، كخرير الشهيق والزفير أو انبساط الصدر وانقباضه، لكن في غضون عدة ثوان اضطررت إلى الاعتراف بأن صمتًا تامًّا يخيم على الغرفة وأن الجسد في حالة سكون مثالي. بصورة تناقضية، انبعث من ذاك السكون، ليس شعورًا بالموت، بل على النقيض انطباعًا بوجود مقاومة ما، بقوى متصارعة في نزاع أبدي، واختارت جسد ذلك الشاب وروحه ليكونا أرض المعركة. أوحت العينان المبالغتان في الثبات والاتساع، وسكون الجسد التام والقبضة المطبقة فوق بطنه، بأن كل اهتمامه يتركز في منطقةٍ بعيدةٍ ما بداخله، حيث تدور المعركة الحاسمة، ليلتقط حتى أدق تفاصيل ذلك الصخب البعيد.

حين خرجنا من الغرفة استجوبني السيد بارًّا بنظرته ليعرف رأيي في حالة ابنه، وبكل صراحة أجبته بأنه نظرًا إلى أن التجربة أثبتت أن حالات الخبَل لم تستغرق وقتًا مبالغًا فيه، ولأنه من النظرة الأولى لم تبد الحالة الجسدية للشاب برودِنثيو شديدة التدهور، فربما يمكن انتظار بعض التحسن في الأشهر المقبلة. (إحقاقًا للحق، تأكد ذلك التحسن حالما باشرنا الرحلة نحو (دار الصحة)، ففي اللحظة عينها التي غادرنا فيها المدينة تقريبًا، خرج مريضنا من حالة الخبَل. سأسجل لاحقًا تطوره الغريب بالتفصيل).

أراني السيد بارًّا منزله، لأنه لم يتمكن من ذلك في الليلة السابقة لوصولي في ساعة متأخرة وقد امتنعت، من باب الحشمة، عن تفقده في ذلك الصباح في أثناء نوم أصحابه. لم تحمل لي صفوف الغرف التي تُفتح على أروقة تشكِّل أفنية مربعة -وفي الغرف الخلفية ينام العبيد- أي مفاجأة تذكر، لكن في أقصى البيت كان ثمة تكعيبة تحظى بعناية فائقة رغم أن البرد القارس أتلفها، ومشتلٌ جميلٌ من الأشجار المثمرة، تبرز منه أشجار اليوسفي والبرتقال

والليمون محمَّلةً بالثمار. في أثناء محادثتنا، أكلنا بعض ثمار اليوسفي الحلوة الباردة تحت الشجرة، وحينما عدنا إلى الداخل، تلقيت المفاجأة، التي لم تتمكن البنية التقليدية للبيت من منحي إياها، في أثناء دخولي غرفة مجاورة لغرفة الطعام، ومؤثثة بذوق رفيع، ومزوَّدة بمكتبة عامرة. تزينت الجدران ببعض المناظر الطبيعية المحلية، المرسومة بيد ماهرة لكن بلا عبقرية، وراقَبَنا تمثال نصفي لڤولتير من أحد الرفوف. أدركت فجأةً أنني محظوظ بالنزول في بيت عائلة مستنيرة وعصرية، وهو وضع شديد الندرة في تلك المقاطعات النائية وتينك الحقبة الزمنية. (*لم يتحسن الوضع حاليًا*. ملحوظة بقلم م. سولدي.) بدافع التحفظ، لكيلا أقول الخجل، لم يبالغ السيد بارًّا في إظهار الأمر، وربما كذلك بسبب سمعتي كمساعد للدكتور ڤايس ولدراستي في أوروبا، لكن خلال الأسابيع التي أجبرتني فيها الظروف على المكوث في منزله، استطعت اكتشاف حيوية أفكاره وحصافتها والمناخ العذب السائد في كنف أسرته، التي أصابها مرض الشاب بروديثيو بحزن حقيقي. كانت لوحات المكتبة مرسومة بيد السيد بارًّا نفسه وهو الأمر الذي جعلني، حين عرفته، أحكم عليها بطريقة أكثر إيجابية، ولا أعرف هل بدت لي أفضل لأنها من تنفيذ هاوٍ لم يدرس الرسم قط، أم بسبب الود الذي شعرت به تجاه الرسام وأسرته. إن الأنشطة التجارية المتعددة للسيد بارًّا، التي سمحت له بتكوين ثروة معتبرة، لم تمنعه من الاعتناء بنفسه في وقت اعتنائه نفسه ببستانه وحديقته، وكان تواضعه الأصيل غير مبرر إذا ما أُخذ في الاعتبار صواب آرائه العامة، وهي سمة شديدة الندرة في رجل صاحب ثروة، إذ أتيح لي أن ألاحظ غير مرة، لترددي عليهم في قارتين، أن الأغنياء لديهم آراء عنجهية عن أنفسهم وأنهم، بسبب خلط غير مفهوم، مقتنعون بأن قدرتهم على جني المال تمنحهم السلطة للحديث عن كل هذه الموضوعات التي يجهلونها، سواء أكانت فنية أم سياسية أم فلسفية. ذهب السيد بارًّا للاضطلاع بأشغاله، بينما توجهت إلى الثكنة للاطمئنان إلى أن زملائي في الرحلة ينعمون بإقامة

حسنة. كان الجنديان، المعتادان الحياة العسكرية، قد انصهرا بالفعل مع بقية القوة -وهو اسم ربما يكون مبالغًا فيه على هذه الحفنة من الرجال سيئي التسليح الذين يرتدون أسمالًا ويشكّلون قوامها- لكن أوسونا كان عكر المزاج وزعم أنه لم ينم طوال الليل، بسبب الضوضاء والإزعاج المستمر الذي ملأ المهجع. إن ما أطلقوا عليه مهجعًا لهو مبنى قديم من الطوب والقرميد، في حالة سيئة نسبيًا لكنه واسع بما يكفي للسماح لقرابة أربعين رجلًا بفرش أمتعتهم الرثة على الأرض المستوية والاستلقاء للنوم لأن الحالات الخاصة، كما سأعلم لاحقًا، مثل المرضى أو المنشقين يُرسَلون إلى المستشفى أو السجن، اللذين يقعان في مبنى أكبر قليلًا على بعد مئة متر من المبنى الأول. بدا الاستياء الذي شعر به أوسونا مبررًا، لأن ظروف المبيت كانت من أضعف ما يمكن، ولكن بسبب تعاملي معه منذ فترة، فقد علِمت أن الطابع المميز بعض الشيء لمرشدنا قد يدفعه، دون أن يدرك ذلك، إلى المبالغة في أسباب احتجاجاته. يجب أن يكون واضحًا لقرائي المستقبليين، إن حظيت بهم يومًا، أن هذه الملحوظة لا تنقص في شيء من قدر الصفات العديدة والممتازة التي يتمتع بها أوسونا، أبرزها الولاء والكفاءة منقطعة النظير والذكاء والحس العملي وإنكار الذات وغيرها الكثير، ولكنني، لا أعرف هل بسبب انحياز مهني أم شيء آخر، يستحيل عليّ ألا أخمن السمات الشخصية التي تبرر آراء الأشخاص الذين أتعامل معهم وأساليب تصرفهم، بعيدًا عن الأسباب الحقيقية التي يتذرعون بها. إن معرفة أوسونا التي لا يمكن إنكارها بكل ما يخص السهل الشاسع، الذي عرفه بالتفصيل حتى أبعد أركانه وهو في سن الخامسة والثلاثين تقريبًا آنذاك، جعلته في موضع أفضلية لكنه غير مريح، ربما قد يفهمه العالِم أو الفنان لأنهما، مثلما يحدث مع علم الصحراء الذي يمارسه أوسونا أو نظراؤه، مضطران إلى التعامل في معظم الوقت مع أناس يعجزون عن تقدير هذا العلم بصورة صحيحة، على الرغم من استفادتهم منه. وبغض النظر عن حقيقة أن الآخرين لم يتوقفوا للتفكير في التضحيات التي بُذلت

لاكتساب تلك المعرفة، التي زرعت في أوسونا علمًا حقيقيًّا بغير المرئيات، وضعته أحيانًا في مواقف شاقة جدًّا، كالتعامل مع الطبقة العليا التي إما لا تمنحه الاحترام الذي يستحق وتكتفي باستغلال معرفته، وإما، على النقيض، تبالغ في تقديره وتعامله بصورة تميزه عن الجنود والناس في محيطه. نظرًا إلى الإزعاجات الكثيرة التي سببتها له معارفه، صنع أوسونا لنفسه شخصية مميزة، أشعرته على نحو غامض بأنه مختلف عن الآخرين، ودفعته للانعزال عنهم والتركيز، كأنه مثال في الزهد، في آلاف التفاصيل للعالم الخارجي. من خلال معاملتي له لسنوات، استطعت ملاحظة أنه لا يرتاح إلا في الصحراء. ما أدهشني فيه هو أنني رأيت، بينما نبيت في استراحة ما وهو يستسلم لإغواء الأجوارديينتي، كيف تتهشم واجهة الجمود عن وجهه القاتم الحاد، بينما ينبعث من عينيه المخيفتين بريق خاطف ومتقلب يفضح الشغف الذي يخفيه بجدارة طوال اليوم، والزهو بل والغرور فيما يتعلق بمهنته، والغيرة التي تمنعه من الاعتراف بوجود أي دليل جيد غيره في السهل، وجهوده، الخرقاء من ناحية أخرى، ليكون محور الاهتمام طوال الوقت، والاستعلائية التي تحلى بها في أثناء استماعه ومشاهدته للفرسان الآخرين والجنود وما إلى ذلك، الذين قد يشاركون قطعة من اللحم المشوي مع الرحّالة في ليالي السهل الخاوية. لكن ما أدهشني أكثر، في الصباح التالي، أن رأيته يمتطي حصانه بحزمٍ ونشاط وهو على أهبة الاستعداد؛ دون أن يسمح بظهور أي إحساس أو شعور على وجهه، بعكس ما كان منذ ساعات، عدا رغبته في استعادة المسار، والمضي قدمًا بفضل آلاف الرسائل التي يرسلها إليه الواقع مع كل خطوة، ولا يستطيع أن يقرأها سواه. ومثلما يحدث في كل مرة يشكو فيها شيئًا ما أمامي، أجابني أوسونا بأن الأمر لا يستحق العناء حينما اقترحت عليه معالجة الوضع: فعلى ما يبدو، كفاه إنصاتي إلى شكواه.

اعتمدت مدة إقامتنا على وصول مريضين، واحد من أسونثيون في باراجواي والآخر من كوردوبا، سينضمان إلى مريضَي المدينة، الشاب بروذِنثيو بارًّا وراهبة سقطت في براثن الجنون، وفقًا لما أخبرتنا به الراهبة الأم خطابيًّا، بعدما اغتصبها بستاني الدير. أودِع الرجل في السجن وظلت الأخت في الدير، لكن حالة هياجها المستمر أقنعت السلطات الدينية المحلية بأن عليها اللجوء إلى الدكتور ڤايس لحل المشكلة. في الأشهر الأخيرة، كانت هناك الكثير من المراسلات المتبادلة بين (الأسناط الثلاثة) وعائلات المرضى الأربعة، للوصول إلى اتفاق نهائي حول شروط النقل ودخول المستشفى والعلاج والأتعاب، إلخ، وقد أدت تلك المفاوضات الطويلة إلى مجيئنا إلى المدينة التي، بمجرد اجتماع المرضى الأربعة، ستنطلق منها القافلة بالإضافة إلى الحامية العسكرية وجميع مستلزمات الرحلة. في البداية جرى التخطيط للسفر عبر النهر، لكن الحمولة الاستثنائية التي وجب علينا نقلها أقنعت البحارة الإيطاليين القلائل، الذين توفرت في سفنهم بعض وسائل الراحة اللازمة لفعلها، بالعدول عن الفكرة. كنا متحفظين نحن أيضًا حيال نقل المجانين عن طريق النهر، لأن ذاك النهر اللامتوقع، إلا إذا أبقيناهم محبوسين طيلة الوقت في عنبر السفينة، يستطيع أن يشكل خطرًا على المرضى. في النهاية، بموافقة صريحة من العائلات، ونتيجةً لمفاوضات أجراها الدكتور ڤايس شخصيًّا، اعتُمد حل السفر البري، دون أدنى شك ولو للحظة في أن النهر الذي رفضنا رفقته، بينما يرتفع منسوبه على مدار أسابيع ساعةً تلو ساعة ويحيد عن مجراه، سيسعى خلفنا من تلقاء نفسه ليفرض علينا قوانينه الصارمة.

من أجل راحة المرضى، استأجرنا خمس عربات من التي يستعملها المسافرون الذين يجوبون الطرقات المروعة لتلك الأرض الشاسعة، للذهاب في سبيل التجارة من بوينوس آيريس إلى تشيلي، على الجانب الآخر من السلسلة

الجبلية. كانت تلك العربات، التي لا يجرها زوجان من الثيران كعربات نقل الحمولات بل تجرها خيول، والمزودة حتى بأبواب ونوافذ، مجهزة من الداخل كحجيرات تصلح غرفًا للنوم والمعيشة في الوقت نفسه، وهي بالطبع ضيقة جدًّا وبدائية، لكنها تضم وسائل الراحة الضرورية لتحمُّل أسفار الصحراء اللانهائية، ولا سيما أنها توفر استراحة معقولة إلى حد ما في كل توقف خلال الطريق. خُصصت أربع من تلك العربات من أجل المرضى والخامسة من أجلي، على الرغم من أنني كنت سأرضى بخيمة لكي أتقاسم المصير مع القوة التي ترافقنا. كان لهذه العربات كلها مالك واحد، وهو رجل أعمال من بوينوس آيريس يتاجر مع توكومان وكوردوبا ومِندوثا، ومع عدة مدن تشيلية، ومع كل مدن الساحل، حيث يتعين عليه منافسة النقل النهري، حتى أسونثيون في باراجواي، الموطن الأصلي لعائلته. ناسبتنا جدًّا شروط الإيجار، لوجود أحد أفراد عائلة المالك من ضمن المرضى. سيرتحل جزء من الحامية انطلاقًا من المدينة، الواقعة في منتصف الطريق بين أسونثيون وبوينوس آيريس، ولأن طريق كوردوبا كذلك يمر بالقرب منها، فرضت تلك المدينة نفسها بصفتها نقطة تجمع. قدَّرنا أن الرحلة إلى (دار الصحة) ستستغرق نحو خمسة عشر يومًا، لأننا سنحاول ألا نستحث المسير لكيلا نزيد من إرهاق مرضانا، لكن العراقيل المختلفة التي أخذت تعرض لنا، والتقلبات الجسيمة التي حوَّلتنا عن مسارنا وشلَّت حركتنا بل وأرغمتنا على التراجع، ضاعفَت تلك المدة ثلاث مرات تقريبًا.

في ذلك المساء نفسه بعثتُ برسالة إلى الدير معلنًا وصولي بحلول اليوم التالي. استقبلتني الراهبة الأم، وهي خمسينية ملامحها صارمة، في الحادية عشرة صباحًا بغرفة نظيفة وباردة، ومن العبارات الأولى التي تبادلناها أدركتُ أن مهنتي بثت فيها ارتيابًا عميقًا، لكن حالة الأخت تيريسيتا، الراهبة التي ينبغي أن يتولى أمرها الدكتور ڤايس، بدت أكثر خطورة من المتوقع،

ولا شك أنها جلبت عليهم أضرارًا ليست بالقليلة، وإلا فلم يكونوا ليسلّموا باللجوء إلينا. ومع ذلك فخلال سير المحادثة، فهمت أن الأمر بالحصول على خدمات الدكتور ڤايس قد جاء من بوينوس آيريس. في أثناء لقائي الراهبة الأم، لم أستطع التوقف عن الابتسام في قرارة نفسي، أمام ذلك الدليل الجديد بأن الجنون، بمحض وجوده، يقلب موازين المشروعات والتسلسلات الهرمية ومبادئ مَن يسمَّون بالعقلاء، بل ويخرِّبها. أرادت الأم أن تحصل مني على وعد صريح سخيف بالكتمان، وأمام إصرارها الوقح بعض الشيء، الذي انطوى على شبه إهانة، اضطررت إلى إجابتها ببرود بأن الوعد الصريح في تلك الحالة بالذات أمر لا داعي له، إذ إن الكتمان، منذ عهد أبقراط، هو مبدأ عِلمنا نفسه. ومن دون أن تتأثر بصلابة إجابتي، لكن بعدما غضت جفنيها لكيلا تتلاقى نظراتنا طيلة قصتها، حكت لي الراهبة الأم، بالكثير من التلميحات والمواربة في الكلام، وهي تكافح بصعوبةٍ حياءً بداخلها كان أكثر من مفهوم بسبب الطبيعة المؤلمة للأحداث التي تحكيها لي، قصة الأخت تيريسيتا. وفقًا للراهبة الأم فإن تلك الراهبة، التي أتت من إسبانيا إلى بيرو أولًا، وبموجب قرار رهبانيتها، (إماء القربان المقدس)، نُقلت إلى المدينة، وكانت وفقًا للراهبة الأم شخصًا شديد السذاجة والورع، بل وميّالًا إلى بعض المبالغات التصوفية التي تلقت على إثرها بعض الإنذارات والدعوات للانضباط. من أصل متواضع، وعلى الرغم من أنها لم تتلق تعليمًا يتجاوز التعليم الأساسي الذي يتطلبه تكوينها الديني، فقد تحلت بنزعة أدبية قوية عبَّرت بها، وفقًا للراهبة الأم، عن إخلاصها للمسيح والقربان المقدس. كانت إحدى المهام الرئيسية للرهبانية هي رعاية النساء اللاتي امتهنَّ حياة السوء واللاتي، لسوء الحظ وفقًا للراهبة الأم، ولدواعي سرور أستاذي كما فكرت في قرارة نفسي، يكثر وجودهن في أمريكا، وهي الرسالة التي حملتها الأخت الصغيرة بحماس مفرط، تمامًا ككل الأمور التي تضطلع بها، حتى وصلت إلى التردد عليهن بانتظام وألفة بالغتين، وهو ما أفسح المجال لبعض سوء الفهم. إن الطبيعة المتقدة للأخت،

التي طالما ظهرت بعفوية زائدة عن الحد، قد غذَّت القيل والقال في المدينة حيث أدى تفرغ أهلها شبه الدائم، وفقًا للراهبة الأم، إلى تلك النزعة الحتمية إلى الانشغال بحياة الآخرين. لكن ذلك كله وفقًا للراهبة الأم لم يكن جسيمًا مقارنةً بالمأساة الحقيقية التي وقعت في أواخر العام الماضي. ثمة رجل عيَّنوه لرعاية الحديقة والبستان والحظيرة، لوجود كثير من العاطلين في المدينة وفقًا للراهبة الأم، وكان الأسلم توظيفهم في شيء وإلا صاروا متشردين ومجرمين، قد أتى للعمل لصالح الدير منذ عدة أشهر، وبدأ يعتدي على الأخت سرًّا، فأخضعها لجميع أنواع الانتهاكات الوحشية وهددها بالموت إن جرؤت على إخبار أحد بالأمر. بطبيعة الحال، حذفت الراهبة الأم أكثر التفاصيل إيلامًا، لكنني لم أبذل جهدًا كي أدرك، من البقع الحمراء التي تأججت على خديها، أن ذكرى تلك التفاصيل أيقظت داخلها شعورًا قويًّا. ذات يوم، في ساعة القيلولة، باغتتهما الراهبة الأم بنفسها في المصلَّى وهما مستلقيان على الأرض أسفل المذبح، ليجمعا بين الإشباع الحيواني للغرائز الجسدية وتدنيس المقدسات. اعتُقل البستاني على الفور، ولا يزال في السجن، لكن تبعات الأمر كانت مدمرة للأخت تيريسيتا، حتى أفقدتها صوابها. كانت الأخت هشَّة بطبيعتها، وفي الأشهر التي سبقت الواقعة، استطاعت الراهبة الأم أن تلاحظ على الأخت تيريسيتا أمارات اختلال أقوى من المعهود، ورغم ذلك لم يخطر ببالها أن تتصور في أي لحظة أن تلك الحالات الخفيفة من الاضطراب، وتلك التقلبات الطفيفة لكن المستمرة، وتلك التحولات المفاجئة من الضحك إلى الدموع، وذلك التفاني المفرط للمسيح، التي تفاقمت كلها بالمأساة الدنيئة التي قُدِّر لها أن تعيشها، سترمي بها في النهاية إلى هوة الخبل. ورغم أنه في خضم اضطرابها حلَّت فترات من الهدوء، وأن مظهرها الخارجي في معظم الأحيان لم يكشف عن وجود أي صورة من صور الجنون، كما تابعت الراهبة الأم شرحها لي، فإن تغيراتها السلوكية المباغتة وتبدُّل أخلاقها ولغتها كانت غير متوقعة بالمرة، لدرجة أن بعض أعضاء الكنيسة في البداية آمنوا أنهم

أمام حالة مسٍّ شيطاني، وناقشوا إمكانية إحالتها إلى محكمة التفتيش، لكن القس المعزِّم للمدينة، آخذًا بعين الاعتبار الانتهاكات التي وقعت الأخت ضحيتها، ارتأى وجود سبب دقيق ومعروف في طريقة تصرفها وأنه ينبغي وضع الأمور بين يدي العدالة والطب. وقد تعاملت السلطات الكنسية لبوينوس آيريس مع الحالة بالطريقة ذاتها. من بين الأشخاص الذين أتت الراهبة الأم على ذكرهم عرفت اثنين كانا، على عكس الرأي الشائع بين أعضاء الكنيسة النافذين، مؤيدَين للمؤسسة والأساليب العلاجية للدكتور ڤايس. من وجهة نظري، أن اختيار التفسير المَرَضي للحالة على حساب التفسير الشيطاني كان رغبةً في التكتم على الأمر أكثر منه دليلًا على رجاحة رأي السلطات الكنسية، إذ إننا سبق أن تحدثنا في كثير من المرات مع الدكتور ڤايس عن أمر لا يمكن إنكاره، وهو أن كثيرًا من زنازين أوروبا الواقعة تحت مستشفيات المجانين، في القرنين الأخيرين، امتلأت سرًّا بالتعساء الذين كان إرسالهم إلى المحرقة سيُحدث ضجة أكبر من اللازم. لكن ما جعلنا بمنأى عن ذلك الدور المخزي للسجن الذي اعتقدت عائلات كثيرة أننا ننتوي لعبه، هو تكويننا في مستشفيات باريس والتفكير المستمر الدائر داخل (الدار) في التطوير اللازم لنهجنا، تحت الإدارة المجيدة لأستاذي. بالنسبة إلينا، فإن الممارسة الصارمة للعلوم الطبية هي الوسيلة الوحيدة الممكنة لتقديم الإحسان.

على مدار تلك المحادثة الطويلة، التي من ناحية أخرى لم تكن مريحة على الإطلاق، فخلال سيرها تجلَّت تحفظاتنا المتبادلة، أدركت أنني لن أستطيع تكوين فكرة دقيقة عن حالة الأخت تيريسيتا ما لم تسنح الفرصة لتقديرها بنفسي، فشرحت للراهبة الأم أن واجبي المهني يحتم عليَّ إجراء زيارة فورية للمريضة، الأمر الذي وافقتْ عليه في النهاية لكن بعد شكوك وترددات واضحة. كانت المريضة في غرفة تقع بنهاية البيت، مغلقة بمفتاح. أول ما لاحظته في تلك الحجرة الضيقة أن النافذة، المحمية بقضبان حديدية،

تطل على الرواق والفناء، لكن ليس على الشارع. ولأن مصراعي النافذة شبه مغلقين، خيم الظلام على الغرفة في تلك اللحظة، ولأننا أتينا متأثرين بوهج نور الظهيرة الشتوي الساطع، فلمدة ثوانٍ لم أرَ شيئًا أكثر من بقعة رمادية نشطة بزغت من أحد الأركان وتقدمت نحونا، حتى استقرت في وسط الغرفة. ظللت أرمش على عتبة الباب، لكن الراهبة الأم دخلت، متجهةً نحو النافذة، وفتحت المصراعين نصف فتحة بحذر. دخل شعاع نور من الفتحة واستقر ضوؤه على الفتاة بكثافة كشاف مسرحي. كانت صغيرة الحجم وشعرها قصير جدًّا، ولم ترتدِ الرداء الكنسي بل نوعًا من الفِضال الرمادي يغطيها من العنق، حيث كانت ياقة الثوب مزررة، حتى الكاحلين. على الرغم من برودة الغرفة، رأيت أن القدمين اللتين تقفان على الأرضية الطوبية حافيتان، لكن لم يبد أن البرد يزعجها. بعدما لاحظت نظرتي المستنكرة، أسرعت الراهبة الأم توضح لي أن الأخت لا تحتمل مجمرات التدفئة، إذ تعاني نوبات حرارة عنيفة، وأكدت أن البرد ليس له أي تأثير عليها. بحثت عن نظرة الأخت تيريسيتا للحصول على تأكيد لما سمعته للتو، لكن استحال عليَّ إيجادها، إذ توقفت عن الحركة وغضت طرفها بابتسامة خجولة على شفتيها، بينما يداها الخارجتان من كُمَّي الفِضال الرمادي تستندان بلطف إحداهما فوق الأخرى على مستوى بطنها. لم يكن ذلك الخجل شديد الوضوح غريبًا عني: لم يصعب عليَّ أن أرى فيها تصنعًا شائعًا بين بعض المرضى العقليين، الذين حينما يجدون أنفسهم لأول مرة أمام طبيب يحاولون إقناعه، متخذين وضعية مسرحية، بأنه سيكون إهدارًا غير مبرر للوقت أن ينشغل بأشخاص مثلهم يبدون طبيعيين بمجرد النظر. كما انطوى هذا العرض الذي يبرز وداعة وحياء شخصيتها على محاولة للإغراء، كانت فعالة جدًّا من ناحية أخرى، وغير ضرورية في نهاية المطاف، لأن عليَّ الاعتراف بأن وجودها القوي والحيوي، دون أن يسمح لي بنسيان الاحتمالات القوية لأن تكون مريضة، استطاع أن يكسب تعاطفي على الفور. لم أتأخر في إدراك أن الأخت تيريسيتا تحاول تكوين رابط خاص

معي، ليس بمنأى عن الراهبة الأم فحسب بل ربما كذلك عن الدير وحتى عن العالم بأسره، ربما بهدف أن تثبت لهم، وتثبت لنفسها أيضًا، أن شخصيتها وطريقة تصرفها يمكن تفسيرها، ولو لمرة واحدة، بمعناها الصحيح.

عندما اقتربت منها، فتحتْ جفنيها ونظرت إليَّ: كانت عيناها الصغيرتان رماديتين ومستديرتين، تترددان كثيرًا بين جبهة عريضة محدبة وأنف دقيق، كأنه برعم كروي صغير وأبيض، من دون حاجز داخلي تقريبًا، نتوء لحمي وحيد يبرز من فوق الشفتين الرقيقتين، كل ذلك محاط بوجه دقيق أبيض يرسم دائرة من منبت الشعر في أعلى الجبهة المقوسة، مشكلًا الخط الخارجي للخدين المطعَّمين باللون الوردي، ومنتهيًا عند الذقن الناعم الذي يكاد يكون غير موجود. كان من الصعب ألا يحبها المرء في التو واللحظة، كحبه لأرنب صغير مثلًا، وهو يعرف أن وجوده الدافئ المتوتر ستسبب لنا دوافعه، التي تختلف تمامًا عن دوافعنا التي لا يُعتد بها، مشكلات أكثر من البهجة التي تصيبنا بمجرد أن نتبناه. بدا أنني أحسست، عندما تلاقت أعيننا، بشرارات عابرة من السخرية في عينيها، هذا النوع المستتر من السخرية التي، في وجود أطراف ثالثة، يوجهها إلينا بعض الأشخاص الذين يعتقدون أنهم يشاركوننا وجهة نظرنا نفسها حول الأشياء وهي في الواقع بحث، غالبًا بلا أمل، عن التواطؤ. لم تتأخر الراهبة الأم في ملاحظة الأمر، وبدافع قلقها على أخلاق تلميذتها أكثر منه على صحتها، اقتربت من الأخت تيريسيتا ولفت ظهرها بذراع يخفيها الكُم الواسع للرداء الكنسي، كيلا ينكشف لعالَم الخطايا والفسق ذاك شيء سوى يد بيضاء وباهتة بعض الشيء وضعتها بغير عنف لكن بحزم على الكتف اليسرى. ثمة تفصيلة استرعت انتباهي بصورة شبه فورية، على الرغم من أن التعامل المتكرر مع الجنون قد جعلني أعتاد هذا النوع من التناقضات، وهي التعارض الذي أمكن ملاحظته في الراهبة الصغيرة، بين الانتهاكات الفظيعة التي تعرضت لها طيلة أشهر، والمزاج

الرائق والهيئة الصحية والطاقة الحازمة التي تنبعث منها. عندما شرعت في استجوابها بأكثر طريقة ودية ممكنة، أدركت أنها، بينما تتصرف بأسلوب طفولي ومطيع، تتكور على صدر الراهبة الأم لتحثها على الإجابة عن أسئلتي بدلًا منها، وتلقي عليَّ بين الحين والآخر نظرات جانبية، بين استفزازية وساخرة. ولأن إجابات الراهبة الأم لم تضف أي جديد إلى ما أبلغتني به عند استقبالي، فقد فضلتُ إرجاء المقابلة للأيام اللاحقة، ملقيًا نظرة سريعة لبضع ثوانٍ على الغرفة للتحقق من أن نظامًا دقيقًا يسودها: السرير مرتب دون تجعيدة واحدة، وعند أسفله نوع من غطاء أسود مفروش بعناية، وهناك أيضًا طاولة عليها شمعدان ثلاثي لم تسقط منه قطرة شمع واحدة خارج قاعدته، وكتابان من الحجم نفسه موضوعان فوق أحدهما الآخر. ومحبرة معدنية منحوتة معها ريشتان أو ثلاث ترقد عند النتوء الأفقي لقاعدتها، وكومة صغيرة مستطيلة الشكل من الأوراق البيضاء المصفوفة جيدًا دون بروز أي منها، وكرسي من الخشب الخام، مقعده المصنوع من القش موضوع تحت الطاولة. حتى وسادة الكرسي المصنوعة من الخوص التي نهضت الفتاة من فوقها حين رأتنا ندخل، لم يبد عليها أي تجعيدة ولا تجويف، كأن جسد الفتاة الصغيرة الذي كان جالسًا عليه قبل لحظاتٍ عديم الجاذبية والمادة.

عندما أبديت رغبتي في المغادرة، معلنًا أنني سآتي بعد بضعة أيام لإنهاء استعدادات الرحيل، أزالت الراهبة الأم، ربما بارتياح، ذراعها عن كتفَي الأخت تيريسيتا واقتربت مني بنية مرافقتي إلى باب الشارع. لم تتحرك الراهبة الصغيرة من مكانها، لكنها تخلت عن حالة المسكنة الذي تقمصتها قبل لحظة، ووقفت منتصبة في شعاع ضوء الشمس القادم من النافذة فبدت فجأةً أكبر وأقوى.

صدر من الغرفة صوت لم أتمكن من تحديد كنهه في البداية، حتى أدركت أن الراهبة الصغيرة، بينما تضغط أسنانها وتنفخ

خديها قليلًا، تتصرف بطريقة خليعة، وظللت أتساءل عن السبب. ظهر على وجهها تعبير نشوة مبالغ فيه، إذ أغمضت عينيها قليلًا مرة أخرى، وبينما تميل إلى الأمام وإلى الخلف، ظلت تهز رأسها ببطء ونشوة، وأخذت يداها تأتي بحركات بطيئة وغريبة. ذكَّرني كل هذا النشاط المفاجئ، ببعض الرقصات الجماعية التي رأيت العبيد الأفارقة يؤدونها أحيانًا في ميناء بوينوس آيريس، واستغرقني الأمر بضع ثوانٍ لأدرك أن الإحساس بالغرابة الذي سببته حركات الراهبة، الشبيهة بالرقص إلى حد ما، كان مرده أنها، تؤديها في صمت تام. أصبح اللون الوردي في خديها أكثر اضطرامًا، وبسبب الجهد الذي بذلته في إفراز اللعاب، انتشر في جميع أنحاء وجهها، ولكن عندما التفتُّ إلى الراهبة الأم، التي تخلت عن كل تحفظاتها تجاهي ونظرت إليَّ بعجز وتوسل، كان من السهل عليَّ التأكد من أن الاحمرار، الناتج ربما عن الخجل والارتباك في حالتها، قد غزا وجهها هي الأخرى.

على أية حال، كانت فورة الأخت تيريسيتا مفيدة جدًّا لي، لأنها سمحت لي بإظهار هدوء كبير للراهبة الأم، لم أمتنع عن المبالغة فيه، لأُظهر لها إلى أي مدى يبدو سلوك الراهبة، في نظر العلم، أمرًا شائعًا. عندما رأيت أن الأخت الصغيرة، على الرغم من انتشائها المزعوم، تراقبنا خلسةً من حين إلى آخر لترى تأثير طريقة تصرفها فينا، شرعتُ في الضحك، الأمر الذي أربك الراهبة الأم لكن ليس الراهبة الصغيرة التي تخلت عن تصرفاتها الغريبة وبعدما تأملتنا للحظات، برضا ومرح، تقدمت نحونا.

لقد مرت ثلاثون عامًا على ذلك الصباح، لكنني إلى اليوم ما زلت أرى بوضوح في ذاكرتي طريقتها الغريبة في التحرك، وهي تتقوس بصورة غير محسوسة وتميل بجذعها إلى الأمام وبردفيها إلى الخلف قليلًا، وذراعاها معقودتان ومرفقاها إلى الخارج، ويداها تتشابكان بشكل إيقاعي على مستوى سرتها، بينما تتهادى قليلًا وتتخذ طابعًا رجوليًّا لفتى صغير، بسبب

حركاتها وتعبيرات وجهها ورشاقتها، على الرغم من الهشاشة البادية على قوالبها. وقفت بوقاحة على بعد متر منا، وحركت سبابة يدها اليسرى المحنية إلى الداخل لتخبرني بأن أقترب، محاولةً إقناعي بحزم لطيف، كمن يتحدث بصبر إلى طفل لا يبدو مستعدًّا للطاعة، وقالت لي: «تعال أمتعك».

ندت عن الراهبة الأم صرخة بين الرعب والمبالغة، وعلى الرغم من حتمية أنها حضرت مشاهد مماثلة مرات عديدة من قبل، اندفعت خارج الغرفة، لكنني شهدت مواقف أشد سوءًا مع المجانين، وعليّ الاعتراف بوجود شيء مضحك في التناقض بين بذاءة الراهبة الصغيرة والعفة المفرطة للراهبة الأم، العاجزة عن رؤية الأشياء من زاوية طبية بحيث إنني، دون أن أرتبك قيد أُنملة، محاولًا ألا أبدو مصدومًا على الإطلاق، واجهت الراهبة الصغيرة بأفضل ابتساماتي، وأوضحت لها أنني لم آتِ من أجل ذلك، بل لأعتني بها بصفتي طبيبًا، ولأننا سنعيش معًا من الآن فصاعدًا، فالأفضل أن تبقى علاقتنا جيدة. أخذت تضحك وهي تُخرج لسانها مجددًا، وبعدما نقرت عليه قليلًا بإصبعها، قالت لي بعدما أخفته داخل فمها: «إذن لا...؟».

وعدتها بالمرور لرؤيتها في الأسبوع نفسه وخرجت من الغرفة. وبينما تغلق الراهبة الأم الباب بالمفتاح، ذهبت الأخت تيريسيتا لتقف عند النافذة، خلف القضبان، وبنبرة مرحة ولعوب، كأن الأمر يتعلق بسر يتشاركه ثلاثتنا، شرعت تتلو بصوت خافت سلسلة مرعبة من البذاءات تصف أفعالًا شهوانية يُفترض أنني والراهبة الأم مستعدان لارتكابها، وقد استُبعدتْ منها دون وجه حق. حين وصلنا إلى غرفتها، وجدت عينَي الراهبة الأم ممتلئتين بالدموع، فأشفقت عليها وحاولت مواساتها بأن شرحت لها أنه لا ينبغي الحكم على الخبل من منطلق الأخلاق، ولا النظر إليه من خلال قنوات تفكيرنا المعتادة. بعد لحظة بدا الهدوء على الراهبة الأم، وحين ودعتها لاحظت أن معاملتها لي تغيرت وأوحت بأنها تخلت عن ارتيابها. على الرغم من ذلك، عندما افترقنا،

ظل يراودني الشعور الكريه بأن الراهبة الأم لم تخبرني بالحقيقة الكاملة عن الراهبة الصغيرة.

ستؤكد لي شهادة غير متوقعة ذلك الأمر بعد بضعة أيام. بعدما عرف الدكتور لوبيث بوجودي في المدينة، وهو طبيب محلي وصديق لعائلة بارًا، دعاني لزيارته من باب المجاملة طبعًا، ولكن أيضًا ليناقش معي بعض القضايا المهمة المتعلقة بالممارسة الصحيحة لمهنتنا، ولكي يأخذ المشورة في بعض الحالات الصعبة التي يعالجها منذ مدةٍ في المستشفى. إن هذا المستشفى، الذي كان تابعًا لليسوعيين وأعيد إليهم، إن كانت معلوماتي دقيقة، منذ عودتهم إلى أمريكا، وقع في تلك السنوات تحت مسؤولية الفرنسيسكان الذين، إذا جاز التعبير، ضموه إلى الدير المجاور. إذا كان هناك ما يمكن أن يعطي فكرة عن الفقر العام السائد في تلك المدينة، الذي لم يسلم منه سوى عدد قليل من العائلات، فهو أن مجلس البلدية والمستشفى والسجن شغلت جميعها المبنى نفسه، قطعة السجق الطويلة، كما اعتادت السخرية الاصطلاحية المحلية أن تطلق على أي بناء تصميمه، سواء أكان موازيًا للشارع أو عموديًّا عليه، يمتد في صف لا نهائي من الغرف، أو صفين يفصل بينهما فناء ويتحدان من الأمام عند الجسد الرئيسي للمبنى. في هذا المبنى، الذي صُمم آنذاك على شكل حرف U مستقيم، احتلت الواجهة، التي شغلتها الحكومة والإدارة ومفرزة شرطة صغيرة، مربعًا كاملًا يطل على الميدان الرئيسي، أما الجناحان الممتدان داخله باتجاه النهر، فقد ضم أحدهما المستشفى والآخر، الذي كان بمنزلة انعكاسه الأكثر قتامةً على الجانب الآخر من الفناء، احتوى على السجن والجمرك.

بمجرد أن انتهينا من فحص الحالتين أو الثلاث الشائكة التي تطلبت استشارة، من بين قرابة خمسة عشر مريضًا لم تواجهنا مشكلات معهم إذ اتضح منذ الوهلة الأولى أنه لا علاج لهم بأي حال من الأحوال، نظر حوله،

وهو رجل يكبرني سنًّا وأبهرني بجلاء خبرته ونفاذ بصيرته، كأنما يخشى ارتكاب حماقة، ثم أخبرني بأن هناك حالة أخرى يريد أن يعرضها عليَّ، لكننا سنفحصها في غرفة مجاورة للردهة المشتركة، حيث تقع عيادته. بعد أن قال ذلك، أومأ إلى ممرض لاحظت أنه، خلال زيارتنا للردهة المشتركة، يحوم حولنا بإصرار. خرج الممرض من العيادة على الفور، ورأيته عبر النافذة يعبر الفناء بسرعة باتجاه السجن. بمجرد وصولنا إلى عيادته، شرح لي زميلي أسباب كل هذا الغموض: بما أن الجميع يعرفون أنني أتيت إلى المدينة بحثًا عن الأخت تيريسيتا لإدخالها إلى (الأسناط الثلاثة)، توسل الممرض، وهو ابن عم مغتصِب الراهبة المزعوم، إلى الطبيب للاستماع إلى النسخة التي قدمها بستاني الدير عن الأحداث، التي تختلف تمامًا عن تلك التي نشرتها السلطات الكنسية. وحدها تلك الروايات المتناقضة هي ما أدى إلى تأجيل إعدام البستاني رميًا بالرصاص، لكن من دافعوا عنه لم يتمكنوا من إبعاد هذا التهديد عنه بشكل نهائي. كان الدكتور لوبيث مقتنعًا بأن البستاني يقول الحقيقة، ولديه ثقة عمياء في ابن عمه الذي شغل وظيفة مساعده الرئيسي لسنوات. سانده جزء صغير من رجال الدين، وبخاصة من بين الفرنسيسكان، لكن الكنيسة رفضت الاعتراف بأن سلوك الراهبة نتيجة لما يسمى بأسباب طبيعية رغم كونها بلا تفسير، إذ إن فرضية المس الشيطاني قد رُفضت، وفضَّلت الارتكان إلى تجريم البستاني، ربما بهدف تفسير الأحداث بخطيئة شخص من خارج الكنيسة. أخبرني الطبيب أن البستاني اعترف بإقامة علاقات جسدية مع الراهبة، لكنه أنكر بأشد الطرق انفعالًا، لكيلا أقول برعب، أنه اغتصبها، بل أصر على أنه إن كان قد وجد نفسه في ظروف يمكن اعتبارها تدنيسًا للمقدسات، فقد حدث ذلك بطريقة غير متوقعة وضد رغبته.

بعد دقائق قليلة، تمكنت من سماع تلك الرواية للأحداث، بمزيد من التفاصيل، من فم البستاني نفسه. على الرغم من الأشهر التي قضاها في

السجن، فقد بدا بمظهر رجل قوي وبدت أخلاقه كأخلاق شخص شريف، ولا بد أنه كان أصغر سنًّا مما بدا عليه بسبب حالة الإنهاك الناتجة عن الوضع. وجدت روايته معقولة إلى حد كبير، لا سيما في وصفه لتصرفات الراهبة الصغيرة، لأنها تطابقت مع العديد من الحالات المماثلة التي عالجناها مع الدكتور فايس، ولم يكن بمقدور البستاني أن يخترع بنفسه تفاصيل معينة تميز هذا النوع من الاختلال العقلي. لكي أنقل كلماته سأكون مضطرًّا، كما أعتقد أنني نبهت أعلاه، إلى استعمال بعض المصطلحات والتعبيرات التي قد تبدو فظة للغاية على بعض الآذان التي، من دون تساهل كبير مع نفسها، تعتبر نفسها محترمة، لكن ينبغي الوضع في الاعتبار أن مفردات الأشخاص الذين يعانون أمراض الروح وسلوكهم، تختلف تمامًا عنها عند الأصحاء. (يبدو لي استخدام اللاتينية، المناسب لأطروحة علمية، غير مناسب في حالة هذه المذكرات الشخصية، الموجهة إلى القراء المفترضين الذين لا أستطيع أن أستبق الحكم عليهم بخصوص كونهم رجال علم أم لا، وهي تفصيلة ثانوية من ناحية أخرى فيما يتعلق بالمخطوط الحالي. لكن كتفكير أعم: ما هو الغرض من كتابة أسماء معينة من الجسم وتصرفات معينة باللغة اللاتينية بينما، بغض النظر ليس عن اللاتينية وحدها ولكن عن كل اللغات، يستعملها ويمارسها بشر وحيوانات يوميًّا؟).

قدم البستاني، منذ بداية روايته، عدة أدلة على صدقه، باعترافه على سبيل المثال بعلاقاته الجسدية مع الأخت تيريسيتا وكذلك بحديثه عن الراهبة دائمًا دون أدنى ضغينة، كأنه على الرغم من كل ما حدث ومن الوضع الحرج الذي وجد نفسه فيه، قد ظل يكنُّ لها مشاعر تعاطف حارَّة. في نظر البستاني، كانت الراهبة الأم هي من رفضت أن ترى الأحداث كما وقعت أمامها. وثمة تفصيلة أخرى مهمة تبدو مؤكِّدةً لصدق البستاني، وهي التبرير الذي قدمه لتصرفاته: وفقًا له، استغرقه الأمر وقتًا طويلًا حتى أدرك أن الراهبة الصغيرة

تتصرف بغرابة، وأن الأشياء التي تقولها أو تفعلها، وإن نسبَها في البداية إلى شَبَقٍ مبالغ فيه، كان ينبغي أن تُنسب في الواقع إلى الجنون. أكد البستاني أنه أحسَّ طوال الوقت بوقوعه تحت تأثير الراهبة الصغيرة، بل وشعر أحيانًا بأنها تُخضعه لنوع من الاغتصاب. إن ذلك العجز عن التعرف على الجنون ليس بأمر قليل الشيوع بأي حال من الأحوال، بل إنني أجرؤ على قول إنه بالأحرى هو القاعدة، وإنه ليس ظاهرة تتعلق بأفراد منعزلين بل بأمم كاملة، كما أثبت التاريخ مرارًا وتكرارًا، تقع تحت تأثير مماثل لذلك الذي أورده البستاني، حتى سمحت لنفسها بالانجراف إلى الهاوية نتيجةً لقدرة المنطق الغريبة على الإقناع، التي تبدو خالية من عيوب الهذيان، حتى لو كان المنطق في حد ذاته عيبًا.

قال البستاني إنه يعمل في الدير منذ أشهر قليلة ولم يلاحظ حتى على الراهبة الصغيرة التي، باستثناء شبابها، لا تملك أي جاذبية خاصة، وأن الأمور كانت ستستمر بلا شك على هذا النحو لولا أن نظراتها الملحة، التي طالما أصبحت شديدة الإيحاء في وجودهما بمفردهما، وفقًا لما أخبرنا به البستاني بلغة أكثر بذاءة بقليل من تلك التي أستخدمها بعد ثلاثين عامًا لكتابته، قد جذبت انتباهه عن طريق إثارة فضوله في البداية إلى حدٍّ كافٍ، دون أن يفكر على الإطلاق فيما سيحدث بعد ذلك بقليل، لكنها جذبته لاحقًا نحو ذاك الاتجاه. عندما أسرَّ ببعض الأمور لابن العم الذي يعمل في المستشفى، وهو ما أكده على الفور ابن العم الحاضر، أخبره ابن العم بالقليل الذي يعرفه عن الأخت تيريسيتا، وهو أنه من بين المهام الرئيسية لـ(خادمات القربان المقدس) رعاية النساء اللاتي امتهنَّ حياة السوء، وأن بعض الناس يتهامسون في المدينة التي، كما هو الحال في جميع المدن الصغيرة، إن لم يُعرف فيها كل شيء يُعتَقد أن كل شيء معروف، أن الأخت الصغيرة، جراء أُلفتها المفرطة مع النساء الممتهنات حياة السوء، وبسبب بعض المغالاة في لغتها

وتصرفاتها، كان لديها ميل إلى تجاوز حدود ممارسة مهمتها. لكن الجميع رأوا فيها ممارسة أصيلة للعمل الخيري، وحظيت بشعبية كبيرة بين الفقراء، خاصةً أولئك الذين سلموا أنفسهم لحياة السوء، ليس فقط المومسات اللاتي زاولن تجارتهن في أكواخ الضواحي أو رافقن الجنود في حملاتهم، بل كذلك الهاربون وسارقو الماشية واللصوص والمتشردون والقتلة. أكد بعض الناس أنهم رأوها تدخن لفافة، بينما تجلس عند باب كوخ وهي تتحدث وتضحك مع مومسين أو ثلاث. قال آخرون إنها لا ترفض تناول مشروب إذا فكر أحد في دعوتها، بل هناك اثنان أو ثلاثة زعموا أنهم رأوها ذات مرة، وقد شمرت كُمَّي الرداء الكنسي، وهي تلعب الكِعاب مع بعض أفراد الجاوتشو والجنود في فناء حانة. لكنها لم تكن سوى مجرد شائعات. ومن بين كل من تداولها لم يوجد شخص واحد، إذا ما تعرض للضغط، يمكنه أن يؤكد أنه شهد ما يحكيه. قال البستاني إن الراهبة الصغيرة عاملته بلطف فقط في البداية، ولكن في أحد الأيام، حين دخل المصلّى على حين غفلة، رآها تتسلق المذبح ثم تمرر يدها على قماشة المسيح المصلوب. عندما رأى المشهد، في ظلام المصلّى الذي دخله وهو لا يزال متأثرًا بوهج الضوء الخارجي، ظن أن الراهبة الصغيرة تنظف التمثال، لكنه بعد ذلك رآها تشب على أطراف أصابعها فوق الكرسي الذي اعتلته لبلوغ الارتفاع الذي تريده بشكل أفضل، ثم شرعت الراهبة الصغيرة تلعق القماشة عند الموضع نفسه الذي مرَّرت عليه يدها للتو. ومن دون قصد أصدر البستاني ضوضاء قصيرة دفعتها إلى الاستدارة وإمعان النظر في الظلام قليلًا حتى اكتشفته في نهاية المصلّى. قال البستاني إنه توقع أن تشعر الراهبة الصغيرة، التي بدت عليها المفاجأة، بالإحراج أو الغضب من الدخيل الذي يتجسس عليها، لكنها لدهشته ابتسمت له دون أن تُظهر أدنى أمارات الارتباك، وبينما تعتلي الكرسي على الحال نفسها، أومأت إليه بالاقتراب، الأمر الذي، حين قصَّه عليَّ البستاني، ذكَّرني بالسبابة

المنكمشة والابتسامة الملآنة بالإيحاءات التي، قبل بضعة أيام، حرضتني بها الأخت الصغيرة على اتخاذ بعض الخطوات نحوها.

بالصدق المتسرع الملآن بالتفاصيل الإثباتية لشخص يلعب ورقته الأخيرة وهو يترافع عن نفسه، حكى لنا البستاني، مدعومًا بإيماءات الرأس المؤيدة والمتكررة من ابن عمه والدكتور لوبيث، عن علاقاته مع الأخت تيريسيتا، التي بدأت بعد خمس دقائق من اللقاء الأول، على أرضية المصلَّى نفسها، أسفل المذبح. وفقًا للبستاني، فقد قاوم للوهلة الأولى، تحديدًا بسبب المكان الموجودَين فيه، لكن الراهبة الصغيرة أقنعته بإخباره أنه ما من موضع في الإنجيل ولا في عقائد الكنيسة به نصٌّ يدين الفعل الذي يوشكان على ممارسته، ولا سيما في المكان الذي يتأهبان لممارسته فيه، الأمر الذي قد يكون صحيحًا، لكن يجدر القول إنه حتى آباء الكنيسة الأكثر تشددًا، الذين لا تفوتهم أقل ظروف الخطيئة احتمالًا، سيبدو لهم الأمر غنيًّا عن الإدانة. علاوة على ذلك: وفقًا للراهبة الصغيرة، فقد أمرها المسيح غير مرة بإتمام الاتحاد الجسدي مع المخلوق البشري، والاتحاد الإلهي مع الروح القدس، لكي يتحقق بهذه الكيفية الاتحاد الكامل مع الرب، لأنه بعد القيامة والصعود إلى ملكوت السماوات، انفصل الجوهر الإلهي عن الجانب البشري للمسيح مرة أخرى بعدما كانا متحدين في (التناسخ)، وبينما استقر الأول عن يمين الرب، تناثر الأخير بين البشر.

الواضح أن البستاني لم يكن ليقدر على التعبير عما سبق بمثل هذه المصطلحات، لذا يجب أن أوضح أنني، لكتابة هذه التفاصيل، أعتمد على كتابات الأخت تيريسيتا نفسها، وهي لفافة من الأوراق مربوطة بشريط سماوي عهدت به الراهبة سرًّا إلى البستاني عندما انكشفت الفضيحة وسلمه البستاني، الذي لا يجيد القراءة، إلى ابن عمه الممرض، الذي أودعه أخيرًا في عيادة الدكتور لوبيث. سجل مخطوط الراهبة، الذي حمل عنوان (دليل الحب)،

فترة من الهذيان الصوفي بكثير من التفاصيل، سبقت الوقائع التي سردها لنا البستاني ببضعة أشهر، وهو مزيج من النثر والشعر تصف فيه الأخت تيريسيتا الشغف المتبادل الذي عاشته هي ويسوع المسيح منذ ظهوره لها للمرة الأولى في (بيرو العليا)[1]. جدير بالذكر أن المرضى العقليين، حين يكونون على قدر من التعليم، غالبًا ما يميلون بصورة لا تقاوم إلى التعبير عن أنفسهم كتابيًّا، لمحاولة ضبط هذيانهم في قالب أطروحة فلسفية أو قطعة أدبية. سيكون من الخطأ الاستخفاف بها، لأن هذه الكتابات قد تصبح مصدرًا لا يقدر بثمن من البيانات المهمة لرجل العلم، الذي تتيح له الكلمة المكتوبة، بعيدًا عن وقتية الهذيان الشفهي والأفعال الخاطفة، سلسلةً من الأفكار المشرَّحة، تشبه الحشرات المثبتة بدبوس أو مجموعة النباتات المجففة في معشبة ويصبُّ عالم الطبيعة اهتمامه عليها. لهذا السبب، لم يكن هناك شيء أكثر طبيعية في نظر زميلي من أن يعهد إليَّ نهائيًّا بكتابات الأخت تيريسيتا. (إن أخذ مسألة التصوف في الاعتبار، حتى لو انطلقنا من فرضية عدم وجود الدافع المحرك لها، يبرر في كل الأحوال دراستها، لأنه على الرغم من أن الدافع خيالي، فإن الحالة التي تؤدي إلى الاعتقاد بحقيقته هي بلا شك حالة حقيقية. في مسألة الخوف من الأشباح مثلًا، الأشباح بالطبع غير موجودة، لكن الخوف حقيقي جدًّا ويستحق دراسة متأنية، تمامًا مثل الظواهر البصرية أو مواقع النجوم).

باختصار، إن عقيدة (دليل الحب) نوع من الثنائية، تقوم على الفصل بين الإلهي والإنساني بعد قيامة المسيح، وعلى الإيمان بأن الحب، الذي يشترك العنصران في بناء جوهره، هو القوة الوحيدة القادرة على خلق تواصل بينهما وتحقيق الوحدة من جديد. زعمت الأخت تيريسيتا أن عقيدتها كُشفت لها

(1) التسمية الأصلية لمنطقة غرب بوليڤيا حاليًّا. (المترجم).

من قِبل المسيح نفسه في بيرو العليا، وكيف أن محاولاتها للاتحاد الجسدي مع (المصلوب) قد أعيقت بسبب الانفصال الميتافيزيقي بين العالمين، بينما تمارس الحب الجسدي مع أكبر قدر ممكن من البشر، ولأن الحب يشترك في الجوهر المزدوج، أمكن تحقيق الوحدة. إن كل إنسان مارس الحب، الروحي والجسدي، كان في أثناء هذا الفعل إعادة تجسيد للمسيح. إحقاقًا للحق، الجزء الأول بأكمله من (الدليل) لا يختلف كثيرًا، أو لا يختلف على الإطلاق، عن غالبية الكتابات الصوفية المسيحية، بل ربما أقول إن الأخت تيريسيتا تبالغ في تقليدها، وهو ما يفسر أسلوبها العتيق نوعًا ما، ولكن مع التقدم في القراءة يتكون انطباع مؤلم بأن مؤلفة الأطروحة تتوقف أكثر من اللازم لشرح أوجه التشابه بين الحب الروحي والحب الجسدي، لا لشيء إلا للتلذذ بوصف الحب الجسدي بجميع صوره، وفي النهاية، في الصفحات الأخيرة (النص غير مكتمل)، يزداد تفكك الأفكار ووقاحة الأوصاف، وتصير الجمل مجرد قوائم متكررة من المفردات البذيئة. بالطبع ليست التأملات اللاهوتية للأخت تيريسيتا هي ما وضعَها بين يدي الدكتور ڤايس، إذ إن الخرافة الرسمية تنشر يوميًّا سفسطات أكثر سخافة، بل هي المفردات الشهوانية المتقنة في الجزء الأخير، والترجمة الجامحة للاهوتها إلى أفعال. بعد أشهر قليلة من دخولها (دار الصحة)، بدأ تطور غريب ينشأ لدى الأخت تيريسيتا، دفعها إلى التصرف بشكل مخالف تمامًا لما كان قبل دخولها المستشفى: تحول ولعها بالمسيح شيئًا فشيئًا إلى كراهية مفرطة، ولم تستطع أن ترى صليبًا أو تمثالًا له دون أن تدخل في نوبة سعار تدفعها إلى إغراقه بالشتائم وسحقه حتى يتهشم. وفي الوقت نفسه، أخذ ميلها المحموم نحو الفحش والزنا وما إلى ذلك يتحول إلى رفض عنيف، وطاقتها المرحة، التي جذبت انتباهي منذ رأيتها أول مرة، إلى نوع من السلبية البهائمية التي زادت بسبب شراهة مَرَضية سيطرت عليها. بعد ثلاث سنوات قررت الكنيسة، التي انتظمت في إرسال زوار إلى (الدار) لمتابعة تطور مرضها، أنها قد شفيت، وكان المخلوق الذي سحبوه

لإعادته إلى إسبانيا عبارة عن كرة من اللحم مغطاة بالرداء الكنسي الأسود، امرأة في سن غير محددة، صامتة، تتحرك ببطء ورعونة البقرة، بعينين زائغتين وباهتتين، وما من دليل خارجي على الحياة فيها سوى الوجنتين الحمراوين، الناعمتين النضرتين، في وجه مستدير من شدة انتفاخه يبدو موشكًا على الانفجار.

لكن ترتيب قصتي قد اختل. تثبت قضية البستاني بوضوح أمرًا لوحظ كثيرًا: لا شيء قد يصبح معديًا أكثر من الهذيان. من قصة ذلك الرجل البسيط، المرتبك من الوضع الذي وجد نفسه فيه أكثر من كونه مرعوبًا، يمكن أن نستنتج دون بذل الكثير من الجهد أنه إذا كان قد انجر بسلبية غير مفهومة إلى منحدر الفجور وتدنيس المقدسات ذلك، فمرد الأمر إلى سذاجته أكثر منه إلى طبيعته الشهوانية. لقد آمن أجوستين -وهو اسم البستاني- إيمانًا صادقًا بالضرورة الدينية لأفعاله، مبهورًا بالحجج اللاهوتية والحماس الصوفي، واللطف التواصلي للأخت تيريسيتا كما استطعت التأكد مرات عديدة، ولعدة أشهر رضخ لجميع النزوات الشهوانية للراهبة الصغيرة. إذا أُخذ في الاعتبار أنهما مارسا الفعل الأول عند أسفل المذبح، ووفقًا للبستاني اعتادت الأخت الصغيرة أن تتحدث مع المسيح من فوق كتفه بينما يمارسانه، فمن السهل الافتراض أن ما جاء لاحقًا، بدءًا من ذلك التدنيس الأول، ليس إلا مزيدًا أكثر جموحًا وجنونًا. وبقدر ما قد يبدو الأمر غريبًا، حتى في اللحظة التي كان فيها أجوستين يفصِّل لنا تلك الانحرافات المذهلة التي كانت تسوقه إلى فرقة الإعدام، فقد أوحى بأنه لا يزال يؤمن بالقيمة الدينية لجميع أفعاله، ولم يبد مشككًا في الإخلاص ولا في الضرورة التي دفعت الأخت تيريسيتا إلى حثه على ارتكابها. بدت هي الأخرى محتفظةً بمحبة خاصة تجاه البستاني حتى غادرت (دار الصحة) ورحلت إلى إسبانيا، وكلما ذكرته فعلتها باحترام ودود. خلال الرحلة إلى (دار الصحة)، أخبرتني الأخت الصغيرة ذات يوم وهي

تخفض صوتها وتتحدث بنبرة سرية، أنهم سجنوا أجوستين ويريدون إعدامه لأنه «امتلك واحدًا كبيرًا بهذا الحجم»، وأتبعت مقولتها بحركة بذيئة. الواضح أنه بعد تلك المعاملة الحميمية التي امتدت لأشهر، صار كل منهما مقتنعًا ببراءة الآخر، وحاولا إقناع الآخرين بذلك. كان البستاني، بحجته التفصيلية، يدافع عن نفسه وعن الأخت تيريسيتا في آن واحد، وإذا بدا أن للراهبة الصغيرة يقينًا لا يتزعزع بخصوص المصدر الذي تنبثق منه شرعية مهمتها، ما يعفيها من الاعتذار أو على الأقل تفسير سلوكها، ويجعلها تتحلى بلا مبالاة تامة بل وبشبقٍ مرح أمام متهِميها، ففي كل واحدة من إيماءاتها وكلماتها أظهرت ثقتها الواضحة بأجوستين، الذي تحدثت عنه دائمًا ليس باعتباره عشيقًا بل بالأحرى صديقًا، الأمر الذي ربما زاد من تعرض البستاني لعداء متهِميه، لكنه بالنسبة إلى أي ملاحظ محايد يلقي بشعاع جديد من الضوء على علاقتهما. بعد ممارسة مهنتي في العديد من مستشفيات أوروبا، أصبح تعاملي مع الراهبات وأعضاء الكنسية أكثر من معتاد، وإذا وجدت بينهم في كثير من الأحيان أشخاصًا متفانين وأذكياء وخدومين وحسني النية، فعليَّ أن أقول هنا إنني إن اضطررت إلى إيجاد سمة مشتركة بينهم جميعًا، فتلك السمة هي الغياب الواضح لأي عنصر ديني في طريقة تفكيرهم وتصرفهم، وهو ما سهَّل بدوره علاقاتنا كثيرًا. كان هؤلاء الأشخاص الرحماء والفاعلون والعقلاء، بفضل البنية المتينة التي منحتهم إياها الطبيعة، بمنأى عن كل ما تحمله المشاعر والأفكار الدينية من تخريب وتدمير، وعلينا -بدلًا من الشعور بالأسف- أن نمتن لكون الطابع الديني ظاهرة بالغة الندرة. فمثلما يمتلئ العالم بالشعراء الجيدين والسيئين، والمفكرين السطحيين وأصحاب القضايا، والعلماء غير المؤثرين، والأنبياء الكذابين، والرجال الربانيين المزعومين، فقد عرف أيضًا كيف يبخل بالمتدينين الحقيقيين، وعليَّ الاعتراف بأن المتدين الحقيقي الوحيد الذي عرفته في حياتي، في رأيي، هو الأخت تيريسيتا، وكانت كذلك لفترة محدودة فحسب، لأنها عندما غادرت (دار الصحة) وهي باهتة

وسمينة، بأنفها الأحمر الصغير الشبيه بزرٍّ ضائع بين خديها القرمزيين، لم تكن كذلك. شعرت بحب حاد وصادق تجاه المسيح، ومحاولة تخمين ما إذا أظهرته بصورة مناسبة لا جدوى منها، لأنه في رأيي إذا كانت هذه الدرجة الرفيعة من العبادة موجودة حقًّا، على الرغم من أنني أفضّل أن أضع الصدفةَ على عرشه المزعوم، فسيكون من الصعب تحديد الطريقة المناسبة لتبجيله من بين الطرق العديدة التي تخيلها المؤمنون به.

إن القصة التي رواها لنا البستاني في عيادة الدكتور لوبيث أعلنت، خاتمةً لها، عن الكارثة التي لم يتأخر وقوعها: في أحد الأيام ضُبطا متلبسين بجريمة تدنيس المقدسات على أرضية المصلّى، أمام المذبح، بحيث انتهت المغامرة عندما اتخذت المحكمة الكنسية إجراءً بصدد المسألة، في المكان نفسه الذي بدأت فيه. وبعد مداولات كثيرة وأمام إصرار الأخت تيريسيتا على التأكيد أن جميع الأفعال المرتكبة وقعت بأمر من المسيح نفسه في بيرو العليا من أجل إعادة تأسيس وحدة الحب الإلهي والحب البشري اللذين انفصلا بعد القيامة، قررت السلطات الدينية أن الأخت تيريسيتا فقدت عقلها نتيجة لعمليات الاغتصاب والانتهاكات المتكررة التي تعرضت لها من البستاني، الذي أودعوه السجن حيث ينتظر منذ عدة أشهر القضية التي بكل تأكيد سيُحكم عليه فيها بالإعدام. (بعد مرور بعض الوقت، أبلغتني رسالة من الدكتور لوبيث بأنه قبل أيام قليلة من انعقاد المحاكمة، استطاع البستاني الفرار من السجن، وكغيره من الكثيرين الذين لديهم حسابات، مستحقة أو غير مستحقة، لتسويتها مَع العدالة، اختفى في السهل. تلقيت الخبر بارتياح وسارعت إلى نقله إلى الراهبة الصغيرة التي، كتعليق وحيد، غرزت سبابتها اليمنى الصغيرة عدة مرات في معدتي، كنوع من التهنئة أو العرفان بالجميل، كأنني من دبَّر مسألة هروب أجوستين، وقد وافقتها بهزات بطيئة من رأسي).

كان أحد مشاريعي الشخصية خلال رحلة العمل تلك، إن سمحت أشغالي بذلك، هو العبور يومًا ما إلى (باخادا جراندي) لزيارة الأماكن التي قضيت فيها طفولتي. لم تربطني أي صلة عاطفية بالضفة المقابلة، باستثناء ذكريات سنواتي الأولى التي لا تزال حية، فحين تقاعد والدي من العمل كانت عائلتي قد عادت إلى إسبانيا في العام السابق لتأسيس (الأسناط الثلاثة)، لكن فكرة عبور النهر الكبير ومشاهدة انحدارات الوَهدة الساقطة عموديًّا على المياه المحمرَّة بينما نتحرك في الماء نحو وجهتنا، كما فعلت مرات عديدة مع أبي عندما كنا نبحر بين الجزر، هدَّأت من حماستي سلفًا. لسوء الحظ، السبب الذي أخرني لفترة أطول مما ينبغي في المدينة، بعدما تمادى في تأجيل وقت الفراغ المطلوب لتنفيذ رحلتي، هو نفسه الذي أحبط هذا المشروع: حلَّ الفيضان الشتوي المعتاد لتلك الأنهار التي تتدفق نحو الجنوب، الذي عادةً ما يكون ضخمًا، في ذلك العام بصورة غادرة ووحشية ومفرطة. غادرة لأنه بين ساعة وساعة، وبين دقيقة ودقيقة، لعدة أشهر، كان مستوى مياهه يرتفع ويغطي، تدريجيًّا وبطريقة غير محسوسة، الأراضي الساحلية مبتعدًا عن الشواطئ المعتادة؛ ووحشية لأنه، على الرغم من نموه الخفي، فقد حدث ارتفاع مباغت تجاوز حدود الأراضي المغمورة، هادمًا كل شيء في طريقه، على مساحة شاسعة، وكذلك لأنه بينما يبدِّل الحياة الأصلية للأراضي الجافة في عمومها، ويبالغ في إزاحة الضفاف، قلب موازين عادات وجذور وحياة البشر والحيوانات والنباتات بأكملها، باقتلاعهم العنيف من مكانهم المعتاد وتشتيتهم حتى وضعهم، بمفارقة تاريخية جامحة، في أقل أركان المنطقة توقعًا؛ ومفرطة لأنه، نظرًا إلى هذا النمو الطويل والمستمر، فإن المياه المتعكرة بالتربة الجديدة التي روتها في طريقها، بينما تكتسب لونًا غير محدد قد يكون -وفقًا للمكان- أصفر كبريتيًّا أو بنيًّا محمرًّا أو مُسودًّا تتخلله خيوط خضراء، ظلت تغزو الأراضي غربًا حتى غطت السهل، مهما تحرك فيه الراصد سيرًا على الأقدام أو على صهوة الخيل، على امتداد الأفق المرئي.

أدى الفيضان إلى تأخير المرضى الذين انتظرناهم، القادمين من كوردوبا وباراجواي، وفي الوقت نفسه حبَسنا في المدينة. تعطل كل شيء: البريد وعربات الخيول وعمليات نقل البضائع. أصبحت ساعات المغادرة والوصول وأيامهما، غير المحددة عمومًا، خاضعةً للأهواء، لكيلا أقول غريبة الأطوار. بدأت تقل بعض السلع التي لم تكن تُنتَج في الضواحي، كالسكر والأعشاب والنبيذ على سبيل المثال. لبُعد نظره، كان السيد بارًّا قد جمَّع القليل من كل شيء في غرفة تمثِّل مستودعًا وخزانة طعام، ومفتاحها في حوزة أَمَة مسؤولة عن كل ما يتعلق بشؤون الطعام والطهي. أوضح لي السيد بارًّا أن مسألة وجود كثير من الأشخاص الذين يعتمدون عليه، من أفراد أسرة وموظفين وعبيد، تحتِّم عليه التخطيط المسبق حتى لأتفه التفاصيل تجنبًا للعقبات عند حدوثها. في تلك السنوات، كانت عزلة تلك البلدات، المتناثرة في تلك الصحاري البرية التي لا تنتهي، ويبعد بعضها عن بعض بفراسخ عديدة، تجبر سكانها على توخي الحذر طوال الوقت لمواجهة الأخطار المتنوعة، التي يعرضهم لها في كل لحظة ذلك المكان قليل التمدن. (اليوم، كما أخبرني بعض الأصدقاء، لا تأتي التهديدات من الصحراء ولا يصيبهم الهلع من العناصر الطبيعية المتفجرة، بل من الحكومة).

في ذلك الفراغ القسري لم يبق لديَّ ما يشغلني، بعيدًا عن الالتزامات الحياتية التي كانت بسيطة جدًّا من ناحية أخرى ومن ضمنها الزيارات المنتظمة لمريضيَّ، سوى الملاحظة والتأمل والقراءة. لكي يسمح لي بممارسة هذا النشاط الأخير، أتاح لي السيد بارًّا مكتبته التي، كما أعتقد أنني ذكرت سلفًا، كانت من أكثر المكتبات تنوعًا ووفرة على الرغم من عزلة المدينة، وبالإضافة إلى ذلك، كأن الأمر ليس كافيًا، وتأكيدًا على رقة طباعه،

أهدى إليَّ ستة مجلدات من ترجمة فرنسية لفيرجيل[1]، الشاعر الذي اكتشفنا إعجابنا المشترك به، فامتدت قراءته، كلما سمح لي وقتي، حتى أبصرنا أخيرًا المبنى الأبيض المسطح (للأسناط الثلاثة). إن كل واحدة من تقلبات رحلتنا ترتبط عندي ببيت من شعر فيرجيل، وحتى يومنا هذا ما زالت الأحاسيس القاسية للرحلة والموسيقى الرقيقة والحكيمة للأبيات تتغلغل بالتبادل في ذاكرتي وتختلط في نكهة فريدة من نوعها تنتمي حصريًا إلى كينونتي الشخصية، ولسوف تختفي معي من العالم عندما أختفي. رأيت نفسي أكثر من مرة أعبر السهل كما عبرَ أينياس[2] البحر المعاكس المجهول، واجتاحني تأثر عميق عندما تبينتُ لنفسي، في وسط الصحراء، مصيرًا مشابهًا لمصير بالينوروس، ربَّان السفينة الذي يستسلم لنعاس مباغت فيسقط في البحر ويضيع ليموت «وحيدًا وعاريًا على رمال مجهولة». رأيت أكثر من مرة، بصورة أوضح من الأشياء الكثيفة المحتشدة التي تحيط بي، الكومة الصغيرة المسبقة لعظامي البيضاء تلمع تحت أشعة الشمس في ركنٍ بعيد من السهل. لكن لا تزال الرعوية[3] الرابعة، من بين القصائد القصيرة، هي المفضلة لديَّ حتى اليوم: إن الإعلان عن عصر ذهبي عندما تكذِّب كل هذه الكوارث مجيئه غير المحتمل، لا يعتمد على الإرادة المسلحة للأبطال، بل على ابتسامة الطفل لأمه التي حملته في أحشائها طوال تسعة أشهر ثقال؛ لذلك الاعتراف المبتهج بالحياة، يَعِد الشاعر بمائدة (جوبيتر) وحميمية الإلهة. وليست الرؤية نتيجةً لأمل غير عقلاني: فالعصر الذهبي الجديد لن يكون جائزة ولا غزوًا، بل هبة

(1) أحد أشهر شعراء الرومان الذين عُرفوا في عصور ما قبل الميلاد، واشتهرت كتاباته الشعرية في تلك الملحمة من القصائد الطويلة التي عُرفت بـ (الإنيادة). (المترجم).

(2) في الأساطير اليونانية والرومانية، أينياس هو أحد أبطال طروادة الذين هربوا بعدما استولى الإغريق على المدينة بالحصان الخشبي الشهير. (المترجم).

(3) القصيدة الرعوية هي شعر أو نشيد غنائي في صورة حوار، وهي نوع من الأدب الرعوي الذي يشيد بحياة الريف، التي تتألف منها ملحمة فيرجيل. (المترجم).

قدرية غير مبررة وسوف يتحقق، ليس لأن الرجال فازوا به، ولكن لأن الأقدار يومًا ما، لمحض هواها، ستقول نعم.

من لم يرَ مثلي، في أمسية شتوية ممطرة، إحدى تلك المدن الضائعة في السهل، عندما تبدأ الأنوار الأولى المتذبذبة في الاشتعال، وتندفن كل المرئيات بالتساوي تحت الطبقة المزدوجة من الليل والعراء، ربما يعتقد أنه قد جرب الحزن ذات مرة، لكنه لا يعرفه حق المعرفة. بينما نحن على حالنا محاصرون بالفيضان، تضاعف كذلك سجن العالم الذي عززه ذلك السياج المائي الحديدي. ولولا لطف عائلة بارًا والمحادثات الشائقة مع الدكتور لوبيث ومع السيد بارًا خاصةً، وبصرف النظر عن العبارات المبتذلة والتحيات المبتذلة المتبادلة عند مروري على أهل المدينة الذين اعتدت أن ألتقيهم خلال نزهاتي اليومية، لم تربطني أي عاطفة حقيقية بأي شخص. ازداد ذلك الشعور بالوحدة قوةً عندما تمكنت في الصباحات الصافية، خلف فراسخ الجُزر والمياه التي تفصلني عنها، من تمييز تلال (إنتري ريّوس)، التي لعبت فيها طيلة طفولتي. لكنني افتقدت على نحو خاص صحبة الدكتور ڤايس المفعمة بالحيوية والنشاط، ومحادثات المائدة الطويلة التي تتخللها شرارات عبقريته وسخريته المستمرة؛ لقد كان عائلتي الحقيقية، ليس لأنني تنصلت من أبناء دمي، ولكن لأنني اكتشفت من خلاله قَرابةً جديدة، تلك التي توحد كل أولئك الذين، بينما يختلفون بسمات خاصة عن التماثل الباهت الذي تفرضه روابط الدم أحيانًا، يبحثون خارج تلك الروابط عن صلات جديدة تستوعب وتخصِّب تلك الاختلافات. ويمكنني القول إن البهجتين الشخصيتين اللطيفتين والوحيدتين اللتين عشتهما خلال إقامتي في المدينة، هما رسالتا الدكتور الطويلتان اللتان جلبتهما لي المنعطفات الشاقة لبريد غير منتظم بالمرة. في أولاهما بالتحديد، أوضح لي الدكتور أنه أمكن تنظيم نقل المرضى بطريقة أخرى، دون الحاجة إلى مشاركتي في الرحلة، لكنه فضَّل إرسالي ليبعدني

عن جانبه لمدة من الوقت، لأنني وفقًا للدكتور تقوقعت تحت ظله أكثر من اللازم، وكان يتمنى، من خلال أداء المهمة الصعبة والمحفوفة بالمخاطر التي كلفني بها، أن أتمكن من التحليق بجناحيَّ. عندما قرأت تلك السطور السخية امتلأت فخرًا وفرحًا، وعرفت في النهاية أن المعلم الحقيقي ليس من يريد أن يُقلَّد ويُطاع، بل هو القادر على أن يكلف تلميذه، الذي جهلَ الأمر حتى تلك اللحظة، بالمهمة الصحيحة التي يحتاج إليها التلميذ.

بصرف النظر عن هاتين الرسالتين اللتين لا تزالان ترافقانني حتى اليوم، فالأخبار القليلة التي تمكنت من اختراق المدينة تمتعت بسمة واحدة مشتركة: جميعها سيئة. لم يكن الشمال والغرب، حيث يجب أن يأتي مريضاي أخيرًا، إذا ما أتيا أصلًا، يعانيان سوى ضررين أو ثلاثة، المطر والبرد والفيضان، لكن في الجنوب، أي في الاتجاه الذي علينا أن نسلكه بمجرد استعدادنا، حلَّت مصيبة إضافية: الزعيم خوسيسيتو. مع كل رسول جديد كانت خطايا عصابته، التي لم تخلُ من حفل الكمان الحتمي على الأطلال المدخنة وجثث الشهداء، تُروى لنا بكل تفاصيلها التي لا تُحتمل. لدى سماعه تلك الحكايات، كان أوسونا يقطب جبهته ويمص لفافته بصورة أعمق وأكثر تكرارًا، ويعضها بقوة أكبر من المعتاد. استغرقه الأمر بضعة أيام ليشرح لي، أمام إصراري بالطبع، سبب قلقه: بسبب الفيضان، اختفى خط الاستراحات بأكمله بين باراجواي وبوينوس آيريس، ولم يقتصر الأمر على نهر باراناه فحسب بل فاضت جميع روافده، فغمرت المياه الأراضي الواقعة بينهما ناحية الغرب، وهو ما سيجبرنا على أخذ منعطف طويل في أرض مفتوحة نحو الشمال الغربي قبل أن نتجه جنوبًا، وإلا فعلينا السفر في صحراء قاحلة ما بها من استراحات ولا طرق، حيث يسود حكم الزعيم خوسيسيتو وعصابته من الهنود المتمردين. تحلَّى أوسونا بما يكفي ويزيد من العلم والشجاعة لقيادتنا عبر أرض مفتوحة، لذلك لم يكن الخوف هو ما جعله يقطب جبهته، بل القلق

المهني الذي حسبه سابقًا، مقدرًا في الوقت نفسه احتمالات تفادي العقبات التي سنلاقيها في طريقنا، التي يبدو أن الزعيم خوسيسيتو أبرزها. لذا ففي صباح أحد الأيام، بعد يومين أو ثلاثة من محادثتنا، أخبرني بأنه سيخرج لاستكشاف الأرجاء وليرى كيف تسير الأمور، واختفى لمدة أسبوع. حينما عاد، لم تكن التوقعات بالتأكيد أكثر طمأنةً، لكنها صارت أدق مما كانت عليه قبل رحيله.

لقد عدا بحصانه أولًا نحو الشمال حتى وجد العربات القادمة من باراجواي. كانت متأخرة لكنها ستصل، وفقًا لحسابات أوسونا، إذا لم يعطلها أي حادث، بعد قرابة خمسة أيام. سلَّمني أوسونا رسالة أبلغني فيها أحد زملائي من أسونثيون بوجود مريض إضافي في القافلة، وعلى رئيس القافلة أن يسلمني مبلغًا ماليًّا يغطي نفقات إدخاله إلى (دار الصحة) لمدة عام. أخبرني أوسونا أيضًا عن العربات المخصصة للمرضى الآخرين؛ كان ثمة عدد كافٍ منها وبدا كل شيء على ما يرام. لقد ذهب أيضًا للقاء الأشخاص القادمين من كوردوبا الذين تقدموا بسرعة أكبر بكثير لأنهم يسافرون على صهوة الخيل، لكنهم غادروا المدينة بعد فوات الأوان، على الرغم من أن أوسونا لم يعرف أسباب ذلك. وفي المقابل، لم يبد أن هناك أي مريض بينهم. صحيح أنه مرَّ بهم سريعًا بينما يتجه نحو الجنوب لمعرفة أمور أدق عن خوسيسيتو، لذلك لم يتمكن من الخوض في مزيد من التفاصيل معهم، لكنه وجد نفسه أمام مجموعة صغيرة من الفرسان الذين يعدون في الصحراء بالكثير من الحيوية واللامبالاة والحرية، وأراد قائدهم، الذي بدا رجلًا غنيًّا متسلطًا لكنه سخر من أوسونا ببعض النكات التي استقبلها الفرسان الآخرون بالقهقهة، أن يعطيه بعض العملات تعويضًا عن العناء الذي -حسب قوله- تكبده نظير الذهاب للقائهم، لكنه، أي أوسونا، رفضها واستمر في العدو نحو الجنوب. لم يكلفني الأمر عناءً لتخمين أنه على الرغم من الفتور الذي تحلى به وهو

يحكي لي، فقد شعر أوسونا بالانزعاج بل وبالإهانة قليلًا بسبب انعدام اللياقة المحيِّر لدى تلك المجموعة من الفرسان. وأخيرًا، بينما يتوغل جنوبًا، أجرى بعض الاستقصاءات عن غارات الزعيم وعصابته، ولم يكتف بسماع شهادات مختلفة، بل تمكن حتى من رؤية آثار مذبحة حديثة العهد: عربتان متفحمتان وعدة هياكل عظمية نظفتها النمور وطيور الأشبور والنمل منذ وقت ليس ببعيد. تلك هي المستجدات التي عاد إليَّ بها أوسونا بعد سبعة أيام من السير على صهوة جواده.

خلال قرابة الشهرين اللذين قضيناهما في المدينة، تراجع البرد قليلًا ليومين فقط لينتقل، عبر دهليز عاصف، من كونه طقسًا جليديًّا شاحبًا، جافًّا ومشمسًا، إلى شتاء رمادي نافذ. مرت ساعات النهار القصيرة في ظلمة رمادية، وحتى الأفق القريب، تحت سماء قاتمة، لمعت كل المرئيات بصورة باهتة، متشبعةً بالماء. في الشوارع القريبة من النهر، أمكن السير تحت المطر لأن التربة الرملية تصلبت بفعل المياه، ولكن في الجزء المقابل للساحل من المدينة، ناحية الغرب، كان ثمة طين لزج ومتموج يلتصق بالأحذية فيسبب صعوبة في الحركة؛ وفي أحد شوارع الضواحي رأيت ذات صباح حصانًا ينزلق عدة مرات متتالية، وازداد الأمر خطورةً كلما حاول العثور على موطئ قدم، حتى سقط سقطة مدوية في الطين اللزج المحمر، وظل يهز سيقانه في الهواء بلا جدوى ويصدر أصواتًا غريبة لا تعرف هل تأتي من حنجرته أم من أنفه وهل هي صهيل أم أنين. في الليل، أمكن سماع ضجيج المطر، سواء كان يهطل بكثافة وباستمرار أم بصورة غير منتظمة ومتقطعة حين يهدأ قليلًا، ليس في المحيط القريب الذي يمكن أن تدركه الآذان فحسب، بل في الليل الخيالي الفسيح كذلك، الذي بدا كأنه يحيط بالكون كله، وكان من السواد والبرودة ما جعله يوحي بأنه قادم، بعيدًا عن الحواس والتفكير، من مكان غير محتمل، خارج المحيط نفسه الذي يشغله.

وذات صباح، بعد يومين أو ثلاثة من عودة أوسونا، جاء السيد بارًا شخصيًّا، في وقت باكر جدًّا، ليطرق بابي: ثمة رجل وصل من كوردوبا في الليلة السابقة يريد التحدث معي على نحو عاجل. وفقًا للسيد بارًّا، بدا من ملبسه شخصًا مهمًّا وهو على الأرجح -قال ذلك بصوت خفيض وببعض الغيظ- معتاد إصدار الأوامر. أدركت من لهجة السيد بارًا أن الزائر قد أساء إليه بطريقة ما وتذكرت القصة التي أخبرني بها أوسونا عن العملات، لذا أسرعت بارتداء ثيابي، لأن السيد بارًا، المتسامح البشوش في العموم، بدا نافد الصبر مع الزائر وفضَّل أن أتولى أمره في أسرع وقت ممكن. بنظرة عرفان، حاولت فيها إظهار مدى ندمي على المتاعب التي جلبتها عليه إقامتي في منزله، دعوته للدخول، وبينما أنهي ارتداء ثيابي سألته بشمولية أكثر عن الشخصية التي أتت لانتزاعي من الفراش، دون أي تورُّع، في مثل هذه الساعة الباكرة من ذلك الصباح البارد الممطر: أجابني السيد بارًا، متخليًا عن كبريائه ومتغلبًا على مزاجه السيئ برباطة جأش، أنه عندما جاءت الخادمة لتعلن عن الزيارة، وعليها آثار الانبهار الشديد بهذه الشخصية، ذهب لاستقباله بنفسه عند باب المنزل. كان يرتدي ملابس شديدة الأناقة في تلك الساعة الباكرة وفي ذلك الجو المستحيل، منتصبًا وبدينًا وواثقًا جدًّا من نفسه، يحمل كتابًا في يده وسبابته موضوعة بين الصفحات حتى لا يفقد الصفحة التي يقرؤها، وعليَّ الاعتراف، على حد قول السيد بارًا، بأنه أحدث تأثيرًا فوريًّا وحاسمًا. أما عن سلوكه المتغطرس بعض الشيء، فقد عزاه إلى الخجل الذي يصدر عن الغرباء أحيانًا فيحفز عجرفة مؤقتة تعبر عن عدم ثقة معينة نحو الآخرين أكثر منها نحو أنفسهم. ولما طلب التحدث بشكل عاجل مع الدكتور ريال، إذ كان عليه استشارته بشأن مسألة في منتهى الأهمية، أدخله السيد بارًا إلى مكتبه فورًا فشرع الزائر، الذي لم يعد يوليه اهتمامه، يتفقد المكتبة بأسلوب قد يبدو غير مهذب، ويصدر بين الفينة والأخرى أصواتًا يصعب معرفة ما إذا كانت تعبر عن الاستحسان أم الرفض، ويهز رأسه تارةً بالإيجاب وتارةً سلبية

وتارةً بالنفي أو بالشك. إنه رجل علم بكل تأكيد، وإذا بدا سلوكه فظًّا بعض الشيء، فحتى تلك اللحظة لم يكن هناك أي توبيخ محدد يمكن أن يوجَّه إليه. إلا أن الزائر، عندما لاحظ تمثال ڤولتير النصفي، هز رأسه كما يفعل الطبيب أمام مريض لا يُرجى شفاؤه، وبعدما أطلق ضحكة قصيرة ساخرة، أفلتت منه لا إراديًّا، لكن بنبرة شديدة الوقاحة والازدراء، كلمة «محتال». كان ذلك صعب الاحتمال على السيد بارًّا الذي أعلن لزائره أنه سيخرج لإبلاغي، وأتى ليطرق بابي.

خرجنا مسرعين إلى الصباح الرمادي وعبرنا الفناء البارد الممطر، بينما لا أزال أنهي ارتداء ملابسي لأذهب لاستقبال الشخص الذي، لم يساورني أدنى شك في ذلك، لا بد أنه هو الزميل المتعجل القادم من كوردوبا الذي ترأس مجموعة الفرسان الأقوياء الهائمين في وسط السهل، وأساء إلى أوسونا من خلال عرض بعض العملات الفضية عليه. ذهبت عازمًا على إجراء حوار احترافي صارم ومقتضب مع الزائر، حتى أجعله بقليل من القسوة يدفع ثمن انعدام الذوق الذي ارتكبه تجاه شخصين أكنُّ لهما احترامًا كبيرًا، لذلك قبل دخول المكتبة تعمدت أن أتصرف بطريقة تخلو من أي تأدب أو ألفة، ولكن حينما رآني الزائر أدخُل، أحبط نواياي بترحيب ودي مفرط، يكاد يكون حماسيًّا. انحنى لاستقبالي، وشد على يدي للحظة وهزها بحرارة، وبعدما سألني إن كنت حقًّا الدكتور ريال، أخبرني بأنه منذ عدة أشهر، منذ بدء المراسلات مع (دار الصحة) في الحقيقة، وهو يتحرق شوقًا للقائي، وكذلك للقاء الدكتور ڤايس الذي سمع عنه أعظم الإشادات. كان رجلًا بدينًا طويل القامة، ولولا بطنه البارز قليلًا لأوحت بنيته الرياضية المثالية فورًا، على الرغم من بدانته الناشئة، بالقوة البدنية، ولا سيما بطاقة حيوية شبه مفرطة لا يمكن سبر أغوارها، ولما كانت سنه تناهز الخامسة والثلاثين أو نحو ذلك، ولولا بعض الشيب الذي صبغ بقليل من البياض سوالفَه ولبدةَ

شعره الكستنائي الداكن النظيف الأشعث من خلف أذنيه، لأمكنه أن يصبح صورة مثالية لرجل في أوج نضوجه. لكن إلى جانب الحيوية الجسدية، اتسم حديثه بتلقائية مبالغ فيها، وعلى الرغم من الأناقة البادية على ملابسه باهظة الثمن -دثار رمادي فاتح، وسترة داكنة تبرز منها كشكشة قميصه في تموجات ناصعة البياض، وبنطال من الكشمير الإنجليزي لونه بني فاتح اختفى داخل الرقبة الطويلة اللامعة للحذاء ذي اللون البني الأكثر قتامةً بقليل ومن أصل أوروبي لا شك فيه جعلني مظهره الذي لا يقل نقاءً عن بقية الثياب أتساءل، حين لاحظت تلك التفصيلة، كيف هندمه بحق الشيطان لكيلا يظهر على كامل سطحه الجلدي أثر واحد للطين حتى على مقربة من النعلين- فقد وشت شخصيته كلها بنوع من النسيان لذاته، كأن اللحظة التي ارتدى فيها الثياب وتهندم بكل هذه العناية قبل خروجه قد مرت في ماضٍ بعيد جدًّا وفي عالم مختلف تمامًا عن الذي كنا فيه في تلك اللحظة، بحيث يتحتم عليه الآن أن يبقى مظلمًا ومنسيًّا إلى الأبد، رغم أنه في الواقع المشترك لجميع الكائنات والأشياء لا يملك تاريخًا أطول من خمس عشرة أو عشرين دقيقة. كان زائرنا، الذي بدا أنه يشعر تجاهي بتقدير بالغ، يعامل السيد بارًّا، الذي بالكاد استطاع مواراة غيظه، بترفُّع مقصود، ولم يكتف بفعل كل ما بوسعه لتجاهله، بينما يتوجه إليَّ وحدي بالخطاب، بل بدا كذلك أنه يتعمد حساب كل حركة من حركاته ليوليه ظهره دائمًا. أما عن محادثتنا، فعليَّ أن أقول إنها بدأت بسلسلة من الثناء على شخصي بُصورة لا تتناسب مع المدى الحقيقي لسمعتي التي انخسفت، بإنصاف، وراء سمعة الدكتور ڤايس، لكنها في لمح البصر، ودون فاصل تقريبًا، تحولت إلى استجواب مهني بل وفلسفي حقيقي، مع السمة المزعجة المتمثلة في تراكب الأسئلة بعضها فوق بعض دون إمهالي وقتًا لتقديم الإجابات فبدا زائرنا، الذي ظل يرمقني بإصرار وقح، غير مهتم بها على الإطلاق وهو يستجوبني. امتد ذلك الوضع القسري لبعض الدقائق، وحتى لو لم أرَ فقاعات اللعاب الصغيرة عند مقرنَي شفتيه ونظرته

التي اكتسبت ثباتًا مفاجئًا، فإن حديثه المتسرع الذي انتقل من موضوع إلى آخر دون كثير من التسلسل المنطقي، وذلك الشعور بالطاقة الحماسية المنبعثة من شخصه، التي لا تتناسب تمامًا مع الظروف المحيطة، جعلني أدرك أنني لست أمام زميل، بل أمام المريض الذي ننتظر قدومه من كوردوبا، كما اتضح من لهجته. بالنظر إلى طريقة تصرفه، التي كشفت عن أعراض هوس لا لبس فيها، فلا يمكنه سوى أن يكون السيد ترونكوسو الذي أرسلته عائلته، وهي واحدة من أغنى عائلات كوردوبا، لإيداعه في (الأسناط الثلاثة). إن أحد أنماط السلوك الشائعة لدى هذا النوع من المرضى هو بالتحديد تلك الفوقية التي يتحلون بها في حضور أطبائهم، وتكتيك المجيء لمقابلتي دون الكشف عن أنفسهم صراحةً لاختبار بصيرتي بل وحتى انعدام كفاءتي التام إن أمكن ذلك، لهو طريقة شائعة إلى حد ما لتقديم أنفسهم. انطوت إيماءاته كذلك على محاولة، ماهرة جدًّا من ناحية أخرى، لإخفاء جنونه، مثل أولئك الأشخاص الثملين الذين، لكيلا تبدو عليهم آثار الثمالة، يحاولون اتخاذ وضعيات يعتقدون أنها أكثر طبيعية، دون أن يفطنوا إلى أن تلك المحاولات بالتحديد هي التي تفضح ثمالتهم. تزايد الضيق الواضح على السيد بارًا، غير المعتاد لهذا النوع من الجنون، مما يعتقد أنه حالة متطرفة من سوء الأدب، فأعطيته إشارة تواطؤ بعيني حثته على الهدوء، ثم واجهت زائرنا وطلبت منه بنبرة آمرة أن يصمت ودعوته للجلوس. وعلى الرغم من أنه أطاعني، فقد رأيت من خلال حالته الحماسية أنني لن أستطيع تهدئته بهذه السهولة. (تتسم نوبات الهوس بالحماس المستمر، الذي يتزايد ولا يتقبل أي شيء يقاطعه، ولا حتى النوم، ومن الأعراض التي غالبًا ما تظهر بسببه هو الأرق. في وسط النوبة، قد يقضي المريض عدة أيام بلا نوم، ولا فقدان للطاقة ولا الشهية ولا الحيوية. وحينما تنقضي النوبة، تحل محلها فترات طويلة من الاكتئاب، وعلى النقيض من ذلك، فخلال النوبة قد يفضي الحماس المستمر في التزايد إلى حالة هياج حقيقية).

على الرغم من أنه ظل جالسًا لعدة دقائق، لم يفقد ترونكوسو تلقائيته ولا مزاجه الرائق، ورغم أنه لم يملك خيارًا سوى الاستماع إليَّ، بدلًا من الرد على أسئلتي المتعلقة بالرحلة انطلاقًا من كوردوبا، ووصوله، والمجموعة التي رافقته، ولقائه أوسونا وأمور أخرى على هذه الشاكلة، وهي أسئلة تطلبت، على عكس أسئلته، إجابات دقيقة لم يبد مستعدًا لتقديمها لي، فقد اختار أن يضحك مني بطريقة طفولية، وعليَّ الاعتراف بأنها تواصلية إلى حد كبير، كما يحدث غالبًا مع بعض المجانين، واكتفى بتكرار آخر كلمات الجمل التي قلتها أو التلفظ بكلمات جديدة، بروح لطيفة وكوميدية كردٍّ وحيد منه، حتى إنها أضحكت السيد بارًّا، إذ لم يكن لتلك الكلمات أي علاقة منطقية بآخر كلمة في جملتي، لكنها مقفَّاة معها. كان هذا السلوك، الذي قد يبدو غير عقلاني لمن يسمع عنه دون أن يحظى أبدًا بفرصة لمشاهدته مباشرةً، يظهر بمنتهى الهدوء، والعبارات والقوافي تُنطق بدقة وهدوء من قِبل ترونكوسو، بحيث أنه لو دخل شخص على حين غرة إلى المكتبة في تلك اللحظة لربما اعتقد أنني وترونكوسو، أمام نظرة السيد بارًّا المدهوشة، مندمجان في صالون ترفيهي لطيف وهزليٍّ وروحاني. بعد برهة من الوقت توقف ترونكوسو كأنه قد ملَّ هذه اللعبة بالذات، لكنه لم يفقد قط روح الاستمتاع بصباح من أمتع ما يكون، فراح يبحث في الغرفة عن تسلية جديدة، وانتبه مجددًا إلى تمثال ڤولتير النصفي، وبعد خطوتين واسعتين عازِمتين وقف على بُعد متر واحد منه وبدأ في السُّخرية منه بفرنسية مفتعلة، تتألف في معظمها من كلمات قشتالية ينطقها كأنها فرنسية، وتبرز من بينها بين الحين والآخر عبارة «موسييه ڤولتير»[1] التي كلما تلفَّظ بها -ولسبب غامض- دفعته إلى رمي رأسه إلى الوراء بحركة مباغتة وتعبير متغطرس وتحقيري، ما يؤدي إلى اهتزاز لبدة شعره الغزير والنظيف والمموج. وبعدما مللت تلك التمثيلية التي

(1) وردت العبارة بمزيج من النطق الإسباني والفرنسي، ومعناها (متحف ڤولتير). (المترجم).

بدأت تستغرق وقتًا أطول من اللازم، وجعلت السيد بارًّا يتردد طوال الوقت بين الحيرة والغضب، طلبت من ترونكوسو أن يأخذني إلى الأشخاص الذين رافقوه من كوردوبا، وهو طلب تظاهر بأنه لم يسمعه، لكن جعله يهز رأسه بابتسامة تنم عن تنازل وتسليم، ويتجه نحو باب الشارع. الواضح أنه كان يتوقع مني أن أتبعه، ويتعمد التصرف بتلك الطريقة، وبذلك الفتور الذي يتحلى به بعض المجانين أحيانًا للخضوع لصوت العقل الخارجي، دون أن تُلوى أذرعهم بالكامل، متظاهرين بأن الأمر الذي انصاعوا له للتو قد تحقق بمحض الصدفة وليس من قبيل التنفيذ الطوعي لمسألة عقلانية. بعد ثلاثين عامًا من وجوده حيًّا في ذكرياتي أكثر من أي مريض آخر، ما زال ترونكوسو هو التجسيد المثالي لاستقلالية الجنون، ليس لأنه يخدم بوضوح أسبابًا لا نزال نجهلها، بل لأن هذه الأسباب تظل أكثر تماسكًا من الأمور اليقينية غير المبررة للأصحاء. ولما أردت رؤية الحامية التي رافقته أخذني ترونكوسو إلى الشارع، وهنالك وجدتهم جميعًا، فرسان كوردوبا السبعة أو الثمانية، ممتطين أحصنتهم في الشارع الطيني ومحتشدين أسفل معطفين عسكريين منبسطين على رؤوسهم للاحتماء من المطر. لمعت أعينهم الداكنة في الظلام الذي ازداد ثقله قليلًا عن الجو الرمادي للصباح الممطر، وزاد من كثافة ظل المعطفين حول وجوههم. أمسك أحد الرجال بزمام الحصان الوحيد الذي لم يكن على صهوته فارس، حصان أشهب فارع، يتميز تقريبًا بالقوة والنشاط والعصبية نفسها، ولا يزيد أو يقل غموضًا فيما يتعلق بكينونته العامة وفيما يتعلق بالدوافع العميقة لردود أفعاله عن الرجل الذي أتى على صهوته من كوردوبا، ويستعد الآن، بعد أن وضع الكتاب الذي كان يمسكه بيده في جيب دثاره الرمادي الفاتح، دون أن يتخذ أدنى احتياط لعدم فقدان الصفحة التي ظل يميزها بسبابته طوال مدة لقائنا، لكنه اتخذ احتياطات لا حصر لها لكيلا يلطخ الطين حذاءه المبالغ في اللمعان، من أجل امتطائه مجددًا. لم أتوقف عن الانبهار بخفة ذلك الهيكل الضخم ومهارته بل ورشاقته، الذي ظهرت

عليه علامات بداية السمنة والشيب الذي أخذ يصبغ بالبياض شعره المصفف، وهو يتحرك على أطراف أصابع قدميه لكيلا يتسخ حذاؤه، متفاديًا المواضع التي ازداد عندها الطين كثافةً ولزوجة لقلة امتزاجه بالتراب، والقفزة المتقنة الرشيقة التي اتكأ عليها، بعد أن أمسك بزمام الحصان الذي ناوله إياه أحد أفراد الحامية ووضع قدمه اليمنى في رِكاب السرج، واندفع بسلاسة إلى ظهر الحصان، الذي بدا أنه تعرف على فارسه من وزنه أو رائحته أو صوته أو أسلوبه أو حتى من جنونه، أو مَن يدري من أي تفصيلة لا لبس فيها، واستقبله بهزتين من رأسه، كأنما يعبِّر عن امتثاله، ثم سكن مرة أخرى، مستعدًّا ربما لتلقي الأمر بالانطلاق. انبعثت من حامية ترونكوسو عدائية واضحة تجاهي لم يحاول أفرادها إخفاءها حتى، بخلاف ترونكوسو نفسه، الذي نقل تلك العدائية إلى السيد بارًّا، الذي -بالمناسبة- لم تكن له أي علاقة بهذا الأمر، فأولاني تقديرًا مفرطًا، امتزجت فيه السخرية والظرافة الهزلية بالازدراء. من أولئك الرجال الذين وجب عليهم حمايته من العديد من المخاطر الخارجية وخصوصًا تلك التي تثيرها تصرفاته، عن طريق حراسته عبر الصحراء حتى إيداعه في يد العلم الذي سيعتني بصحته ويحاول إعادة عقله إليه، صنع ترونكوسو عصابة من التابعين، أشبه بالأعوان، الذين بدوا بمظهر قطاع طرق أكثر من كونهم ممرضين، ربما فتنهم بتلك القوة الفريدة التي يشعها وعجزوا عن إدراكها لأن فرصتهم للجموح -ربما- لم تسنح بعد. إن هيبته الشخصية المزعومة التي روضتهم، والنشاط الذي لا يكل منه، وقوته البدنية، ورفقته المسلية، وجسارته، ولا سيما روحه المبادِرة باستمرار لتجديد النشاط في آلاف الاتجاهات المختلفة -كثير منها يعارض بعضه بل ويُقصي بعضه بعضًا، ولم تُسلك إلا بسبب تقلباته المزاجية المباغتة وغير المتوقعة-، اعتبرها هؤلاء الرجال البسطاء سمات تدل على أصالة عظيمة وجذابة، وكانت في واقع الأمر وفي نظر الطب علامات معتادة رُصدت على آلاف المرضى المختلفين بتكرارها شبه الثابت، وتسبق الانهيار.

اتضح ليَ أنه يجب علي فرض سلطتي فورًا على مجموعة الفرسان الذين تفحصتني أعينهم الداكنة بحيرة من تحت ظلال المعطفين العسكريين اللذين يحميانهم من المطر، فسألت بصوت ودود لكنه قوي عمن يقود المجموعة، فاستجاب أحد الرجال، وهو ينزلق في صمت عن صهوة جواده ويخلع قبعته دون أن ينكشف رأسه الملفوف بشيء أشبه بمنديل أحمر معقود عند رقبته، ثم قدم لي حقيبة جلدية، لكنني تجاهلت إيماءته وطلبت منه أن يتبعني إلى الداخل. على منضدة من الخوص موجودة في المكتب، ودون أن أدعوه للجلوس، فرشت محتوى الحقيبة الذي تألف من بعض الرسائل الموجهة إليَّ وإلى الدكتور ڤايس، وبعض الوثائق الطبية والمالية. في الرسالة الموجهة إليَّ، أُبلغتُ أن حامل الرسالة -أي الرجل ذا المنديل الأحمر- خادم موثوق به لعائلة ترونكوسو، التي تطلب مني أن أسمح له بمرافقتنا حتى (دار الصحة) باعتباره حارسًا شخصيًّا للمريض. على الرغم من أن الفكرة بدت لي ممتازة (برهنت الأحداث لاحقًا على خطئي)، فقد تصنعت التفكير لبرهة قبل أن أوافق، بل وسمحت لنفسي بأن أشرح له الحالة الصحية لسيده بجدية مبالغ فيها، محذرًا إياه من أنه لو أراد أن يكون جزءًا من قافلتنا، فعليه أن يضع في اعتباره أنها مستشفى متنقل، وليست حملة من الجنود أو رعاة الماشية، وأنه في المستشفيات عمومًا من يصدر الأوامر هم الأطباء. استمع إليَّ الرجل دون أن يرمش. كان قد حلق ذقنه بعناية قبل فترة قصيرة، ولديه تلك البشرة الداكنة لمن يعيشون ويعملون في العراء. بدا مترددًا بين ولائه لترونكوسو وبين النبرة المقنعة التي أضافتها سلطتي المهنية إلى خطابي، وإن تبقى لديه أي شك عن الحالة الصحية للرجل الذي عليه حمايته، فسوف تقضي عليه النوبات اللاحقة خلال رحلتنا. كان الرجل وفيًّا وحسن النية تجاه سيده، لكنه قليل الذكاء بعض الشيء على الرغم من مظهره الشرس كقرصان. اسمه

روساريو سواريث، لكن لأن ترونكوسو أطلق عليه «نياتو»[1]، صار الجميع ينادونه بلقبه. كان وفيًا لترونكوسو وفاء الكلب، رغم أنه عامله في أغلب الأحيان بقلة احترام ليست نابعة من جنونه، بل من منصبه سيدًا.

بعد أربعة أيام، وصلت العربات القادمة من باراجواي. على الرغم من أن وصولها كان متوقعًا منذ أسابيع، فقد أحدث ظهورها جلبة كبيرة في المدينة. انضم إليها بعض التجار وحتى مجموعة من الممثلين، فصار في ضواحي المدينة شيء أشبه بالمعرض استقرت فيه القافلة، إذ منعها الطين من الوصول إلى وسط المدينة. اتجهت العائلات المقتدرة إلى ضواحي المدينة للتسوق: جاءت عربتان أو ثلاث من أسونثيون، وواحدة حتى من الساحل البرازيلي، محملةً بالبضائع التي على الرغم من شيوع استعمالها، فقد ندر وجودها في مدن (النيابة الملكية) بسبب احتكار التجارة الذي مارسته مدريد على مستعمراتها، لذلك في تلك السنوات كان لا بد من اللجوء إلى التهريب للحصول عليها. حتى تجار المدينة جاؤوا للتسوق لتزويد أعمالهم الخاصة. ذاقت سيدات وسادة وسط المدينة طعم الضواحي، يرافقهم العبيد الذين يحملون الحقائب أو يمسكون بمظلات كبيرة، مرفوعة فوق رؤوس أسيادهم لحمايتهم من المطر، سوداء كالأيادي التي تمسك بعزم مقابضها المنحنية لإبقائها عالية. حاول الممثلون إضفاء الحيوية على الأجواء، لكن الجو كان سيئًا لدرجة جعلت التمثيل في الهواء الطلق مستحيلًا عليهم، فانتهى بهم المطاف بدعوتهم لإقامة عرض في (دار الحكومة)، حيث قدموا مسرحية قصيرة مفككة وسطحية، لكنها -لسبب غامض- أثارت حماس وجهاء المدينة وصارت موضوع أحاديثهم لعدة أيام.

---

(1) تستعمل كلمة ñato في عامية الأرجنتين وبعض البلدان بمعنى شخص أو فرد، وكذلك بمعنى شخص أفطس الأنف. (المترجم).

في أثناء ذلك المهرجان، كان أحد الأمور المسلية هو ترونكوسو نفسه، المولع بالظهور الذي وجد في ذلك المعرض المرتجل المساحة المثالية ليحضر يوميًّا، بأناقة ومرح، ويتحدث مع هذا وذاك بوجاهة لا يمكن إغفالها. كان قد هدأ قليلًا بعد لقائنا الأول، لإدراكه بمرور الأيام أنني لا أنوي أن أكون عدوه ولا قاتله المأجور، فبدا غير بعيد عن حدود المعقول، رغم أن تصرفاته لفتت الانتباه إلى حد ما، واعتبره الناس رجلًا مسليًّا وغريب الأطوار بعض الشيء، تشي لهجته القوية بأنه من أهل كوردوبا. عُرِف أنه يعاني مرضًا مبهمًا، لكن لا بد أن نشاطه المحموم قد أقنع أكثر من شخص بأنها شائعة لا أساس لها من الصحة. كان يعيش ببذخ، مما زاد عدد معجبيه كأمر بديهي، في النُّزُل الوحيد بالمدينة. اعتدت الذهاب لرؤيته يوميًّا وتحاورنا بلطف بينما بالكاد نتطرق، بسخرية متبادلة، إلى حدود غرابة أطواره، لكنه عندما يراني أصل إلى المعرض، حيث يحظى بزخم أكبر من زخم المهربين والممثلين، يتوارى بفطنة كبيرة، ربما خوفًا من إظهار سلطتي بصفتي طبيبًا فأهينه على الملأ. وبسبب كشفه عن اتصال معين بالواقع، فقد طمأنني ذلك الهاجس، حتى ولو قليلًا، لأن التجربة تثبت أنه في معظم الأحيان، تحت هذه الوداعة الخادعة، يقبع الجنون بنفاد صبر.

يحيلني هذا الأمر إلى مريضيَّ الجديدين، اللذين اضطرا إلى التغلب، مع الحامية المرافقة لهما وبقية أعضاء القافلة، على سلسلة لا تصدق من العقبات للتمكن من الوصول إلى المدينة. كان المريض المتوقع وصوله، ومن أجله تبودِلت الرسائل بين أسونثيون و(الأسناط الثلاثة)، رجلًا في الثلاثينات من العمر، يُدعى خوان بيردي، وهو قريب مالك شركة النقل التي أجَّرت، بسعر معقول للغاية، العربات لعائلات المرضى. أمضى الرجل وقته بين صمت مريب وحديث مفرط في الحماس والحيوية، اتسم بصفة غريبة لكونه يتألف من جملة واحدة فقط، يكررها طوال الوقت مع تغيير نبرة الصوت وإرفاقها

بتعبيرات من وجهه وإيماءات متنوعة، كأنه يجري مع محاوره حديثًا حقيقيًا كلما تغيرت فيه العبارات التي يقولانها، تغيرت المشاعر والعواطف التي تحفزها. ولكي نكون أكثر دقة، ينبغي القول إن ما اعتاد بيردي أن يقوله طوال الوقت ليس جملة حتى، إذ إنها لم تحتوِ على فعل، وتتألف من تعبير واحد يوجهه إلى محاوره، وهو «صباحًا ومساءً وليلًا»، بل وأحيانًا إلى نفسه خلال سير الحديث، مكررًا إياه إلى ما لا نهاية مع تغيير نبرة الصوت فحسب، وأوحى مع كل تغير بأشياء مختلفة تمامًا مثل التحية أو التهذيب أو الدهشة أو الفرح أو الغضب أو الجدال أو التركيز أو الاهتمام، إلخ. ظلت تلك الطريقة الغريبة في الحديث، التي في نهاية المطاف أثارت سخط محاوريه كما هو متوقع، تتناوب -مثلما ذكرت سلفًا- مع ساعات يومية عديدة من الصمت المريب. أما بالنسبة إلى المريض غير المتوقع، فيجب أن أقول إن جميع الأوراق كانت جاهزة عندما عهدوا به إليَّ بعد وصوله إلى المدينة، وكان أخًا غير شقيق لبيردي، ابنًا للأب نفسه لكن ليس للأم نفسها، ولكونه أصغر سنًّا من أخيه بكثير (ربما في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة على أقصى تقدير)، راح جميع أفراد القافلة، لتمييزه عن أخيه الأكبر، وبصورة ودية عطوفة، ينادونه «بيرديثيتو»[1].

منذ قديم الأزل، اعتبروا أن للجنون أسبابًا قد تكون كثيرة، وأن تلك الأسباب تختلف حسب نوع المرض الذي يُعالَج، فحين تظهر حالات متكررة في عائلة واحدة، ليس فقط من الآباء إلى الأبناء بل حتى عبر عدة أجيال، أو في الجيل نفسه، كما يبدو أنه يحدث مع عائلة بيردي، يصير عندها الاشتباه في احتمالية وجود عوامل وراثية في بعض حالات الجنون أكثر من معقول. أظهرت أعراض الأخوين بيردي، دون أن تتساوى تمامًا، عديدًا من التشابهات، وبخاصة في نوع من الانحراف في استعمال الكلمات، الأمر الذي لم يبرز

(1) إضافة المقطع (ثيتو) إلى الاسم يدل على التصغير أو التدليل. (المترجم).

بطريقة متطابقة لكنه ظل مثيرًا للاهتمام. (لاحظ الدكتور ڤايس هذه الظاهرة على الفور، وحاول أن يحصر الأعراض المشتركة بينهما وكذلك خصائصهما المتباينة، لكي يضع مبدأً تصنيفيًّا لكليهما. لا أتوقف كثيرًا عند هذه التفاصيل لأن هذا النص، كما سيتذكر القارئ، لا يهدف إلى الدخول في تفاصيل علمية).

كان بيرديثيتو -لنسمِّه هكذا- ربما أطيب مراهق في العالم، لكن بسبب صفاته قد يصبح وجوده مزعجًا بعد فترة من الزمن، وهو ما يفسر أن العائلة، على الرغم من دماثته، قررت التخلص منه في النهاية بإرساله إلى (دار الصحة). في الرسالة التي أرسلوها إليَّ من أسونثيون ليبرروا إرسال الفتى غير المتوقع، فسروا الأمر بأن الأخوين مرتبطان ارتباطًا وثيقًا من خلال عاطفة عميقة، تجعل من التفريق بينهما أمرًا قاسيًا قد لا يحتمله أيٌّ منهما. كنت معتادًا البلاغة التي غالبًا ما تلجأ إليها العائلات لتبرير إيداع أحد أفرادها في المستشفى بعدما استولى عليه الجنون، وهو ما قد يكون موضع انتقاد، لذلك سرعان ما أدركت أن السبب الحقيقي وراء إيداع بيردي وأخيه الأصغر في المستشفى يكمن في هذا الحصار اللفظي أو الشفهي أو الفموي المستمر، أو كيفما يُطلق عليه، الذي فرضه الأخوان على محاوريهما. اتضح أن حجة التفريق القاسي الذي لن يحتمله أيٌّ منهما فارغة تمامًا، إذ يظهر جليًّا حتى لمن يراقب من بعيد أن الأخوين يتجاهل أحدهما الآخر ويتعاملان، أو بالأحرى لا يتعاملان أصلًا، بلا مبالاة شديدة التبلد والبُعد. كان بيرديثيتو، على عكس أخيه الأكبر، قادرًا على إجراء محادثة شبه عادية، وتميز فهرس عباراته بشيء من التنوع، على الرغم من أن مفاهيمه ومواضيعه ظلت صبيانية قليلًا قياسًا بسنه، غير أنه -كأنما أصيب ببعض الصمم رغم أنه ليس كذلك، فقد تفاعل بصورة فورية مع محفزات أخرى غير الحديث- أظهر نزوعًا -قد يصبح مزعجًا- لطلب تكرار العبارات التي توجَّه إليه. ولكن ما أعاق عملية التبادل اللفظي معه هو عادته الدائمة للاستمرار في إصدار جميع أنواع الأصوات

من فمه، صيحات وهمهمات وعطس وحازوقات وسعال وتلعثم وأصوات ريح فموية، وفي لحظات الاستثارة الكبيرة، لعنات لا يعرف المرء إلى من تُوجَّه بالتحديد، بل حتى عواء وصراخ. استحال عليه أن يمر من أمام حصان دون أن يصهل ليستهزئ به، أو أمام أي حيوان آخر دون أن يقلد صوته، وطالما فعلها ببراعة كبيرة، بل وأحيانًا كان يكرر الأصوات التي يسمعها من حوله، من الصدى المعدني لملعقة على طبق من الصفيح إلى خرير الماء المنساب من وعاء إلى آخر. لذا اقترن وجود بيرديثيتو دائمًا بتتابع لا نهائي من الأصوات الفموية التي تقاطعت مع عباراته وبالتحديد ملأت فترات الصمت بينها، وربما أن أبسط تفسير لتلك النزعة إلى طلب تكرار العبارات الموجهة إليه لا يكمن في صممه المفترض، بل في حقيقة أن الأصوات الدائمة المنبعثة من فمه تُغطي على الحديث. بعيدًا عن الجانب المزعج في الأمر، تجدر الإشارة إلى أنه رغم أن الأخوين عجزا عن إجراء محادثة طبيعية مع الناس، فالأمر في حالة أحدهما يعود إلى إصداره لتشكيلة غنية جدًّا من الأصوات وفي حالة الآخر يعود إلى إصداره واحدة فقيرة جدًّا، دون النظر إلى المفارقة المتمثلة في أن ذلك القادر على التفوه بسلسلة من الأصوات بكل هذا التنوع يبدو في حواره أكثر تبلدًا، بينما يوحي الآخر الذي لا ينتهي من تكرار كلماته الثلاث الفقيرة بأن الحوار معه أكثر حيوية. كان ثمة شيء حزين جدًّا في هذين الأخوين المنفصلين عن العالم بجدار الجنون الحصين ذاته؛ إن كان وراثيًا، فإن جنونهما لا يمكن أن يأتي إلا من الفرع الأبوي، إذ إنهما أتيا إلى العالم من أمَّين مختلفتين. ربما ليس ما ورثاه هو الجنون، بل هشاشة مشتركة أمام القسوة المؤذية للأشياء، أو ربما جعلهما الذهاب والإياب هربًا من كل محتملٍ حدوثه -رغم اختلاف أحدهما عن الآخر في كل شيء-، قد جعلهما يعبران -بمصادفة غير معقولة- الممر السري الذي -بلا حنق ولكن بلا شفقة- ينتظر فيه الجنون.

شعرت برفقة مرضاي الخمسة بأنني أحد لاعبي الخفة في السيرك، وهو يدحرج، فوق طاولة، خمسة أطباق على حوافها في الوقت ذاته، وعليه مواصلة الجري من واحد إلى الآخر لكي تستمر جميعها في الدوران رأسيًّا وبسرعة ثابتة، دون أن يسقط أو ينكسر أيٌّ منها. في هذه الأثناء كان الرحيل يقترب، ولا يزال علينا إصلاح المركبات التي تأثرت بوعورة الطريق، وجمع القليل من الجنود الإضافيين ليكونوا حامية لنا، وانتظار تحسن الجو حتى لا ننطلق إلى الصحراء -الموحشة حتى في الأيام الهادئة- لنجد أنفسنا وسط العاصفة. كانت تلك الأيام في نهاية يوليو، في قلب الشتاء نفسه: انتصبت الأشجار الرمادية، بلا ورقة واحدة، كزخرفة شبكية داكنة ولامعة أمام سماء تكتسي بلون رمادي أكثر لمعانًا. توقفت الأمطار الثلجية عن انهمارها لتفسح المجال لرذاذ متواصل، تحول في غضون يومين أو ثلاثة إلى نوع من بخار الماء الذي بدا طافيًا طيلة الوقت، ثابتًا بين السماء والأرض، يتسرب باردًا إلى الأشياء ليبللها حتى النخاع. حين يطئ المرء فراشه، يشعر بالملاءات الرطبة الباردة وهي تلتصق بجلده، ومهما احترقت المجامر في الغرف ليل نهار، ليس لإبقائها دافئة فحسب ولكن أيضًا لتسريع تبخر الرطوبة، فلا شيء يجف أبدًا بسبب تلك الجزيئات المائية الطائفة المبيضّة التي تملأ الفراغ بأكمله. لم يكن الماء الموجود في كل مكان يتساقط من السماء فحسب، بل يزحف كذلك من الأنهار القوية الفائضة، التي كثر وجودها في المنطقة، ليحاصر المدينة من وسطها إلى ضواحيها، في دائرة سائلة أخذت تضيق ساعة تلو ساعة. غرقت بالفعل عدة منازل كانت قد بُنيت على أراضٍ بالغة الانخفاض، وتعذر السير في بعض الشوارع القريبة من النهر إلا بالقوارب. اعتاد الخمسة أو الستة آلاف نسمة لهذه البلدة المنعزلة في الصحراء، التي وصفتها الأوراق الرسمية -بتفخيم مبالغ فيه- بأنها مدينة، أن يراقبوا ارتفاع منسوب الماء كل صباح عند استيقاظهم، أما بقية اليوم، بينما هم عالقون في ذلك المناخ الداهم، لم يتحدثوا عن أي شيء آخر. بالنسبة إليَّ، ففي الأيام الأخيرة أثقل

التأخر كاهلي: لم يكد يربطني شيء بذلك المكان الذي احتوى طفولتي بطريقة ما. في تلك المدينة عرفت للمرة الأولى، لأنني عدت إليها بعد سنوات عديدة، أن ذلك الجزء من العالم الذي لا يزال باقيًا في الأماكن والأشياء التي هجرناها لا ينتمي إلينا، وأن ما ندعوه خطأً بالماضي ليس إلا الحاضر الملون -لكن اللامادي- لذكرياتنا.

وأخيرًا أتى اليوم العظيم. توقف المطر ذات مساء، وفي الصباح التالي أشرقت الشمس في سماء زرقاء صافية وباردة. تحولت مياه البرك إلى جليد لم يتمكن من الذوبان على مدار اليوم، بسبب الشمس التي لا تزال باردة، وأخذ لونه يتغير بتغير ألوان النهار. كان كل شيء جاهزًا منذ أسبوع، ولم ننتظر سوى ذلك التغير في الجو، على الرغم من الهواء البارد الذي بدا كأنه يقطِّع آذاننا وجلود وجوهنا، فقد كنا -رجالًا وخيولًا- لا نطيق صبرًا للخروج وملاقاة السهل. بل إن الأغبياء، الذين كثيرًا ما أظهروا انطوائية داخل نظام خاص ومقاوم للعالم الخارجي، بدوا متحمسين للتوقعات بالرحيل. تكاثفت في عينَي الأخت تيريسيتا واشتدت شرارات فرحة ماكرة كلما اقتربت ساعة الرحيل، وبدا الشاب بارًا، وهو على حالة الإعياء ذاتها، أنه تخلى عن قليل من الجمود العنيد الذي انطوى به على نفسه، بل خلال الساعات القليلة الأولى من بداية رحلتنا، وقعت ظاهرة من أغرب ما يكون، وسأتناولها بالتفصيل فيما بعد. وبالنسبة إلى الأخوين بيردي، فقد ازدادت حدة السمات المعتادة في سلوكهما: أمكن سماع الأكبر وهو يصيح بعبارته الحتمية «صباحًا ومساءً وليلًا» في جميع الظروف، مؤكدًا عليها بمجموعة لا نهائية من الإيماءات المضحكة. لكن ترونكوسو بلا شك هو من تحفز للوضع أكثر من البقية، فقد طمح إلى قيادة العمليات بنفسه، وعلى الرغم من أن الجنود وسائقي العربات كانوا يعرفونه بالفعل، اعتقد اثنان أو ثلاثة ممن غفلوا عنه أنه هو قائد القافلة. لذا تحتم عليَّ أن أجتمع بالجميع قبل ثلاثة أيام من الرحيل

وأوضح بحزم أنه لا يحق لأحد إصدار الأوامر سواي أنا وأوسونا، وأن الرقيب لوثيرو، الذي تولى قيادة الحامية الصغيرة، سينضم إلينا في اتخاذ القرارات بمجرد تحركنا. كلفني ذلك الاجتماع رسالة ساخطة من ترونكوسو، بعث بها إليّ في اليوم نفسه عن طريق خادمه الحليم نياتو سواريث. أنا نفسي، كما ذكرت سلفًا، لم أكن أطيق صبرًا على العودة، ومن كل الأسابيع البطيئة الباردة التي قضيتها في المدينة لم يبق لي الكثير، عدا الصداقة الدائمة مع عائلة بارًا التي -بسبب إبداع الشاب برودنثيو في (الأسناط الثلاثة)- حظيت بفرصة العودة لرؤية أفرادها عدة مرات في السنوات اللاحقة، والأمسيات الودودة مع الدكتور لوبيث، حيث تمكن الحديث، الذي اقتصر بشكل شبه حصري على المستوى المهني، في بعض الأحيان من إلهاب حماسنا.

خرجنا إذن في فجر الأول من أغسطس لعام ألف وثمانمئة وأربعة. إن كان ثمة شيء، من بين العديد من الأحداث والتقلبات والتخبطات -أو أيًا كان مسماها- التي شكلت رحلتنا، إن كان ثمة شيء، كما قلت، قد يمثّل مؤشرًا لما ينتظرنا، فربما يكفي ذلك الأمر السخيف الذي استهل به مسارنا، ألا وهو أنه، على الرغم من أن وجهتنا كانت جنوبًا، فقد انطلقت القافلة نحو الشمال، وأننا اضطررنا إلى المضي في ذلك الاتجاه لمدة يومين قبل أن نستدير غربًا قاصدين اتجاهنا الصحيح. تحتم على القادمين من أسونثيون أن يتراجعوا نحو الشمال قليلًا ليتمكنوا من عبور نهر (سالادو)، لأن فرعي النهر يفيضان على حد سواء في المناطق المجاورة لمصبه، وحوّلا المنطقة برمتها إلى سطح مائي بعرض فرسخين أو ثلاثة تقريبًا، استحال فيه تمييز مجرى النهر. حين ذهب أوسونا للقائهم، استكشف الأرض الواقعة عند أعلى النهر حتى عثر على جزء جاف نسبيًا، رملي وضيق بما يكفي للسماح بمرور الزوارق. لهذا السبب اضطررنا إلى الاتجاه أولًا نحو الشمال، فوق مفترق النهر، في مكان ملآن بالمنعطفات التي تؤخر المسير، أعلى الأراضي المغمورة بالمياه، وبعد

عبورنا الذي لن يخلو من الصعوبة، سنتقدم نحو الغرب لمسافة معتبرة، وعندها فقط نعود إلى الجنوب، ونقطع في ذاك الاتجاه -بمحاذاة المياه- عدة فراسخ داخل اليابسة، حيث يمكننا وفقًا لأوسونا ولجميع من يعرفون المنطقة جيدًا، على الرغم من أنها ليست بجودة طريق الاستراحات المعتاد، أن نعبر -دون صعوبات كثيرة- سلسلة الجداول والقنوات والأنهار التي لا تنتهي، التي تعبر السهل من الغرب إلى الشرق وتتدفق لتصب في تيار (باراناه).

على الرغم من أن العربات جرتها الخيول وليس الثيران فقد تقدمنا ببطء: بادئ ذي بدء، بعد الأمطار شبه المستمرة تسببت حالة الطرق، لو استطعنا أن نطلق هذه التسمية على تلك المسارات الملتوية التي سلكناها وسط الحقول، في إعاقة تقدمنا، لكن عليَّ أن أقول كذلك إن رَكْبنا -الذي كان من المفترض أن يتألف في البداية من مجموعة صغيرة من العربات السريعة للمرور خلال النهار على خط الاستراحات المحاذية للنهر، واحدةً تلو الأخرى، والبعيدة عن بعضها بعضًا بفراسخ قليلة، حتى نصل أخيرًا، في غضون عشرة أو اثني عشر يومًا، إلى مبنى (الأسناط الثلاثة) الأبيض- قد تحول إلى قافلة مجدة، بطيئة للغاية وطويلة للغاية، يكبح تقدمها التردد المستمر، كمثل ثعبان حائر قليل الرشاقة، يحاول ذيله وبطنه مزاحمة رأسه في عملية قيادته. لا أعني بهذا أن أحدًا من أعضاء الرَّكْب الأصحاء جسديًّا وروحيًّا -إن كان لهذا التعبير معنى في ظل الظروف التي عشناها- قد سعى إلى استبدال السلطة الثلاثية التشاورية التي تشكلت مني أنا والرقيب لوثيرو وأوسونا، التي اضطررنا إلى أن نضيف إليها في بعض الحالات رأي رجل هندي رافق الجنود، بل أقول إنه، في مجموعة تضم ذلك العدد الكبير من الأشخاص -إذ كان مجموعنا ثلاثة وثلاثين- قد لا تتفق رغبات الجميع بحذافيرها على الدوام، خلال رحلة عُرف منذ بدايتها أنها ستكون طويلة وشاقة.

بخلاف العربات الست -واحدة لكل مريض بالإضافة إلى عربتي- التي قادها سائقون من شركة النقل وكانوا سيعيدونها من بوينوس آيريس إلى أسونثيون بشحنة مختلفة، فقد احتوت القافلة على عربتين أخريين مخصصتين لتلبية احتياجات الرحلة. استُعملت إحداهما مستودعًا ودكان بقالة ومطبخًا، وصاحبها -وهو باسكيٌّ يتجول في أمريكا منذ سنوات- قد جعل من مستودعه المتجول مهنة حقيقية. وفقًا لما قاله لي ذات ليلة، اعتاد أن يرافق فرق الجنود أو قوافل التجار أو المسافرين العاديين إلى البرازيل أو باراجواي أو سانتياجو دي تشيلي، على الجهة الأخرى من السلسلة الجبلية. اشتملت عربته على جميع أنواع البضائع، وأمكن رفع أحد ألواحها الجانبية وإسناده إلى قضيب حديدي يُثبَّت على الحافة السفلية للفتحة، ليصير مثل تَندةٍ مائلة إلى الخارج، تعرض رفوفًا حقيقية ونضد بيع ضيقًا، من ورائها تُباع الأعشاب والسكر والبسكوت والكحول والنبيذ والتبغ، أو الخيط والأزرار وكثير من الأشياء الأخرى، وإن لم يفِ ذلك بالغرض، فقد تراصت على النضد بعض المشروبات والشطائر الخفيفة من الجبن أو اللانشون. في أحد أركان العربة وضع فراشه المتواضع، ومرآة صغيرة معلقة في السقف اعتاد أن يحلق فيها ذقنه بعناية كل صباح. كان يعرفه كثير من أهل المنطقة وربما من جنوب القارة، ووفقًا لأوسونا فقد اغتنى من المراباة. في العربة الأخرى سافرت ثلاث نساء جعلنني أعتقد في البداية أنهن زوجات ثلاثة جنود يرافقنهم دائمًا في تنقلاتهم، لكنني لم أكد أراهن -فور بداية الرحلة- حتى أدركت أنهن ثلاث مومسات، وأن الجنود الثلاثة الذين ادعوا أنهم أزواجهن هم ثلاثة قوادون سوقيون. شرح لي الرقيب لوثيرو أن أولئك النسوة اللاتي يتبعن حملات الجنود في السهل ظاهرة شائعة في المنطقة، وأحيانًا قد يكنَّ زوجات حقيقيات، إن لم يكنَّ كلا الأمرين في الوقت ذاته. باستسلام مرده قلة طواعيتي، فكرت في أن ما أثار حيرتي كان سيشكل إغراءً للدكتور ڤايس، فذلك المزيج بين الزوجة والمومس الذي تحدث عنه الرقيب، هو على نحو

ما تجسيد لنموذجه الأنثوي المثالي. كانت إحدى تلك النساء الثلاث فرنسية وعلاوةً على ذلك شقراء، برزت من بين الاثنتين الأخريين صاحبتَي البشرة الداكنة والوجنتين الناتئتين والشعر الأسود الذابل، وتلك الملامح المعقوفة التي تجعلهم أشبه بالخادمات أو، إن شئت فقل، بالملكات والإلهات المصريات. على الرغم من شعرها الأصفر وبشرتها البيضاء، لم يخطر ببالي في البداية أن تلك المرأة قد تكون قادمة من فرنسا، لكنها ذات يوم سمعتني أصحح فرنسية ترونكوسو المختلطة، فخاطبتني بلكنة الأحياء الشعبية الباريسية التي لا تخطئها الأذن، الأمر الذي مثَّل تجربة غريبة لي لأن الكلمات التي نطقت بها المرأة بدت متنافرة مع ذلك المشهد التضاريسي، لكنها في الوقت نفسه منحتني الفرصة لممارسة لغة روسو وبوفون[1] في قلب الصحراء. جاءت إلى عربتي عدة مرات لتحكي لي عن التحولات اللامعقولة التي أودت بها إلى وضعها الحالي، لكن بعد محادثتين أو ثلاث اختلفت نسخها من القصة فبدأت أشكك في صحتها، وتدهورت علاقتنا تمامًا حين ألمحت لي ذات يوم، في الزيارة الرابعة أو الخامسة، بأنها في الواقع تعمل وأنني يجب أن أدفع لها ثمن تلك اللحظات التي قضيناها في عربتي وكأنها زيارات مهنية. كنت لأستشيط غضبًا من ذلك الوضع المخزي لولا وضوح فكرة أنه حتى وإن كانت الظروف الخارجية تشكل حياتنا، فهناك دائمًا شيء بداخلنا يجعلنا نغفل عن هذه الظروف ويميل إلى صبغها بلون إدراكنا المغلَّف دائمًا بشيء لا نستطيع حتى أن نفطن إلى كونه هذيانًا خالصًا. (فيما يخص أولئك النسوة الثلاث، عليَّ أن أقول إنهن تعرضن للهزيمة في أرضهن على يد الراهبة تيريسيتا، التي ترددت عليهن كثيرًا في البداية، لكنهن نبذنها في النهاية بسبب ما يمكننا تسميته منافسة غير عادلة). جاءت صديقتي الفرنسية المقربة ذات يوم إلى عربتي لتخبرني بأنها باغتت الراهبة الصغيرة مع جنديين، مستلقية بين

(1) جان جاك روسو الكاتب والأديب والفيلسوف الفرنسي، وجورج دي بوفون المؤرخ الطبيعي والرياضياتي وعالم الكون الفرنسي. (المترجم).

المروج على بعد مسافة معينة من المخيم. بدت المرأة وكأنها منزعجة وأخذت تكرر في كل لحظة وهي تهز رأسها: «تو لي دو، موسيوه، تو لي دو! سو نيه باه مالوغوه؟»[1] عندما حكيت القصة للدكتور ڤايس ذات ليلة بعد عودتي إلى (دار الصحة)، علّق ضاحكًا: «أحد أكثر الجوانب إدهاشًا لعلم اللاهوت هو الجهد الهائل الذي يبذله علماء اللاهوت لإعداد نظام يقوم على تجربة لا يمكن نقلها. أوقف القديس توما العمل على كتابة (الخلاصة اللاهوتية) في اليوم الذي خاض فيه، بعد كل تلك المشقة، تجربة روحانية حقيقية. يمكن لمسألة بأهمية اليقين بوجود الإله أن تتجاوز كل تفسير. لكن اللاهوتية، التي تُعد سياسة في جوهرها، لا تضايق أحدًا، بينما الصوفية -على النقيض- هي لاهوتية تجريبية، ولطالما اعتقدت أن تطبيقها العملي قادر على بث الهلع في الكنيسة و(البلاط) وبيوت الدعارة».

تألفت حاميتنا من ستة عشر جنديًا، بالإضافة إلى الرقيب لوثيرو الذي تولى قيادتهم والهندي سيريريه، وهو موكوڤي طيب إن أردت أن أذكر سمتين أساسيتين فيه، فسأقول إنهما التدين وكراهية الزعيم خوسيسيتو، لدرجة أن وجهه كان يكتسي بتعبير شرس لمجرد ذكر اسمه في حضوره. بدا أن أكثر المتطلبات الجنونية للكنيسة الكاثوليكية، التي لم تؤخذ حتى في روما على محمل الجد، قد وجدت في سيريريه تربة خصبة للتأصل والازدهار إلى حدٍّ هزلي. لا يشرب ولا يدخن ولا يقول كلمات بذيئة ولا يحلف باطلًا، وكفته أي ذريعة ليرشم الصليب ويقبّل ميدالية ذهبية صغيرة معلقة في عنقه. كان الرقيب لوثيرو، الذي في واقع الأمر احترمه لكونه مرشدًا جيدًا ولاستفادته منه مترجمًا، يقول عنه -في غيابه بالطبع- إنه ابتلع في صغره كتابًا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ولم يكمل هضمه بعد. حين يتحدث عن الزعيم

---

(1) وردت العبارة في النص بالفرنسية وفضلت كتابة المنطوق الصوتي لها حفاظًا على روح النص وسماته، ومعناها «كلاهما يا سيدي، كلاهما، أليس هذا مؤسفًا؟». (المترجم).

خوسيسيتو، تصبح أمارات الكراهية على وجهه مثيرة للقلق حتى يبدأ المرء -على النقيض- في الشعور بالتعاطف مع الموسيقي القاتل، الذي على الأقل كان يظهر بعض الإنسانية عندما يسكر أو يشرع في العزف على الكمان. لا بد أن مبادئه الصارمة مرت باختبارات قاسية خلال تلك الرحلة، التي لم تقتصر على الدعارة والكحول والهمجية لإضعاف ركائز أخلاقه، بل اشتملت كذلك على إضافة لا حد لها، وهي الجنون الذي من شأنه أن يهدم جدران ذلك المبنى عديم الأبواب والنوافذ الذي حبس فيه الدين روحه المختارة الجامحة. اعتاد أوسونا، الذي بدا مكوَّنًا من شخصين مختلفين اعتمادًا على كونه يقظًا أم ثملًا، أن يحترمه في النهار بسبب معرفته الحقيقية بالصحراء، ويبغضه في الليل.

تنوعت قافلتنا بكل الألوان: سبَقَنا جزء من الحامية واحتل الآخر المؤخرة. جاء مسكني المتنقل على رأسها، تليه مساكن المرضى الخمسة، ثم مستودع الباسكي، وأخيرًا عربة النساء. من بين قاطني العربات، وحدنا أنا وترونكوسو تحركنا على صهوة الخيل، هو على حصانه الأشهب الفارع العصبي شديد التوتر والحيوية، مكبوحًا في معظم الوقت بلجام قصير، مستعدًّا للركض في أي لحظة، حتى بدا كأنه قد أصيب أيضًا بذلك الداء الغريب الذي أصاب فارسه، الذي أبقاه في حالة من النشاط المفرط والمرضي والدائم. لم يختلف زي جنود الحامية عن بعضه بعضًا فحسب، بل إنهم ارتدوا ملابسهم بأكثر الطرق عشوائية، وإذا كانت بعض الأزياء العسكرية، الرثة الباهتة، قد نجت من عرض الأزياء المبرقشة ذلك، فإن عدم تجانس البقية أدى بها في النهاية إلى فقدان هويتها بالكامل. من هذا التنوع غير المتعمد -المعارض للتصميم الذي يقتضيه الزي العسكري في كل شيء، الذي يهدف إلى التكرار والنظام والتناظر-، انبعث رغم ذلك تأثير حيوي متساوٍ، يعود في أساسه إلى الألوان والرسوم الموجودة على الأقبعة، سواء أكانت سادة أم مخططة أم فاتحة أم

داكنة، بهُذُب أم من دونها، التي بدت في خواء الصحراء كأنها تكتسب وضوحًا إضافيًا، لا سيما في الأيام الأولى التي هبت فيها الرياح الجنوبية الباردة لتجعلها تنتفخ أو ترفرف على ظهور أصحابها. التمعت العربات قليلًا أيضًا في البداية، لأنها خضعت للتنظيف والتشحيم وإعادة الطلاء الجزئي بألوان الشركة من قِبل السائقين أنفسهم، لدى وصولهم من باراجواي. خلف آخر مجموعة من الجنود، انساق قطيع من الأحصنة البديلة وراء الفرسان الذين تناوبوا على هذه المهمة. وأخيرًا، تبعنا عشرة أو اثنا عشر كلبًا شريدًا بالإصرار نفسه والعوَز والنهم الذي تتبع به النوارسُ مجرّات السفن بحثًا عن الطعام.

كانت مسؤوليتي الأولى طبعًا -بصفتي الطبيب- هي الاعتناء بمرضاي، لكن من خلال بعض التلميحات من أوسونا، فهمت أنهم يتوقعون مني التصرف كقائد أو زعيم، لذا قررت الاعتكاف داخل عربتي لأفكر في الطريقة التي يمكن أن يظهر بها هذا السلوك بأكبر قدر من الوضوح، فتوصلت إلى نتيجة مفادها أن أفضل طريقة لفعلها تقوم على إبراز مسألة أنني من يدفع تكاليف بعثتنا، لكنني بعد ذلك فهمت أن أولئك المرتزقة رثي الثياب الذين أسميناهم حاميتنا، وكان بعضهم -من جاؤوا من كوريينتيس وأسونثيون- بالكاد يعرفون بعض الكلمات القشتالية لأن لغتهم الأم هي الجوارانية، يتوقعون مني أن أتخذ القرارات التي يقتضيها مسار قافلتنا غير المعتاد. ولما استحالت عليّ مسألة الاضطلاع بهذه المهمة من دون أوسونا ومن دون الرقيب، قررت أن أتبنى موقفًا متحفظًا وتأمليًا، دون استجابة فورية إلى الاقتراحات التي قدماها لي، متصنعًا بالأحرى أنني أفاضل بين مزايا كل واحد منها وعيوبه قبل اتخاذ قرار نهائي. يجب أن أقول إن مسرحيتي أثمرت عن نتيجة أكبر بكثير مما توقعت، لأن الشخص الذي بدا أكثر تشكيكًا في قدراتي، أي أوسونا نفسه، اتضح أنه الأكثر إيمانًا بها بين الجميع. وبعد سنوات عديدة، ظل يتحدث عني كرجل السهل، رغم أن ذلك لم يحدث في وجودي قط. في واقع الأمر،

لا أعرف هل فرضت سلطتي نفسها بسبب الرواتب التي دُفعت بالمبالغ وفي المواعيد المتفق عليها، أم بفضل سمعتي المهنية، لأنني استطعت بحقيبتي الصغيرة الملآنة بالأدوات الطبية وأدوية الطوارئ، أن أعالج كل العلل التي أصيب بها أولئك الرجال القرويون على مدار الشهر الطويل الذي استغرقته رحلتنا. نزلات برد وإسهال وجروح ودمامل ولدغات حشرات وحمى وآلام في الظهر وبواسير، هذا إن لم يتعلق الأمر بأمراض قديمة تُعد جزأ لا يتجزأ من كينونة ضحاياها، وتفاقمت مع رجرجات الرحلة، فلم يخل يوم واحد فقط لم يقصد فيه أحد أفراد الجاوتشو أولئك -صرت أحتاط في استعمال هذه الكلمة بعد ثلاثين عامًا، رغم اعتقادي بأنها فقدت معناها المهين الذي حملته في تلك الفترة- ليستشيرني بخجل وقلة حيلة.

بمجرد أن غادرنا المدينة باتجاه الشمال، سلكت حالة الشاب بروديثيو بارًا، كما أشرت سابقًا، مسلكًا غير متوقع من التطور: اختفت حالة الوهن التام الذي عاناه مستلقيًا في فراشه، بينما يبقي على قبضته محكمةَ الإغلاق ونظرته محدقةً إلى الفراغ، وعلى التجعيدات العميقة في جبهته ومفرق حاجبيه التي أضفت عليه ذلك التعبير الأليم الشاحب، وحل محلها شيء من الحيوية التي لم أجرؤ على تسميتها هكذا إلا بالمقارنة مع جموده الكليّ الذي استغرق شهورًا، الذي اتسم بسلسلة غريبة من الحركات التي أداها بيديه، وكررها بلا انقطاع حتى في أثناء الأكل الذي تناوله بلا مبالاة وإذعان. كان قد استقر على فراشه يحدق بنظرته إلى ظلام العربة، وبلا مبالاة لرجرجتها شرع يؤدي حركاته التي استطاع تكرارها لساعات بصورة متطابقة، كأنه آلة، ويلقي بين الحين والآخر نظرة بطيئة وحادة على يديه، تنتهي بابتسامة خفيفة ومؤلمة.

اعتاد أن يمد أصابع يده اليمنى ثم يقلصها ببطء، حتى يصنع من يده مخلبًا، لكنه ليِّن وغير مهدد على الإطلاق، ثم يواصل الحركة نفسها بعد توقف

قصير حتى يغلق قبضته تمامًا. وأخيرًا، بعدما تظل قبضته مغلقة لبعض الثواني، تغطيها اليد اليسرى وتضغطها بقوة. على مدار اليوم بأكمله، ودائمًا في حضور شخص ما، لأنه من الصعب معرفة كيف يتصرف الإنسان -سواء أكان مجنونًا أم عاقلًا- عندما يكون بمفرده، اعتاد أن يمارس تلك الحركات التي فاجأتني للوهلة الأولى، لكنني حين عدت للتفكير فيها قبل النوم اكتشفت أنها مألوفة لي وأنها، بلا سبب واضح، تذكرني بأقواس قلعة (ألكالاه دي إيناريس) ذات ظهيرة ربيعية مشمسة، لتثير في نفسي إحساسًا عذبًا. حين استيقظت في الصباح التالي، كان أول ما ينتظرني حينما تفتح وعيي، الذي أُغلق خلال الليل بمفاتيح النوم، هي الإجابة عن ذلك الانطباع الغامض بالألفة: في مادة الفلسفة درسنا كتاب (الأكاديمية) لشيشرون، وبسبب اقتراب موعد الامتحانات كنت أتجول مع صديق في شارع ألكالاه الرئيسي لنحفظ تلك الصفحة التي يصف فيها شيشرون كيف كان زينون الرواقي يعرض على تلاميذه المراحل الأربع للمعرفة: الأصابع الممدودة تعني التصور (visum)، وحين يثنيها تصبح التقبل (assensus)، الذي بفضله يتجلى التصور في أرواحنا؛ ثم بقبضته المغلقة، يُريد زينون أن يظهر كيف يؤدي التقبل إلى إدراك (comprehensio) تلك التصورات. وأخيرًا، يتجه بيده اليسرى نحو القبضة، يلفها حولها ويضغطها بقوة، ويُظهر تلك الحركة لتلاميذه وهو يقول لهم إن هذا هو العلم (scientia). جعلني الاكتشاف أقفز من السرير، وأرتدي ثيابي باستعجال وأهرع إلى عربة الشاب برودنثيو الذي، في تلك الساعة الباكرة، كان نائمًا بوداعة. استقرت يداه المفتوحتان فوق القُباع الرمادي الذي يغطيه، وراحتاهما إلى الأسفل. كان الجندي الباراجواياني الذي عهدوا إليه في أسونثيون برعاية الأخوين بيردي، لأنه كان ممرضًا في الجيش، والذي تولى مع أحد زملائه مهمة الاعتناء بالمرضى، قد أعدَّ له الفراش ببراعة، واستطعت مرة أخرى أن ألاحظ، كما فعلت عدة مرات في منزله، أن ليالي الشاب بارًّا -بالاستناد إلى حالة سريره كل صباح- لهي حتمًا من أهدأ ما

يكون. مكثت أنتظر استيقاظه، لأنني رغبت في رصد الكيفية التي -بالانتقال من النوم إلى اليقظة- تبدأ بها الآلية الغريبة ليديه في الحركة. بعد برهة من الوقت بدأ -كعادته- يفتح عينيه رويدًا رويدًا، ولم تشِ أي علامة خارجية بأنه انتبه لوجودي. أخذ يعتدل ببطء على السرير، وجفونه لا تزال نصف مغلقة، وبينما يسند ظهره إلى لوح العربة، شرع يمد أصابع يده اليمنى ويجهز يده اليسرى في الهواء حتى يتمكن، عند إتمام الحركات الثلاث الأولى في الدورة، من تنفيذ الحركة الرابعة -المتمثلة في تغطية القبضة اليمنى باليد اليسرى وضغطها بقوة- مرة أخرى. لطالما أصدر برودِنثيو خوارًا مثيرًا للشفقة كلما أرادوا انتزاع الخرقتين البيضاوين الأبديتين، اللتين برز طرفاهما من أذنيه، مما دفعني إلى إصدار أمر بتركهما، لكن الشق المذهل الممتد من وجنته إلى فكه -ساحبًا خده إلى الداخل- قد امتلأ قليلًا، وعلى الرغم من ذلك، بدا وجهه -الذي ظل شاحبًا للغاية- أكثر استدارة وصحة بعض الشيء. تظاهر بتجاهلي كالعادة، لكن شيئًا ما قال لي إن بقاياه المهجورة ربما في أحلك أرجاء الكون ترسل -من المكان البعيد الذي انعزل فيه منذ عدة أشهر للفرار من الصخب الذي احتل ذاته واحتل العالم في الوقت نفسه- إشارات بوجود حياة. إن التطابق الكلي لحركاته مع الإيماءات التي -وفقًا لشيشرون- استعملها زينون الرواقي لتمثيل مراحل المعرفة أمام تلاميذه، لا ينبغي التسرع في نسبه إلى مصادفة غير معقولة بين هذيان شاب مريض والصور التي صاغها أبو الرواقيين وهو في كامل عقله، كأن المنطق والجنون يُفضيان -عبر طرائق مختلفة- إلى الرموز نفسها، الأمر الذي قد يحدث أكثر من المتوقع، بل يمكن تفسيره بصورة أبسط بكثير، وهي أن الشاب بارًا في فترة قراءاته النهمة الفوضوية، قد عثر حتمًا في هذه الفقرة من كتاب شيشرون -بعدما نسبها إلى نفسه فورًا- على تفسير لذلك العالم المعقد الذي -دون معرفة السبب- استيقظت روحه الهشة ذات يوم، باستغراب وذعر، في خضم فوضويته.

لكن هذا النشاط المفاجئ للشاب بارًا -حتى وإن كان محدودًا وبطيئًا- انطوى على شيء أغرب، لم يتوقف عن جذب انتباهي واستطعت ملاحظته في ضوء تلك القاعدة الذهبية التي رسخها الدكتور ڤايس في ذهني، التي تنص على أن جميع أفعال المجنون، مهما بدت تافهة أو سخيفة، لها معنى: القبضة التي أبقاها برودِنثيو مغلقة بإحكام وإصرار منذ أشهر عديدة ولَّت، ولم يرضخ بفتحها إلا لقص أظفاره من حين إلى آخر، بعدما يلتقط أولًا باليد الأخرى -وبالحركة نفسها التي نصطاد بها ذبابة في الهواء لكنها أكثر رخاوة- نسمةً خفية يفترض أنها، حسب اعتقاده، قد فرت من القبضة المفتوحة، تلك القبضة التي تطلبت مجهود عدة أشخاص لفك أصابعها بعد وقت طويل، انفرجت لسبب غامض فور أن غادرت قافلتنا المدينة، وبدأت اليدان في أداء الحركات المتمهلة -لكن الدقيقة- التي وصفتُها للتو. أعتقد أنني ذكرت أيضًا مسألة اضطرارنا، بسبب الفيضان، إلى الصعود شمالًا لمدة يومين حتى وجدنا عند النهر منعطفًا ضحلًا بما يكفي ليسمح لنا بالعبور، وهكذا بمجرد أن بلغنا الشاطئ الآخر شرعنا نسير في الاتجاه المعاكس عبر ضفة النهر الغربية عائدين -إن صح التعبير- إلى نقطة انطلاقنا. أتاح لي ذلك الوضع فرصة التحقق من التفصيلة الأكثر إدهاشًا في سلوك برودِنثيو وهي أنه، على الرغم من أن قبضته تراخت بمجرد خروجنا من المدينة، فحينما بدأنا نعود إلى الوراء ونقترب من نقطة البداية، قبل أن ننعطف غربًا للتوغل في الصحراء، توقفت حركات يديه وعادت قبضته -بقوة بدت متجددة- إلى الانغلاق. كلما طال بقاؤنا في محيط مدينته، نظرًا إلى المسار الذي اتبعناه، اشتد إصرار قبضته، لكن بمجرد أن بدأنا نبتعد نحو الغرب بحثًا عن أراضٍ جافة قبل أن نتجه جنوبًا، انفرجت القبضة، واعتدل جسده في الفراش قليلًا، وعادت حركات اليدين التي عهدها تلاميذ زينون قبل ألفي عام تحت أروقة أثينا، لتظهر بانتظام وبصورة غير متوقعة. ثمة تفسير واحد بدا لي ممكنًا: إن كل مكان مجتزَأ من العالم لكنه فريد بذاته يجسد العالم بأكمله، وبهذه

الكيفية صارت مدينة الشاب بارًّا بالنسبة إليه خلاصة الكون الذي حاول فك ألغازه المعقدة بمساعدة قراءاته الهوجاء والفوضوية، حتى فقد عقله ذات يوم، لذلك عندما ابتعدنا عن مسرح الأحداث الذي وقعت فيه التجربة المدمرة تقلص الرعب، لكن عند اقترابنا مرة أخرى، أدى قرب المدينة المحملة بذلك الماضي الأليم إلى تفاقمه. (*يمكننا اليوم أن نعارض هذا التفسير الفلسفي للدكتور ريال بتفسير أبسط بل وأكثر احتمالًا: ما كان يبتعد ويقترب مع تغيرات الرحلة، وما أصاب ذلك الشاب المسكين بالجنون، ليس الكونَ الملغز ولا شيئًا من هذا القبيل، وإنما هو -كما يتضح- عائلته نفسها*. ملحوظة بقلم م. سولدي).

سيلاحظ المرء أنه، لكي نصل إلى مكان على مستوى نقطة انطلاقنا نفسه تقريبًا، تحتم علينا السفر لمدة أربعة أيام، وهو ما كان ينبغي أن يغطي -في الأوقات الطبيعية- ربع رحلتنا، بحيث نشد الرحال نحو الغرب في الصباح الباكر من اليوم الخامس، بحثًا عن أراضٍ جافة تسمح لنا بالسفر إلى الجنوب. هكذا، وفي بضع ساعات، بدأنا في التوغل داخل الجزء الأكثر استواءً وخواءً وفقرًا من السهل. هبت رياح جنوبية متواصلة وباردة على الرغم من السماء الصافية التي لم تظهر فيها غيمة واحدة، ضربتنا من الميسرة ونحن نخترق اليابسة، بينما هزت العشب الرمادي والجاف المتناثر على امتداد الأرض، الذي قلت كثافته بسبب الشتاء. ارتحلنا يومًا كاملًا لنبتعد عن الماء، نحو الصحراء القاحلة، وحين خيَّمنا عند الغسق، أمام شمس مستديرة، حمراء ومنخفضة وعملاقة، بالكاد تلامس حافة الأفق، وتُبرز بهالةٍ محمرَّة ومتألقة محيطَ الأشياء، راودني شعور حزين أكثر منه مفزع بأننا وصلنا إلى قلب العزلة نفسه. على الأرض المستوية التي سرعان ما سيحجبها الظلام، بدا لي لبضع لحظات أننا الشيء الحي الوحيد الذي يتلوى تحت تلك الشمس الغريبة الساحقة المزدرية. ساءلتُ بنظرتي دائرة الأفق بأكملها، دون استشعار أي

حركة سوى مَيَلان العشب المرتعش بضربات الرياح، ولا أي صوت سوى صفير الرياح الباردة التي هبت من الجنوب. وعلى الرغم من درايتي بأن تلك الصحراء لا تنبض بالحياة الحيوانية فحسب، بل أيضًا بالحياة البشرية البدوية المنعزلة، فإن العبق اللاإنساني للمشهد هو ما زعزعني. لم يسبق لي قط، سواء قبل هذه الرحلة أو بعدها، كأنني حاكم تلك الأراضي القاحلة والشمس الحمراء الهائلة والنجوم الطاغية التي تليها بعدة ساعات، أن تلقيتُ أخبارًا بهذا القدر من الوضوح عن الحالة الفعلية لكل ما ينمو ويدبُّ ويرفرف وينبض وينزف ويهتز بالتواءات عجيبة، وسط الآلية الملتهبة التي سيَّرتها الصدفة بلا سبب. أوقدنا نارًا متواضعة لندرة الحطب في بعض أنحاء السهل، وبعد الأكل اندسستُ في الفراش لابسًا نصف ملابسي للاحتماء من البرد، وعلى ضوء شمعة قرأتُ قبل النوم بعض الصفحات من فيرجيل.

طيلة فراسخ وفراسخ، تطابقت الصحراء مع ذاتها في كل جزء منها. لم يتغير شيء سوى الضوء: الشمس الدورية تطلع من الشرق، ترتفع ببطء وانتظام حتى تصل إلى سمت الرأس، ثم وبالدقة الطقوسية التي بلغت بها أعلى نقطة في السماء تنحدر غربًا، وأخيرًا وبينما يتضاخم حجمها ويشحب لونها الأحمر ويبهت تدريجيًّا، وهي تتألق بسطوع مألوف ربما في الفضاء اللانهائي لكنه غريب هنا في الأسفل، تغرق في الأفق وتختفي لتغطي كل شيء بسواد الليل الدبق، حتى تعاود الظهور بعد عدة ساعات من الشرق. ولولا تلك التغيرات في الضوء واللون التي تحدث نتيجةً لذلك الدوران الأبدي، لتوهَّم الفارس الذي يعبر السهل، في محاكاة حركية أشبه بالحلم، بأنه يعدو دائمًا في النقطة المكانية نفسها. (في الأيام الغائمة كان ذلك الوهم مثاليًّا ومقلقًا بعض الشيء). أما أصوات التحرك النمطية، بالعربات المغطاة أو المكشوفة أو على صهوة الخيل، التي تتطابق في تكرارها الممتد لفترات طويلة بسبب انتظام العوارض التضاريسية إن لم يكن غيابها، فقد بدت هي

الأخرى تكرر اللحظة نفسها إلى ما لا نهاية، كأن الشريط الزمني عديم اللون، الذي انحشر في تجويف العجلة التي يدور فيها أو من يدري ماذا أزاحه من موضعه، يرتعش متعطلًا عند نقطة ثابتة بسبب عجزه -الذي مرده جوهره المصنوع من التغير المحض- عن أخذ قسط من الراحة. كانت تلك الرتابة مخدرة، والأشياء التي قد تحدث في أغلب الأحيان -بعيدًا عن تقدم الفارس- لكونها من طبيعة المكان، تأقلمت في النهاية مع وهم التكرار ذلك، وإن كانت تلفت نظر المسافر بل وتثير فضوله عند حدوثها أول مرة، فإنها بعد فترة من الزمن صارت أكثر من مألوفة وتطفو -بصورة شبحية- إلى ما وراء التجربة، بل أحيانًا إلى ما وراء المعرفة. فالحياة التي تدب بين العشب منتظم الارتفاع على سبيل المثال، التي يعكر صفو هدوئها مرور عربة أو فارس، تلك الحياة النشطة المتنوعة التي يمكن أن تستحوذ على كيان أحد علماء الطبيعة، لا تمثل شيئًا للمسافر الذي لا يعبأ إلا بالرحيل عن تلك الحقول البائسة في أسرع وقت ممكن -وإن أثار ظهورها الأول اهتمامه بشكل ما-، سوى أنها بعد ساعات قليلة تستحيل جزءًا من الرتابة الأكثر تشابهًا: لو ظهر في طريقه أرنب بريٌّ يقفز فسوف تكون هي صورة القفزة نفسها التي تلتقطها عيناه دائمًا، وسيرى دائمًا المؤخرة المرفوعة للأرنب قصير الذَّنَب بصورة أوضح بقليل من بقيته، بينما لن يستطيع أن يبصر من رأسه -الغاطس في العشب- سوى طرفَي أذنيه بلمحة خاطفة. ولو تعلق الأمر بالسمَّان، فسيكونان دائمًا زوجين بريشٍ رمادي بين مخضَرٍّ ومزرَقٍّ له انعكاسات معدنية، وسيظهر الذكر والأنثى وهما يطيران جنبًا إلى جنب على ارتفاع العشب تقريبًا، ليختفيا داخله مرة أخرى ثم يعاودان طيرانهما القصير الأخرق قليل الحيوية لبضعة أمتار إلى الأمام. فرسخ وراء فرسخ، سيبدو على الصقور نفسها أنها تحوم حول الهيكل العظمي نفسه، وستظل الخيول البرية نفسها خلال رحلتها الشتوية ترعى في قطعان من خمسة عشر أو عشرين حصانًا -بهدوئها وأجسادها الصغيرة- على امتداد خط الأفق. وإذا ما ظهرت فجأةً سمة مميِّزة

للمشهد وجلبت معها التنوع وامتدت لعدة فراسخ، فهي في نهاية المطاف مجرد قطعة جديدة من التكرار، وتبدأ هي وجديدها على الفور بالتلاشي. وأما السهل فمثله كمثل البحر لا يختلف إلا عند حافتيه، بينما تُعد دواخله نواةً للتجانس. فلاتساعه وخوائه، كلما عرَض فيه عارضٌ توهم المرء -أو ربما تأكد- أنه عارضٌ واحد متكرر. وكلما وقع أمر خارج عن المألوف فإن شدته ووضوحه -سواء أكان عابرًا أم باقيًا- يجعلان دائمًا أثره الهائل إشكاليةً لنا.

بعد ثلاثين عامًا، حين أتذكر تلك الرحلة في ليالي (رين) المطيرة، عادةً ما أفكر: لا أحد سواي في العالم يعرف ما هي الوحدة، وما هو الصمت. ذات صباح بعد قرابة عشرة أيام من انطلاقنا، انفصلتُ عن القافلة مع أوسونا وعدونا بحصانينا لنحو ساعة نستكشف الأرجاء، متذرعين بزيارة لا أعرف أي مزرعة كانت، وهي مزرعة لم نعثر عليها قط بالمناسبة، وما زلت أشك حتى اليوم في أنها محض خيال وأن السبب الحقيقي وراء جولتنا هو خوف أوسونا المتزايد من أن نصطدم في أي لحظة بالزعيم خوسيسيتو. لم يكن يخشى فقدان الحياة بل فقدان سمعته دليلًا، إذ إن عمله يتمحور حول إيصالنا سالمين آمنين إلى وجهتنا، وإذا فشل في ذلك فإن حساسيته المفرطة ستعاني كثيرًا. كانت الساعة تناهز العاشرة صباحًا، ونظرًا إلى أن الرياح الجنوبية توقفت ولم تكن بالسماء سحابة واحدة تمنع ضوء الشمس من تدفئة الأرض، لاح في الأجواء -رغم كوننا في أوائل أغسطس- إعلان عن قدوم الربيع. في ذلك الصباح الصافي، ازداد سطوع الشمس بسرعةٍ بدا معها كأنني أنا وأوسونا نعدو، ليس باتجاه أي مكان في الأفق الذي على كل حال طالما بدا ساكنًا وفي الموضع نفسه، بل نحو النقطة المستحيلة من الزمن التي تتلألأ عندها الظهيرة بثبات ووهج. على شاطئ بحيرة ضحلة توقفنا لسقاية الحصانين ورأينا أنه نتيجةً لتلك البداية المبكرة للربيع وللرطوبة المناسبة للتربة، بدأت تتبرعم نباتات حديثة العهد، ومن أجل مراقبتها للتحدث عن ملاحظاتي عنها لاحقًا

مع الدكتور ڤايس، اقترحت على أوسونا أنه إذا وعدني بعدم التأخر كثيرًا، يمكنني انتظاره بالقرب من تلك البحيرة بينما يكمل استكشاف الأنحاء. شعر أوسونا بالإطراء من الاهتمام الذي أثاره فيَّ ذلك المكان -كأنه صاحبه- فوافق على اقتراحي فورًا، وبتصميمه المعتاد حيال الجانب العملي الذي استطاع إخفاء إلحاحاته الداخلية عن الذين لم يعرفوه جيدًا كما عرفته، توجه بحصانه نحو الجنوب الغربي. مضى يخترق الصباح بوضوح وكثافة، وقُباعه المخطط بألوان خضراء وحمراء يطفو حول جذعه المشتد ويميل إلى الخلف قليلًا ويتقلص بقفزات متقطعة كأنه ينضغط، ولما ابتعد بما يكفي لاختفاء صوت الحوافر، تحولت حركة عدو الحصان، من دون التعقيب الصوتي الذي يرافقها ويمنحها معنى مفهومًا، إلى وثبة غير حقيقية ورعناء قليلًا، تشبه تلك الدمى الورقية في حركاتها المفككة بصورة مبالغ فيها، التي يتحكم فيها شخص ما بخيط خفي وتهتز في الهواء بصمت حتى تنهار مبعثرةً على الأرض. قبل أن يبتلع الأفق أوسونا والحصان الذي يمتطيه، لأن ذاكرتي وحدها أصرت على تأكيد أنهما كيانان مستقلان، وبعد ذلك الانضغاط الذي تجلى مع القفزات المتتالية، تضاءل حجمهما حتى اختفيا فجأةً ودون أي تحول، ومهما استمرت العين في البحث عنهما بالقرب من الأفق، عند الشريط الأرضي الدقيق المظلم الذي انبلقت فوقه السماء الزرقاء المتماثلة اللانهائية كهاوية مضيئة، فهي لم تعد تبصرهما، ورغم أن العقل افترض أنهما لا يزالان هنالك، فهو لم يتمكن من لمح أي مؤشر ولا علامة ولا أثر لوجودهما أو لمسيرهما.

بقيت وحدي قريبًا من الماء. عند وصولنا، عبَّرت طيور الصارخ الجنوبي -وبخاصة الزقزاق- عن قلقها بصياحها اللحوح الصاخب. أخذت تتجول بتوتر على الشاطئ، دون أن تعطينا انطباعًا حتى بأنها تنظر إلينا، وتذهب وتجيء وهي تزعق وترتجف وتهز ريشها كأنما ترغب في نفض التهديد الذي يستدعيه وجودنا. منذ أن عبرنا النهر عند شمال المدينة وشرعنا في التقدم

عبر السهل، حظينا بفرصة لمشاهدة العديد من الحيوانات المختلفة وبعدد أكبر من المعتاد، وفي بعض الحالات ومع فصائل معينة، رأيناها في أماكن لم تعتد الوجود فيها. إن تلك الوفرة غير المعهودة سببها أن الفيضانات -بعدما غطت مساحات شاسعة- أجبرت الحيوانات على النزوح من أماكن عيشها المعتادة والاستقرار في المناطق اليابسة من الأرض. وعلى هذا النحو، رأينا تموجًا ثقيلًا وموحلًا من التماسيح التي انتقلت إلى الغرب مع الشاطئ المائي، وكمية غير عادية من السنوريات التي على الرغم من أنها تعيش بين الأشجار ووسط الأدغال، اضطرت إلى الهجرة من السهل المكشوف هربًا من المياه. ورغم تقدمنا داخل اليابسة وجدنا الحيوانات والنباتات مرة أخرى في مكانها المعتاد، وفي الضواحي الحدودية الغربية للفيضان كثرت الحيوانات بوضوح، وأدى التناقض الذي استدعاه وجود بعض الأنواع في أرض لم تعتد الظهور فيها، إلى إشعار المسافر بأن هذا الاختلال يصيب الحيوانات بنوع من التيه والقلق بل والذعر، إذ ينسيها سلوكها الموروث ويسمح لها -بعد انتزاعها من ذلك القالب قديم العهد- بالعيش في تلك الأراضي الأخيرة في انتظار أن يستأنف العالم مساره الطبيعي. كان احتواء مساحة بهذا الضيق على كل تلك الأنواع المختلفة التي تزحف أو تهيم أو تسبح أو تطير، ساكنةً في الماء أو ترفرف في الهواء، يضفي على المشهد مظهرًا مبرقشًا كمظهر التوزيع العشوائي للنماذج المختلفة على لوحة أحد علماء الطبيعة. عادةً ما بدت لي الحيوانات -منذ طفولتي- أنها هكذا كائنات مرسومة، ربما لأنه يستحيل علينا وضع أنفسنا في مكانها وتخيل ما يحدث في دواخلها، وفي الوقت نفسه لأن وجودنا يبث فيها -باستثناء الكلاب ربما- نوعًا من التجاهل نحونا كأفراد، وهو يكمن على حد سواء في الطائر المحلق عاليًا في السماء أو الحصان الذي نمتطيه أو النمر الذي يترقب التهامنا. وبصرف النظر عن تصرفاتها الخارجية المتعلقة بالبقاء على قيد الحياة فعقلنا لا يستطيع سبر أغوارها؛ إن حساب حركة أبعد النجوم لهو أيسر علينا من تخيل أفكار حمامة. تستطيع

مجموعة من الفراشات التي تتحرك جميعًا بالكيفية نفسها وفي الوقت نفسه وبلا خطأ يُذكر، أن تبرهن على فقر تصنيفاتنا إلى فرد ونوع، وقليلون هم من يعرفون معنى كلمة دقة إن لم يشاهدوا ذات مرة سربًا من الطير يحلق فوق حقلٍ في سماء الغروب الصافية، وهو يرسم بجماعية وسرعة وإحكام الأشكال المتنوعة نفسها. لا شك أن حجمها أصغر وحياتها أقصر وأكثر محدودية، لكنها أكثر كمالًا في كينونتها من الإنسان الناقص الأرعن. وفي عُزلة السهل تشتد صعوبة إدراك الأشكال الظاهرية التي ترسمها حتى تكاد تصبح وهمًا، فالأرنب البري الذي يظهر في طريق الفارس ويختفي بين العشب، يبدو ولا يبدو في الوقت نفسه وجودًا حقيقيًّا أمام الحواس وشبحًا عابرًا أمام الخيال.

في نهاية المطاف صمتت طيور الزَّقزاق التي ظلت تذهب وتجيء بصخبها على حافة البحيرة، ربما لأنها أدركت أن صياحها لا يبعدني، وتوارت في الأدغال لتربض بجوار أعشاشها المبنية على الأرض، ولمدة ثوانٍ اختفى من أمامي أي وجودٍ حي، على الرغم من معرفتي بأن الماء والشواطئ والبادية من حولنا كلها تنبض بالحياة. كانت البركة التي بلغ طول قطرها قرابة خمسين مترًا تعكس زرقة السماء، ومع امتزاجها باللون الرملي للماء خفَّت درجتها قليلًا ومالت إلى الاصفرار أو إلى اخضرار هادئ في بعض اللحظات. ترقرق ضوء شمس الظهيرة الساطعة على سطح الماء، وإذا ما هزته أي حركة مهما كانت بسيطة، تردد ظهور بريق عابر -أكثر تألقًا بعض الشيء- بصورة متقطعة، ثم هدأ وامتزج مرة أخرى بالاهتزازات المستمرة الموحدة التي تتأرجح في الماء. لم يوجد في نطاقي الخارجي سوى البحيرة الضحلة، والأفق القريب الدائري كأنه مرسوم بفرجار، والعشب الشتوي الذي لا يزال مائلًا إلى الرمادي ولا يمكن تمييز البراعم الربيعية وسطه من مسافة بعيدة، وبالإضافة إلى ذلك، كأنها ناقوس خزفي أزرق مثبَّت على الأرض جيدًا بقاعدة دائرية تتطابق بمليمتريةٍ مع دائرة الأفق، القبة السماوية ذات البقعة

الشمسية المضطرمة التي لم أستطع رؤيتها لأنني كنت مستديرًا باتجاه الغرب حيث اختفى أوسونا على صهوة جواده، وظلت تُحمي عنقي وظهري عبر سترتي. كان جوادي الذي ما زلت أمتطيه يتقلقل بحرارته وعرقه دون أن يتحرك، ربما في انتظار أمر مني. ربتُّ عنقه وظهره الرطب فردَّ بحركات متكررة من رأسه، ثم خلعت سرجه وأمسكت بزمامه وخطوت به نحو حافة البحيرة ليروي عطشه. ظل يشرب لبرهةٍ بهدوء وربما بوقار، ولما بدا مرتويًا أقام عنقه مرة أخرى وشرع ينظر بعيدًا، ربما نحو خط الأفق المحنيِّ الذي يمتد بانتظام فيما وراء البحيرة. لكنني، كما أعتقد أنني ذكرت سابقًا، وجدتُ صعوبة في أن أعرف إلى أين ينظر بالتحديد، وأن أتوصل خلال تلك السكينة التي تعكر صفوها بين الفينة والأخرى بعض الهزات الخفيفة المتوترة الشاردة، كأنه لا يعرف أنه يعيش في جسده ذلك، إلى استنتاج ما يراوده من أفكار، أو أيًا كان مسماها. بدأت أنظر إلى وجهه بتمعن إلا أنه -كأنما انتبه لذلك- لم يُدر رأسه نحوي ولو مرة واحدة، بإصرار واضح جعله يبدو كأنه يتعمد تجاهلي. انتابني للحظاتٍ شعور أكيد واقتناع تام وشبه فوري بأنه يتظاهر بأنه يعرف عن الكون أكثر مني، وبالتالي يدرك أفضل مني علةَ وجود الماء والأعشاب الرمادية والأفق المستدير والشمس المتوهجة التي يلمع تحتها جلده المتعرق. بسبب هذا الاقتناع وجدت نفسي فجأةً في عالم مختلف أغرب من العالم المعتاد، حيث لم تعد الظواهر الخارجية وحدها مجهولة بل وأنا نفسي كذلك. تغير كل شيء في لحظة، وانتزعني حصاني بهدوئه المنيع من مركز العالم ورماني بلا عنف إلى حافته. صرنا أنا والعالم شيئين آخرين، وفي قرارة نفسي، لم نعد إلى سابق عهدنا قط منذ ذلك اليوم، إذ إنني عندما أشحت بنظري بعيدًا عن الحصان ووجهته إلى المياه سماوية اللون، والعشب المائل إلى الرمادي، ورأيت الكبسولة الزرقاء التي تنغلق مرتكزةً على خط الأفق ونحن داخلها، أدركت أنه لا جدوى من عينيَّ في ذلك العالم الجديد الذي يولد أمامهما، وأن المشهد الغريب الذي يمتد من حولي، مكوِّنًا

من الماء والأعشاب والأفق والسماء الزرقاء والشمس المتوهجة، لم يُخلق من أجلهما. كان الصمت مخيمًا بحيث يمكن سماع كل ضجيج يخترقه مهما كان خافتًا، بوضوح وبكل أجزائه الصوتية المفككة: انزلاق حيوان بين العشب، أنفاسي بل ونبضات قلبي التي -فجأةً- بدا أن ثمة يراعة تحاكيها من بعيد، وبعض الأصوات المنخرية الغريبة والمكتومة التي شرع يصدرها الحصان بينما يهز رأسه في شرود. تبادرت إلى ذهني فكرة سخيفة: قلت لنفسي إنه بعد نفيي من عالمي المألوف، وفي وسط هذا الصمت المبالغ فيه، فإن الطريقة الوحيدة لتجنب الفزع تكمن في اختفائي، وإنني لو ركزت بما فيه الكفاية فسيُمحى وجودي الذاتي ساحبًا معه -إلى العدم- ذلك العالم الذي بدأت تتخلله الكوابيس. لكن وعيي المتمرد ظل يهمس لي بإصرار: «إن لم يتسبب هذا المكان الغريب في إفقاد الإنسان عقلَه فهو إما ليس بإنسان وإما مجنون، لأن العقل هو ما يولِّد الجنون». في الصباح المشمس الجميل بدأ الذعر يتملكني عندما رأيت، نحو الجنوب الغربي من الأفق، نقطة صغيرة آخذةً في النمو، تتحرك بصورة مبهمة في البداية وتتحول بعد قليل إلى رجل يمتطي جوادًا، حتى رأيت رفرفة قُباع أوسونا المخطط بالأحمر والأخضر، ثم بعد دقائق رأيت أوسونا نفسه الذي كبح جماح حصانه على بعد ثلاثة أمتار من حصاني وأخبرني بأنه، بعد إعادة النظر، قرر العودة للبحث عني حتى نتمكن من أخذ جولة أكبر دون الحاجة إلى المرور مجددًا على الأماكن التي استكشفناها بالفعل في طريق الذهاب. (بعد أشهر حكيت للدكتور ڤايس عن الانطباعات التي انتابتني خلال الدقائق القليلة التي قضيتها وحيدًا مع جوادي عند البحيرة. بدا على الطبيب تعبير جديٌّ وفكر لبرهة قبل أن يرد: «من بين المجانين والخيول وأنت، تصعب معرفة المجنون الحقيقي. إن وجهة النظر المناسبة مفقودة. فأما بخصوص العالم الذي يوجد المرء فيه، غريبًا كان أم مألوفًا، لا تزال تظهر المشكلة نفسها المتعلقة بوجهة النظر، ومن ناحية أخرى فالجنون والعقل متلازمان فعلًا. وأما بخصوص ما ذكرته من استحالة معرفة

أفكار طائر طنان أو حصان إذا شئت، فأريد لفت انتباهك إلى أن الشيء نفسه يحدث في أغلب الأحيان مع مرضانا: إما يستغنون عن اللغة، وإما يشوهونها، وإما يستعملون واحدة لا يفهما سواهم. لذلك حين نرغب في معرفة دلالاتها، نكتشف أنها عصية علينا كما في حالة الحيوان ذي اللغة الخاصة»).

ولأننا نتحدث عن المجانين، يبدو لي أنه يتحتم علي اللحاق بذاكرتي والعودة إلى مجانيني: الواضح أنهم يمثلون شغلي الشاغل، وأن وضعهم سالمين آمنين بين يدي الدكتور ڤايس، في ظل العوائق التي تعرضنا لها في طريقنا، كان أمرًا أكثر تعقيدًا مما تصورنا. من بين خمستهم، عرفت أن هناك ثلاثة لن يسببوا مشكلات كبيرة حتى لو تفاقمت علتهم فجأة، لأن زنزانة جنونهم الضيقة حبستهم عن العالم الخارجي، وإن تفاقم حالتهم لا يمكن إلا أن يجعل السجن الذي يعيشون فيه أضيق وأكثر ظلمة، ولا مبالاتهم أكبر وأكثر سلبية. لم تسعَ مونولوجات بيردي الأكبر في جوهرها -مهما بلغت حدتها- إلى إقناع أحد، وكانت الأصوات الفموية لبيرديثيتو مثل جدار رنان يبقيه بمعزل عن العالم، ناهيك بالشاب بارًّا الذي، إحقاقًا للحق، بعد عدة أشهر فقط من دخوله إلى (دار الصحة)، وافق بلا تباكٍ على الخروج لأول مرة من السرير (وبعد عام من الغرفة). وبقدر ما كانت مستفزة، فإن العبارة الوحيدة التي قالها بيردي الأكبر -«صباحًا ومساءً وليلًا»، كما يتذكر المرء-، التي تناولت جميع موضوعات الحديث والنقاش بل والتنوير الأبوي لمحاوريه، مثلت في واقع الأمر فورة جنونه، ولم يفعل أي تغير في حالته إلا التقليل من شدتها إلى أقصى درجات الكآبة. أما بيرديثيتو فصحيح أن الصعوبات زادت من عصبيته ومعزوفاته الفموية وصممه، لدرجة اضطرار المرء إلى تكرار أبسط العبارات الموجهة إليه عدة مرات، لكن من جهتي فإن المشكلة الأساسية هي التصاقه بي كظلي وعدم شعوره بالأمان إلا بجانبي، الأمر

الذي سهَّل مراقبته من ناحية، لكن من ناحية أخرى تسبب في نفاد صبري، وبالتبعية جعلني أعكر صفو سكينته.

كانت الأخت تيريسيتا وترونكوسو هما من أثارا قلقي حتى من قبل رحيلنا، لأن السيطرة عليهما صعبة بعكس الآخرين، فكما يحدث غالبًا مع نوع معين من المجانين، بدلًا من الانغلاق على أنفسهم يؤمنون إيمانًا عميقًا بمشروعية هذيانهم، ويناضلون من أجل جنونهم رغبةً في فرضه على العالم بأي ثمن. أما الراهبة الصغيرة فكانت مقتنعة بأن المسيح بعد القيامة قد أخذ الحب الإلهي إلى السماء وفصله عن الحب البشري، ولم يترك إلا شراراته متناثرةً بين البشر، وأن مهمتها هي الجمع بينهما مرة أخرى عن طريق الفعل الجسدي، ليمتزج الإلهي بالبشري مجددًا. إن (دليل الحب) الخاص بها صريح للغاية في تلك النقطة، وإذا ما تفككت أفكارها في الصفحات الأخيرة لتفسح المجال لقائمة هوجاء من المفردات البذيئة، ففي الجزء الأول من أطروحتها ثمة بيان عقلاني لمذهبها، حتى إذا تبنى المرء للحظة وجهة نظرها اللاهوتية لوجدها متينة بكل تأكيد. وبما أن اللاهوتيين يسمون اللاهوت التأملي والعقلاني المحض إيجابيًّا، واللاهوت الصوفي حسب اعتقادي سلبيًّا، يمكننا تخيل أن الأخت تيريسيتا في خضم كتابتها لـ(دليلها) اكتسبت قناعة -مثل القديس توما- بوجوب تنفيذ الوصايا التي تلقتها من المسيح في بيرو العليا، وإن صحت هذه الفرضية فإنها ستلقي بضوء جديد على سبب وجود الجزء الأخير من أطروحتها. في جميع الأحوال، أثار وجود الأخت تيريسيتا اضطرابًا في قافلتنا بلا أدنى شك، والمعضلة الرئيسية التي واجهتني هي محاولة إبعادها عن الجنود دون حبسها في عربتها: كانت هناك احتمالية لوجود تناقض بين مسألة حبسها في أثناء الرحلة ومسألة أن المرضى في (الأسناط الثلاثة) -عدا استثناءات نادرة جدًّا- يمكنهم التجول في المنشأة بكل حرية. تمثلت إحدى مشكلاتي الأخرى في معرفة إلى أي مدى يعي أعضاء القافلة، من السائقين

والجنود والمومسات، بنوع الهذيان المسيطر على الأخت تيريسيتا، وعلى مدار أول يومين أو ثلاثة توهمتُ -دون أي مبرر طبعًا- بأن أحدًا لا يعلم بالشطحات الإيروتيكية للراهبة، حتى رأيت ذات مساء مجموعة من الجنود بالقرب من حانة الباسكي، وقد كوَّنوا دائرة بدا أفرادها ينصتون باهتمام وجدية عميقين لشخص يتحدث داخلها. اقتربت بفضول لأتحقق من ماهية الأمر، ومن فوق كتف أحد الجنود استطعت رؤية الأخت تيريسيتا وهي تضيق عينيها بحنق وتخفض صوتها كأن الأمر سر رهيب، بينما تكشف للجنود أنه «لو كان المسيح قد صُلب فلأنه امتلك...»، وأرفقت كلماتها بحركة أعرفها بالفعل. حين رأت وجهي المذهول من فوق كتف الجندي المسحور بكلمات الأخت تيريسيتا -تمامًا كبقيتهم جميعًا- ولم ينتبه حتى لوجودي، أغرقت الراهبة الصغيرة في الضحك، وبمهارة لا تزال تجعلني أبتسم حتى اليوم حين أتذكر الأمر، أخرجت لسانها ومررته بلذة مصطنعة على شفتيها شبه المعدومتين، واستبقت ندائي فخرجت من دائرة الجنود ورافقتني بإذعان إلى عربتها. لم نعلق على الأمر بأي صورة، وجرى كل شيء بطبيعية، لكن ما أبهرني بعمق بل ودفعني إلى التفكير هو الجدية -لكيلا أقول الصرامة- التي استمع بها الجنود إليها. كان جليًّا أنهم لن يشككوا للحظة واحدة، ولبقية حياتهم، في أن الراهبة الصغيرة كشفت لهم للتو عن سبب الصَّلب الحقيقي.

وأما ترونكوسو، فقد تبين أن المضاعفات الناجمة عن تطور حالته أكثر خطورة بمراحل، إلى حد تعريض حياة أعضاء قافلتنا وممتلكاتهم للخطر، وهو ما أثبت مرة أخرى -كأن العالم ينقصه ذلك التكرار- أن الهذيان أقدر من الإرادة -سواء شاء الفلاسفة أم أبَوا- على توجيه مسار الأحداث وفق هواه. من قبل رحيلنا، رأيت هياج ترونكوسو يتزايد بصورة لا يكاد يشعر بها المرء في البداية، وقد تجلى في صورة ضغينة صماء نحوي، ودفعه بالذات إلى منافستي في نطاق تنظيم القافلة وقيادتها، وهي مسؤولية -كما أعتقد أنني

ذكرت سابقًا- تشاركتها مع أوسونا والرقيب لوثيرو. منذ لقائنا الأول في منزل السيد بارًا، وهو الظرف الذي تحتم عليَّ فيه إبراز سلطتي أمامه وأمام رجاله تحسبًا للصعوبات التي عادةً ما ينطوي عليها تفاقم الهوس، ولأن رحلة كالتي نوشك على خوضها تستطيع أن تضاعفه، ظل ترونكوسو يتأرجح في مشاعره تجاهي بين الخوف والحقد، والحصافة والخبث، والاحترام والاستياء. لكن على الرغم من ازدرائه الذي لم يخفِه كثيرًا، وعلى الأرجح لم يثنه عن إضافة لا السخرية ولا الافتراء إلى ما سبق، فهو لم يكن سوى مريض عندي، ولأنني طبيبه فإن صحته وشخصه يقعان تحت مسؤوليتي، دون النظر مطلقًا إلى تصوره عني ولا إلى المشاعر غير المطمئنة التي يبثها فيه هذا التصور. حين كنا لا نزال في المدينة، اعتاد ترونكوسو أن يأتي ويتصرف -ربما بتعمد مربك- في حدود ما يمكنني أن أتساهل معه بصفتي طبيبه. ففي محادثاتنا اليومية أمليت عليه تعليماتي بشأن المسموح له بفعله، فيما يتعلق بنزهاته وسلوكه العام ونظامه الغذائي ونظافته الشخصية وانضباطه اليومي وما إلى ذلك، وقد احترم تلك التعليمات على الرغم من كونه دائمًا على وشك عصيانها كما ذكرت من قبل، لكننا لم نكد نبدأ رحلتنا حتى اضطربت طبيعته الحادة أكثر من المعتاد، فخشيت انفجاره في أي لحظة، وهو أمر لم يكف عن الحدوث. إن نشاطه الاستثنائي الذي لم يجد الكثير لتفريغه فيه وسط رتابة السهل، منعه من الاستراحة في العربة كغيره من المرضى، ومهما كانت الساعة التي أخرج فيها صباحًا بعد الاستيقاظ وارتداء ملابسي، اعتدت أن أجده ممتطيًا حصانه الأشهب يهرول في الأرجاء ويصيح في الجنود أو السائقين الذين لم يبد أنهم يفهمون دائمًا معنى سخريته وأوامره وهتافاته. كان فارسًا مذهلًا يتصرف كمن نسي أنه يمتطي جوادًا، لكن دون ارتكاب أي خطأ قط، وبدا أن الحيوان الذي امتطاه لا يبالي هو الآخر بفارسه، وأن كل ما يفعلانه في الوقت نفسه، من مشيٍ أو خَبَب أو عدوٍ أو ركضٍ أو توقفٍ مباغتٍ أو ارتدادٍ أو قفز، ليس نتاجًا لأمر ضمني أعطاه الإنسان للحيوان، بل للصدفة العفوية التي

تكاد تكون سحرية وتُظهر تناغمًا خارجيًّا -عبر تصادف ممتد- بين الحركات العرضية لإرادتين تركزان على نفسيهما وتجهل إحداهما الأخرى. لقد تغلبت مهارته في الفروسية على تحفظ الجنود الذين -على الرغم من غرابة أطواره- أذعنوا لاحترامه، ومع الولاء الخاضع من قِبل نياتو، تعقدت مهمتي في الرقابة عليه. لم تكن العلامة الواضحة على سوء حالته هي وحده النشاط المحموم الذي مارسه طيلة الوقت -ليلًا ونهارًا- بلا أي هدف عملي، إذ إنه لم ينم تقريبًا ولم تظهر عليه أي علامات التعب، بل هي كذلك مسألة أن مظهره الخارجي -ملبسه ولحيته وشعره- أخذ يتدهور، ولم يكن يغير ثيابه ولا يحلق لحيته بل ولا يستحم، ونتيجةً لذلك امتلأ بنطالهِ وسترته بالبقع وحتى بالتمزقات، وصار قميصه الأبيض المكشكش، الذي كان شديد النظافة حين أتى إلى المدينة، ممتلئًا بالتجاعيد ولا يمكن تحديد لونه. لطالما ظهرت فقاعات صغيرة من اللعاب الرغوي عند مقرن شفتيه، وإن كان ثمة شيء يناقض الحمى الحركية المنتشرة في كامل جسده الذي لم يستطع السكون في أي مكان، فهو ثبات نظرته التي قطعتها خطوط دموية متعرجة أدت إلى احمرار عينيه المحتقنتين. في بعض الأحيان، عند الغروب، كان ينزل عن حصانه ويتجول بصرامة بين العربات المتوقفة، إذ يخطو خطوات نشيطة واسعة، بصدر منتفخ ورأس مرفوع وشعر أشعث وبشرة مسمرّة من الشمس التي يزداد تأججها في السماء يومًا بعد يوم. قد يكون في يده كتاب يقرؤه بصورة متقطعة دون أن يتوقف عن المشي، وإذا توقف عن القراءة أو عن التظاهر بالقراءة، لا يحرم نفسه من إخراج أفكاره للعلن بالهتافات أو القهقهات أو الملاحظات المزدرية وغير المفهومة التي يوجهها -في أثناء مروره ودون أن يتوقف- إلى عضو آخر في القافلة قد وجده في طريقه. أتى لرؤيتي مرتين أو ثلاثًا ليطالب بإجراء تعديلات على مسارنا، من شأنها -حسب قوله- أن تساعد في تسريع وتيرة الرحلة، لكن بصفة خاصة ليشكو من احتواء القافلة على المومسات الثلاث والراهبة -التي أطلق عليها، بابتسامة صغيرة ساخرة، لقب

«العاهرة الأم»-، زاعمًا أن أحد بنود العقد المبرم مع عائلته لتحديد شروط علاجه، ينص صراحةً على أنه لا ينبغي للمريض أبدًا أن يخالط أشخاصًا ذوي أصل اجتماعي متدنٍّ أو أخلاق مشكوك فيها. اعتاد أن يرسل إليَّ كل يوم برقية مع نياتو لم أكن حتى أرد عليها كما هو واضح. استهلك خطابه المخبول أحيانًا عدة صفحات، واقتصر أحيانًا على جملة واحدة للوهلة الأولى بدت بلا معنى، وبعد عدة قراءات بمعانٍ كثيرة مختلفة، ولاحقًا -في الذاكرة، إذا فكر المرء فيها جيدًا- بمعنى دقيق لكنه ملغز يستحيل كشفه، حتى وإن توهم القارئ أنه استطاع تخمينه. سعى ذلك الهراء المتصل إلى أن يصبح برنامجًا سياسيًّا واسع النطاق لا يهدف إلى تغيير أسس المجتمع فحسب، بل أسس الكون أيضًا. وفقًا لتلك الخطابات كان لا بد من عزل الملك، وعدم الاعتراف بصلاحيات النيابة الملكية، وإعدام سلطة روما بالمقصلة، وبالإضافة إلى ذلك -أنقل ذلك المطلب الأخير حرفيًّا- «الإبطال النهائي للامتيازات الموروثة والعرفية للشمس ونجوم السماء الأخرى، لافتقارها إلى أي أساس سوى حكم العادة والاستعباد الروحي للشعوب». قامت المرحلة البنَّاءة من برنامجه على إنشاء اتحادية من قبائل السكان الأصليين في القارة، ولتجنب إثارة الحساسيات بينها، إسنادها إلى عاهل لا ينتمي إلى أي منها، يضطلع كذلك بدور الممثل الأعلى لدين جديد، كنوع أقرب إلى الملك-الكاهن المنوط به تطبيق التشريعات المتعلقة بالمنظومة الاجتماعية والحياة الدينية، وفي الوقت نفسه يكون قائدًا عسكريًّا وأبًا روحيًّا للمجتمع الجديد. غني عن القول إن سمات تلك الشخصية البارزة، بالنسبة إلى من يقدر على فك رموز النثر المتشابك في نشراته، اشتركت في أكثر من نقطة مع سمات المؤلف، الذي يسوقه هذيانه المتزايد نحو الإصرار على تصور نفسه سيدًا شرعيًّا للكون. إن تركي لرسائله من دون ردٍّ أفقده صوابه، لكن كان سيصبح خطأً من جهتي أن أمنحه أدنى دلالة على أن حماقاته قد تؤخذ على محمل الجد. ودفاعًا عنه، عليَّ الاعتراف بأنني خلال حياتي الطويلة، شهدت في السنوات الأخيرة حدوث

أشياء في كل من أوروبا وأمريكا، تمامًا كالتي عرفتها بفضل قراءة تاسيتس أو سوتونيوس في القرون المفجعة التي سبقتنا، وهي تخاريف ترونكوسو نفسها تتحقق على أرض الواقع، وتزدهر هذه المرة حتى تبلغ أهدافها المختلة، التي ليست سوى سحق آمال العالم بكعبٍ دموي من منطلق النزوة الخالصة والتقدير المفرط وغير المبرر للذات.

الحقيقة هي أنه حتى بالنسبة إلى أكثر الملاحظين شرودًا، أخذت حالة ترونكوسو العقلية تسوء يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة. عمليًّا لم يعد ينام؛ لم تكن هناك جدوى من محاولة حبسه في العربة لأن ذلك يزيد من ضراوته، لذا قررت أن أتركه حرًّا تحت مراقبة حذرة من الممرضين ومني كذلك، وقد استلزم وحده عشرة أضعاف عنايتنا بالمرضى الأربعة الآخرين مجتمعين. اعتاد أن ينهر الشمس كل صباح عند طلوعها، إذ يذهب ويجيء في خط وهمي قصير، موليًا وجهه دائمًا إلى القرص الأحمر الذي يرتفع ببطء من عند الأفق، ويخاطبه بينما يرفع ذراعيه ويحركهما نحوه، لكن دون أن ينظر إليه مباشرةً (حاول فعلها عدة مرات لكنها دومًا عند الظهيرة، فاستحال عليه مواصلة النظر لمدة طويلة، بينما يمتلئ وجهه المسودُّ كثير الإيماءات بمسارات متعرجة من العرق الذي يبلل رقبة قميصه وظهره). حين تنطلق القافلة في الصباح، يمتطي جواده الأشهب ويعدو إلى الأمام حتى يكاد يختفي في الأفق، لكننا نراه يعود على الفور بينما يتصبب العرق من شعر حصانه الأردوازي، وتبرز عروقه، ويخفق جسده بالكامل. بدا أن هياجه يزداد مع ارتفاع درجة الحرارة، وأنه في تلك الأيام -بعد خمسة عشر يومًا من رحيلنا- أصبح مستفزًّا. عجِبَ الجميع لرؤية النشاط الجنوني لترونكوسو من ناحية، ومن ناحية أخرى مقاومة الحصان المجبَر، في ظل هذا المناخ المفاجئ القاسي، على الخضوع لجميع النزوات العصبية المباغتة لفارسه. يعتقد كثير من الناس أن الجنون مُعدٍ: إن صح الأمر فليس لأن المحيطين بشخص مجنون يصابون بأعراضه

نفسها، بل لأن الجنون يقرض ويُتلف من يضطر إلى التعايش معه، لدرجة أنه يُظهر عليه أعراضًا خاصة كانت لتظل خاملة في الأوقات العادية، ولأن ذلك التلف يحدث عبر وسائل عصبية، دون أن يتدخل عقل أو إرادة ضحيته بأي صورة، فلن يكون غريبًا أن يصاب حصان ترونكوسو نفسه بالجنون من كثرة التعايش معه. الحقيقة أنه خلال ذلك الوضع الحرج في حد ذاته وقع أمر خشيناه بالفعل من قبل الرحيل، إلا أننا آثرنا عدم حدوثه: تعثر بعض المسافرين بعصابة خوسيسيتو أو أيًا من كان، وشاءت الظروف التعيسة أن نعثر على رفاتهم.

كانت مذبحة طازجة استغرقت أربعة أو خمسة أيام على أكثر تقدير، لكن لم يكد يبقى شيء من الجثث الست المبعثرة في البادية: تنازعت صقور الشِمانجو والأشبور المتوَّج والنسور الرومية والبُغاث الأسود مع الكلاب البرية على تنقير البقايا الوفيرة التي تركتها السنوريات حتى نظفتها بالكامل، تاركةً العظام والقليل من الشعر والأظفار، والآن تتولى حشود من النمل الأسود والأحمر -في عجلة خرقاء عنيدة- مسألة نسائر اللحم الدقيقة الجافة التي تنازلت عنها قطعان الحيوانات الأقوى والأسرع، التي ظهرت من العدم واختفت فيه مرة أخرى. كذلك الهنود تركوا كل ما لم يستطيعوا حمله لحيوان أشرس من بقيتهم جميعًا: النار. أشارت دائرة كبيرة من الرماد الذي كسر عشبية المشهد الممتدة، إلى المكان الذي اشتعلت فيه النيران: عند إزالة الرماد وجدنا قطعًا حديدية ملتوية وقطعًا خشبية ذات طرف سليم وآخر مسوَدٍّ حيث اضطرمت الشعلة، ولذلك سَهُلَ تفتيتها بالأصابع. باستثناء الأجزاء القريبة من المفاصل التي ظلت محتفظة بنسائر من اللحم ولهذا اكتظت بالنمل، فقد ابيضت العظام تحت شمس الصباح. في الأيام الثلاثة أو الأربعة، انتقلوا من شبكة اللحم والدم التي صارعوا أنفسهم داخلها، من نبضات الشك والعاطفة التي نخرتهم بإلحاحها المستمر، ووصلوا أخيرًا، من خلال البساطة البيضاء

للعظام، إلى ثبات الأشياء الكونية، وتحرروا من الخداع المضني لما هو خاص، بمرورهم أولًا من الذاتية إلى الشيئية، والآن بعد اكتشافهم مرة أخرى من قِبل أعين بشرية، تحولوا من الشيئية إلى الرمزية. إن كان بعض الجنود قد رشموا الصليب ونحن ندفنهم، فوحده الهندي سيريريه هو من فكر في الصلاة، لكن عينيه التهبتا في أثناء فعلها. لا بد أن الإله الذي يخاطبه -بلا شك- كيان مزدوج قادر على أن يستقبل في آن واحد تواضع ابتهالاته وحمية أفكاره، ويبدو أن جرائم خوسيسيتو تبلغ عنده منطقةً أعمق من التعاطف أو الأخلاق، حيث تكمن إهانة مضادة لإهانة الزعيم، وإن لم يقبل خوسيسيتو بالاعتراف بالتفوق المتعجرف للمسيحيين، فربما ما لم يستطع سيريريه تحمله هو أن يكون مختلفًا عنهم. انطوى ذلك التماثل على تناقض لا يقبل التوفيق، وأنا متأكد من أن خوسيسيتو كان ليواجه كراهية سيريريه بأعنف احتقار.

لكن تأثير اكتشافنا المأسوي بدا أقوى على ترونكوسو. كثيرًا ما يحاول المجانين أن يظهروا بمظهر طبيعي، كأنهم يتمتعون بوعي ملتبس بتناقضاتهم في الوقت نفسه الذي يستشعرون فيه ارتيابية محاوريهم، لكنهم لا يستطيعون إلا أن يتركوا فيمن يلاحظهم انطباعًا بالتصنع، لكيلا أقول بالتمثيل. كان هذا الانطباع شائعًا أمام مرضى عديدين، وملحوظًا في حالة ترونكوسو، وزادت جثث المسافرين المساكين الشهداء من حدته. ومع أنه امتنع عن المشاركة في مراسم الدفن، فإن اضطرابه لم يتوقف عن التزايد، وهو ما حاول التعبير عنه بكل الوسائل، كأنه يحذرنا من أن اكتشافنا الأليم يعد تأكيدًا واضحًا لكل سخافاته. على الرغم من أنه بقي على مسافة بعيدة، لم يتوقف عن التحديق إلينا بنظراته الاستنكارية، لكيلا أقول المزدرية، التي أضاف إليها تعبيرًا حازمًا ارتسم على ملامحه بشكل مبالغ فيه، كأنه يرسل إلينا رسالة. أمام خلفية السهل اللانهائية، ممتطيًا حصانه الأشهب، وبشرته مسودَّة عند أجزاء وجهه التي لم يغطها الشعر واللحية الأشعثين

اللذين وخطهما الشيب، يتصبب عرقًا ويأتي بإيماءات من وجهه، بدا كأنه أحد هؤلاء الأبطال الرومانسيين الشرسين للغاية والمبالغ فيهم بفضل الوسائل الاصطناعية لأجهزة الخداع البصري، وينتفض لهم جمهور شديد السذاجة في مسارح ميلانو أو باريس. وكأنه لم يجهل أن الفعل «يهذي»، إذا عدنا إلى أصوله اللاتينية، يعني «الخروج عن الخط أو المسار»، ففي تلك الليلة نفسها وبالاعتماد على التراخي المتواطئ لنياتو، وضع ترونكوسو ذلك الاشتقاق اللغوي موضع التنفيذ.

في صباح اليوم التالي جاء نياتو، تنفيذًا لتعليمات سيده، ليسلمني آخر رسالة مكتوبة من ترونكوسو. ملأ خط يده المتباهي والمبعثر صفحتين كاملتين من الهراء المفكك بأقصى سرعة، برزت من بينها نيته المخبولة في الذهاب للقاء خوسيسيتو من أجل إقناعه باستسلام غير مشروط، ليسهم هكذا في إنشاء اتحادية قبائل أمريكا الجنوبية في دولة مستقلة واحدة. عندما أنهيت قراءة ذلك الهراء المحموم ورفعت نظري بسخط، وجدت نياتو يطالعني بنظرة خبيثة ومتشفية، ففهمت من ذلك التعبير أنه هو وترونكوسو تمكنا أخيرًا من الإفلات من رقابتي الاستبدادية. لمدة ثوانٍ فقدت السيطرة على نفسي من شدة الغيظ، ونسيت التزاماتي بصفتي رجلًا متحضرًا فأمسكت بنياتو من كتفيه وشرعت أرجه بعنف لدرجة أن المنديل الأحمر -ربما لأنه كان سيئ الإحكام بسبب التوقيت المبكر والعجلة التي أتى بها ليجلب لي نشرة ترونكوسو- انزلق إلى الخلف وسقط على الأرض، كاشفًا رأس نياتو الأصلع تمامًا. أربكتني المفاجأة لثوان، ولأن صيحاتي بدأت تجتذب أشخاصًا كانوا نائمين بالقرب من عربتي، فقد قطع الموقفَ المأسوي فاصلٌ هزليٌّ لأن صلع نياتو هو ما لفت أنظار القادمين أكثر مما فعل غيظي، وفي تعبيرات العديد منهم بدا أنني ألمح اعتقادًا عابرًا بأن ذلك الصلع هو سبب الفضيحة كلها. (أكد الدكتور ڤايس أن المأساة الخالصة لا توجد إلا في نطاق الفن،

وأنها في الواقع -حتى في أفظع جوانبها- ستأتي دائمًا مخففةً بعنصر هزلي أو مضحك أو حتى سخيف).

تأمل موقفي: عهدت إلينا عائلة بأحد أفرادها المرضى الذي مثلت له (دار الصحة) التابعة للدكتور ڤايس آخر أمل في الشفاء، وقد تركته يهرب من رقابتي -بعد أسابيع قليلة من تحمل مسؤوليته- في وسط البادية للقاء عصابة من الهنود الهمجيين. وبما أنه يسبقنا باثنتي عشرة ساعة، ونحن نعي أنه وحصانه لا يباليان بالإرهاق، فليس من عظيم التشاؤم أن نفكر في أنه لحق فعلًا بخوسيسيتو ورجاله أو أن الهنود، بالغريزة نفسها التي تباغت بها الحيوانات فرائسها بنجاعة، قد خمنوا بالفعل وجود الغريب في الأرض الخاوية وانقضوا عليه. خرجنا أنا وأوسونا، تحرسنا حامية من عشرة جنود، للبحث عنه في ذلك السهل اللانهائي، حيث أعادت بداية الربيع خضرة المروج في يومين أو ثلاثة، وشرع الصيف الحار المفاجئ في تحويلها إلى صفرة. في الأيام التي استغرقها البحث لم يكن ترونكوسو وحصانه الأشهب هو ما توقعنا العثور عليه، بل عظام القارس العارية المبيضّة تحت أشعة الشمس في البادية المهجورة. حين فقد عِلمُ أوسونا أثره كان صبره هو ما عثر عليه مجددًا بعد بضع ساعات. لكن بدا أن طاقة ترونكوسو الجنونية، التي نقلها كذلك إلى حصانه، تضاعف عدد الساعات التي يتفوق بها علينا. فبينما حُكم علينا بالاستراحة لأن عظامنا البشرية المسكينة هي ما نتكل عليه، بدا أنهما يسافران على أجنحة الهذيان السحرية التي لا يقف أمامها عائق زمني أو مكاني، التي تريد أن تملي قوانينها الغريبة والعنيدة على اللامبالاة الصخرية للعالم الخارجي، قبل أن تنفجر في وجهها. مع تراكم ساعات البحث وأيامه، وعلى الرغم من أن آثار تحركاته إذا ما مُحيَت في بعض الأحيان فإنها تعود للظهور دائمًا، ازداد خوفي من عدم رؤية ترونكوسو حيًّا مرة أخرى، حتى استجمعت كل جهدي في أثناء العدو الرتيب في الصحراء المخدِّرة -مقتنعًا

بالفعل بأنه ما من نهاية محتملة أخرى- وكرَّسته في سبيل عدم السماح للامبالاة بالسيطرة عليَّ: تلك هي القوة التي تستغلها هذه الأرض الخاوية، بعد برهة من عبورها، لتدمر فينا كل ما اعتبرناه مألوفًا قبل الدخول فيها.

في اليوم الخامس أخيرًا صارت الآثار حديثة العهد؛ تعقب أوسونا أثر حوافر الحصان الأشهب، وبدأنا البحث في المنطقة المحيطة. قادتنا الآثار إلى دغل من الأشجار يعترض الأفق على مسافة ربع فرسخ تقريبًا باتجاه الغرب، فاستجمعنا قوانا التي أنعشتها الاستراحة الليلية، وانطلقنا نحو ذلك الاتجاه، ليس عَدوًا بل رَمحًا، على أمل أن يكون ترونكوسو قد توقف لأخذ قسط من الراحة في ظلال الأشجار بمنأى عن الشمس الحارقة، بعدما تعب أخيرًا من ركوب حصانه بلا توقف لمدة خمسة أيام تقريبًا. لكن عندما دخلنا الدغل واضطررنا إلى تقليل سرعتنا لنستطيع المرور بين الأشجار دون أن نتأذى، وعلى الرغم من أننا لم نر ترونكوسو على الفور، فقد دلَّنا على وجوده صخبٌ آتٍ من الجانب الآخر من الدغل. حاولنا عدم إصدار أي جلبة كي لا نفزع فريستنا وتقدمنا بخطى وئيدة، حريصين كذلك على عدم الخروج من الدغل بعدُ حتى لا نكشف نفسينا لما قد ينتظرنا على الجانب الآخر. لكن حين توقفنا عند الحافة الداخلية للدغل لمشاهدة المجال الخارجي، استطعنا أن نرى آخر مشهد قد يخطر على البال، بل ويمكنني القول أعجبَ موقف شاءت الظروف أن أشهده خلال حياتي الطويلة، ومن السهل على المرء تخيُّل أن مهنتي لم تدع يومًا واحدًا يمر من دون أن تضعني في حضرة أمر غير اعتيادي.

كان ترونكوسو واقفًا على قدميه يخطب في نصف دائرة من الهنود الذين يمتطون الجياد وينصتون إليه بسكون وانبهار. بمجرد أن رأيت ذلك المشهد شعرت بأنه مستمر منذ ساعات. على مسافة ليست ببعيدة، كان الأشهب مربوطًا من لجامه إلى أجمة عشبية، يلوك طعامه بهدوء شديد، غير مبالٍ على ما يبدو بمشاريع فارسه الإمبريالية، وإذا ما خطر لترونكوسو -مثل

كاليجولا[1]- أن يعين حصانه وزيرًا، فالأرجح أن الأشهب سيرفض بازدراء ذاك الشرف المزعوم. تعارضت لا مبالاة الحصان مع الاهتمام العميق الذي أولاه الهنود لترونكوسو الذي -على النقيض منهم- لم ينظر إليهم حتى وظل يتمشى ذهابًا وإيابًا على الخط المستقيم نفسه الموازي لقطر نصف الدائرة، ويتصرف بطريقة شبيهة بما اعتاد أن يفعله حين ينهر الشمس عند طلوعها كل صباح. كان الهندي الذي يقف في وسط نصف دائرة الفرسان يحمل كمانًا مائلًا على ظهره، وقد سمحت الآلة بالتعرف عليه فورًا من بين ضبابية أسطورته، وكذلك لأن الاهتمام الذي انعكس على وجوه هؤلاء الهنود المبرقشين رثِّي الهيئة، أعمق مما انعكس على وجه خوسيسيتو، الذي نمَّ مظهره -بالمناسبة- عن ذكاء غير عادي، وقدرة على التفكير لا شك فيها، إذ استقر مرفقه على عنق حصانه، وخده على راحة يده. في الأيام الخمسة التي استغرقها هروبه المحموم، ازداد تدهور مظهر ترونكوسو، وصار الشيء الوحيد اللامع في جسده الذي سوَّدته الشمس والغبار والأوساخ، هو عيناه الجاحظتان اللامعتان، المفتوحتان على اتساعهما، اللتان تتألقان على وجهه الذي اختفى معظمه وراء شعره ولحيته القذرين المتشابكين فبدا كحيوان وحشي، كأن فقدانه عقله يُفقده كذلك كل خصائصه البشرية. اتضح ذلك الأمر أيضًا في صوته الذي بُحَّ من فرط استعمال صاحبه له، ولأن معنى كلماته لم يصل إلينا، بدا من بعيد كنباح أو زمجرة أو كبعض الغرغرات الكهفية السابقة لأي لغة معروفة. اشتمل انتباه الهنود على نوع من الحذر كذلك، وقد فهمتُ معناه على الفور عندما خرج ترونكوسو عن خطه المستقيم فجأةً، واستدار ليواجه نصف دائرة الفرسان، ثم مد ذراعيه وشرع يركض نحوهم، الأمر الذي أثار فوضى عارمة بين الهنود الذين ابتعدوا جريًا بأحصنتهم وسط صرخات مفزوعة. بعدما قطعوا عدة أمتار توقفوا، ومن بعيد راقبوا ترونكوسو الذي

(1) إمبراطور روماني وُلد في الأسرة الحاكمة الأولى للإمبراطورية الرومانية. (المترجم).

توقف أيضًا لكنه واصل الصياح، فعادوا لتشكيل نصف دائرة في وسطها الزعيم. استأنف ترونكوسو مجيئه وذهابه على طول خط مستقيم خيالي ومواز لقطر نصف دائرة الهنود، وهو ما حث الهنود على السكون والإنصات إليه مرة أخرى بانتباه عميق؛ بدا أن الاهتمام الذي ولَّدته فيهم كلماته لم يستطع محو الرعب الذي ارتسم على وجوههم في اللحظة التي حاول فيها ترونكوسو أن يقترب منهم. ظلوا مرة أخرى بلا حراك، بينما يسير ترونكوسو ذهابًا وإيابًا على طول الخط الخيالي الذي رسمته خطواته على العشب، وتردد صوته المبحوح في أجواء الصباح الصامتة كأنه الرسالة الأخيرة التي يبعث بها العالم المكوَّن من مخلوقات مشوَّشة وبائسة وفانية، إلى القوانين المبهمة المزاجية التي سيَّرته -ذات يوم- بلا سبب.

كان الهنود المسلحون جيدًا أكثر عددًا منا بقليل، لكنهم لو أرادوا القتال لحُسم الأمر بهجومنا المباغت دون أدنى شك، إذ بدوا مستغرقين في الاستماع إلى ترونكوسو وعليهم آثار نوع من المشاعر التي فشلوا في إخفائها، امتزج فيه الانبهار بالخوف. بدا الوحش المحترق من الداخل والخارج، بسبب الشمس والجنون، الذي أخذ يتمشى ويعوي بصوت مبحوح متلفظًا بخطبة غير مفهومة وهزيلة وملآنة بالإيماءات، كأنه يملك من أجلهم سحر الأشياء التي تخصب الفكر والخيال بوجودها الملغز، لكن الاتصال بها -مهما كان عابرًا- يذبل ويتلاشى بسبب فردانيتها القاتلة. وبينما نحن مختبئون بين الأشجار، دون أن نقرر التصرف، مشلولين بعض الشيء بسبب المشهد غير المتوقع الذي نتأمله، سنحت لنا الفرصة لملاحظة الموقف نفسه الذي تكرر ثلاث أو أربع مرات، وهو أن ترونكوسو يستدير فجأة فوق خطه المستقيم الخيالي، ويفتح ذراعيه ويبدأ الركض نحو الهنود، رافعًا صوته المبحوح قليلًا، فيتفرق الهنود جريًا وسط صرخات مرتعبة، لكنهم من مسافة عدة أمتار حين يرون أن ترونكوسو قد توقف ويبدأ يرسم خطًّا مستقيمًا جديدًا، ذهابًا وإيابًا بخطوات

واسعة تسحق عشب السهل، يعودون للتموضع في نصف دائرة وهم لا يزالون مضطربين قليلًا جرَّاء الانفعال والركض، ثم يقتربون مرة أخرى بخطى وئيدة ويتوقفون مجددًا -محافظين على مسافة آمنة- من أجل الإنصات إليه بخوف وتمعن بل وبإجلال.

أردنا أنا وأوسونا تجنب المناوشات، ليس بسبب افتقارنا إلى الشجاعة بل لأننا لو هُزمنا فإن تلك البلية قد تمثل كارثةً للقافلة برمتها، كما ردعتني كذلك بعض الوساوس ذات الطبيعة الخُلقية في المقام الأول والشرعية أيضًا، إذ بدا لي من ناحيةٍ أنه ليس من اختصاص الشعوب المتحضرة تطبيق مبدأ العين بالعين، ومن ناحية أخرى لا يوجد إثبات على أن خوسيسيتو ورجاله مرتكبو المذبحة الحقيقية التي اكتشفناها، وعليه فإن مهاجمتهم على حين غرة تقتضي إعدامهم بلا أي دليل يدينهم. لم يبال أوسونا بتلك الوساوس مثله مثل سيريريه؛ فعلى الرغم من الشائعات المتناقضة التي دارت حول الزعيم، تمسك أوسونا برأيه واعتبر خوسيسيتو قاتلًا جبانًا وقاسيًا، لكن حسه العملي الذي ميزه جعله يفكر في أن هدفنا هو الوصول سالمين آمنين إلى (الأسناط الثلاثة)، وأن تولي أمر الزعيم ورجاله مسؤولية السلطات التي -من جهة أخرى- لم يؤمن بفاعليتها. لذلك قررنا ما يلي: سيبقى أوسونا والجنود مختبئين بين الأشجار، مستعدين للهجوم، وسأذهب وحدي لإحضار ترونكوسو، آملًا أن أعثر في آخر بصيص من وعيه على ما يدفعه إلى طاعتي كما اعتاد أن يفعل قبل لحظة هروبه، حتى لو كان الأمر ضد إرادته وأطلق لسانه باللعنات. أخذت معي سترة مقيَّدة لكنني وثقت بعدم حاجتي إليها، لأنني أستطيع فرض كلمتي على ترونكوسو بسلطتي وحدها.

عندما انتشر الجنود بين الأشجار استعدادًا للتدخل إذا لزم الأمر، خرجت مهرولًا بحصاني إلى الميدان المكشوف واتجهت نحو ترونكوسو، بينما أراقب

الهنود في الوقت نفسه تحسبًا لأي تصرف عنيف محتمل قد يباغتونني به. لكن الهنود وترونكوسو تجاهلاني على حد سواء. عند سماع دقات حوافر حصاني، نظر إليَّ بعض الهنود لكنهم عادوا فورًا -كأنني أصبحت شفافًا، ودون إصدار أي إيماءة تدل على أنهم لاحظوا وجودي- إلى الانهماك في التأمل العميق نحو ترونكوسو، الذي لم يبدُ أنه رآني حتى، وهو ما لا أستطيع تأكيده لأن التجربة أثبتت لي مرات عديدة مدى صعوبة أن يعرف المرء إدراك المجانين للواقع معرفةً دقيقة، الأمر الذي يفسر -كما أعتقد أنني ذكرت بالأعلى- لماذا يرى كثير من الناس الجنونَ مرادفًا للتصنع. الحقيقة أنني عندما بلغت مسافة ثلاثين مترًا تقريبًا، كبحت جماح حصاني وحاولت الاستماع إلى خطاب ترونكوسو المبحوح والمتواصل، دون أن أتمكن من تمييز كلمة واحدة مفهومة وسط ذلك النوع من الصخب الحيواني الذي لا ينتهي، وفكرت في أن ما استعصى على فهمي لا بد أن يستعصي أكثر بكثير على فهم الهنود، لذلك استحال تفسير نشوتهم. بعد دقائق، تكرم ترونكوسو بملاحظة وجودي، واقترب مني -ناسيًا أمر الهنود- بخطواته الواسعة الصارمة التي تشبه إلى حد كبير خطوات إنسان آلي شاهدته ذات مرة في باريس، ثم توقف على بعد مترين أو ثلاثة مني، وألقى عليَّ خطبته الحلقومية، وهو يوليني جانبه دون أن ينظر إليَّ مباشرة، لكنني استطعت أن أرى من خلال عينيه المستديرتين الرطبتين الجاحظتين، أنه قد غاب تمامًا عن هذا العالم. وبعد التيقن من ذلك الغياب، وأمام افتتان دائرة الفرسان الساكنين الذين يتأملونه، خطر لي أن اهتمام الهنود لا يتمحور حول هياج ترونكوسو المذهل في العالم الظاهري الحقيقي الذي تشاركناه معه، بقدر ما يكمن في البشائر التي يحملها لنا، بينما نحن على حالنا معزولون في مكاننا الرتيب الرمادي، عن ذلك العالم الجديد البعيد الذي يسكنه وحده.

نزلت من فوق الحصان، وقررت أن أترك ترونكوسو في ظهري وحيدًا مع إيماءاته، واقتربت من الهنود بخطوات هادئة لكنها حازمة: كنت قد أدركت أن ترونكوسو هو أفضل حماية يمكننا الاعتماد عليها. اتجهت مباشرةً إلى خوسيسيتو، ليس لأسباب بروتوكولية بقدر ما هو بدافع الفضول الذي أثارته فيَّ أسطورته، وبينما أتحدث معه ربطت بين الدراسة السرية التي أجريها عن شخصيته وبين تلك التي حاولت ملاحظتها ذات مرة في حديقة عامة بحي (مونمارتر)[1]، على ممثل مشهور في جميع أنحاء أوروبا كان يسير بالقرب منا في تلك اللحظة. من الناحية البدنية، لم يختلف خوسيسيتو كثيرًا عن بقية رجاله، لكن نظرته فاقتهم حيويةً وذكاءً، على الرغم من توهجها بغطرسة استفزازية. تظاهر في البداية بأنه لا يجيد التحدث بالقشتالية، إذ أدخل العديد من الأفعال المصدرية وصيغ الحال في المحادثة، لكنه بعد لحظة، حين تأكد من أنني غير مهتم بأنشطته، واصل التحدث بشكل صحيح. عندما لاحظ أنني أمعن النظر إلى الكمان المعلق على ظهره، رأيت في عينيه شرارة غرور فشل في إخفائها، لكنه تظاهر بعدم الانتباه لأي شيء. وعندما اقترح أن يرافقني بحاميته إلى القافلة، أدركت أنه يريدني أن أفهم أنه على علم بكل تحركاتنا ربما منذ يوم مغادرتنا للمدينة، لكن تلميحه لم يتضمن أي تهديد أو تبجح وهو ما يظهر واقعيته، فهو يعرف مسبقًا أنه ليست هناك مجموعة من الجنود تترقب في دغل الأشجار فحسب، بل أنني كذلك أدركت أنهم لن يهاجمونا أبدًا ما دام ترونكوسو وغيره من المجانين معنا، بسبب الرعب المقدس الذي يبثونه فيهم. ودرءًا للشكوك، سارعت بإخباره بمسألة الجنود المترقبين، بنبرة دبلوماسية بما يكفي لكيلا يعتبر ذلك تهديدًا يستوجب منه ردًّا، وناديتهم فخرجوا من الدغل واقتربوا مهرولين، وأنبأت

(1) أحد أحياء باريس السياحية والأثرية. (المترجم)

تصرفاتهم بأنهم جاؤوا بلا أي نية للقتال. حملت النظرة التي تبادلها الزعيم مع أوسونا حين وقفا وجهًا لوجه، تلك الشحنة من الريبة والكراهية للأعداء اللدودين الذين يعرف بعضهم بعضًا معرفة عميقة، إلا أنهما في الوقت الحالي، ولأسباب خارج إرادتهم، لا يستطيعان إطلاق العنان لعنفهما. بدا أن الهنود والجنود يقدِّرون خطورة بعضهم بعضًا بالنظرات، متفقين في قرارة أنفسهم على غرابة الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه، فبعدما كانوا مستعدين لإبادة بعضهم بعضًا وبعد الصورة الأسطورية التي رسمها كل منهما للآخر، ها هم أولاء وجهًا لوجه أجبرتهم ظروف غير متوقعة على عدم القتال، وقد اكتشفوا أن أولئك الذين يقفون -بشحمهم ولحمهم- على بعد أمتار قليلة، يختلفون عن الخرافة التي توهموها عنهم. لم أشعر باطمئنان كبير حيال المدة المحتملة لتلك الفترة الانتقالية، ففكرت في أن أكثر الأمور منطقيةً هو انسحابنا بسرعة، لذلك أمسكت بذراع ترونكوسو الذي خفض صوته، وبدلًا من الصياح بخطبه في وجه الكون الخارجي، بدا الآن كأنه يتمتم لنفسه بحقائق مجزَّأة وأقل احتمالًا بمرور الوقت، ثم سرت به إلى حصانه الأشهب، وهو الأمر الذي تركني أفعله بإذعان. كان الأشهب ساكنًا يلوك العشب الطري ذا اللون الأخضر الفاتح، الذي أنبته الربيع الدخيل مرة أخرى، بعناد متكرر، في الأرض المستوية الرمادية بنهاية الشتاء. انشغل الحصان بانتقاء أفضل الأوراق الطازجة كثيرة العصارة من بين بقايا العام السابق التالفة، وأظهر لا مبالاة تامة نحو المجموعة البشرية التي تعقد صلحًا من حوله، وإن كانت لا مبالاته مبررة بوجه عام، فقد اتسم بشيء من الجحود، أو كما أعتقد أنني ذكرت سالفًا، من الازدراء فيما يتعلق بترونكوسو. إن عقدة الطاقة المخبولة التي -بسبب حاجته الزائدة إلى الحركة- أتت به إلى هنا ثم تقلصت إلى شرارة حادة، في نهاية المطاف حوَّلت الرجل الذي كان موقدًا

يحترق إلى ذلك الشيء الأشبه بفزاعة ممزقة ومسودَّة، وبدا الحصان الذي أصر على تجاهله كأنه يرفض الاعتراف بتدهوره. ربما أساء فهم المرحلة المجيدة من جنونه، والآن ينبذ الكآبة الحتمية التي، بمجرد انطفاء الشعلة، سوف تستحوذ في النهاية على تلك الكومة البالية الذابلة. الحق أن الانصهار شبه السحري الذي شهدته الأيام المنصرمة بين الفارس والجواد، اللذين ظهرا خلاله كأنهما يشكلان جسدًا واحدًا، لم يتحقق مجددًا عندما استقر ترونكوسو بمساعدتي على صهوة الأشهب وأمسك بزمامه. كان كلاهما مدفونًا في أعماق ذاته، وبدا أن كلًّا منهما قد نسي الآخر بعد سنوات كاملة من الاتحاد. حين انطلقنا في طريق العودة، ركضتُ جنبًا إلى جنب مع ترونكوسو طوال الوقت خوفًا من سقوطه، لكنه خلال أيام عودتنا ظل متصلبًا على ظهر الحصان وذاهلًا وصامتًا، وأطاع أوامري بإذعان شبه طفولي. تبعنا الهنود طيلة اليوم الأول وجزءًا كبيرًا من اليوم الثاني، وعند قرابة الثالثة بعد الظهر، للأسباب نفسها التي جعلتهم يتبعوننا على مسافة حذرة لكنها منتظمة، التي لا نملك لها تفسيرًا، اختفوا على حين غرة.

وصلنا إلى المخيم في منتصف مساء اليوم الثالث، واستُقبل وصولنا بالبهجة وبخاصة من قبل الجنود الذين خافوا -دون أن ينقلوا قلقهم إلى المدنيين الذين يحمونهم- ألا يرونا مرة أخرى نظرًا إلى طول غيابنا. حين أبصرونا نظهر من جهة الأفق هرع نافخ البوق لإحضار آلته، وإذا شرع في بادئ الأمر يعزف النغمة النظامية، فمع اقترابنا راح يعزف ألحانًا عصرية وجميع أنواع الدعابات الموسيقية التي أرسلوها إلينا من بعيد، قبل أن يعبروا لنا شفهيًّا عن الارتياح الذي شعروا به إثر عودتنا. تحول الاستهجان العام الذي استحقه هروب ترونكوسو إلى شفقة عندما رأى أعضاء القافلة الحالة التي عاد بها، وبلغ تدهوره الجسدي من السوء مَا أغنى عن التفسيرات. لقد

صفُّوا العربات في دائرة تحسبًا لأي هجوم محتمل من قبل الهنود، واتفقوا على الانتظار لمدة يومين إضافيين، بحيث إننا لو تأخرنا لأكثر من عشرة أيام لأي سبب كان، فسيتابعون المسير من دوننا. ولأنهم خيَّموا بالقرب من بحيرة ضحلة، فبمجرد نزولنا من فوق الخيول ركضنا للغطس، بينما سارع بعض من انتظرونا للتضحية ببقرة صغيرة كانوا قد اصطادوها من الأنحاء القريبة واحتفظوا بها من أجل عودتنا. أقيم حفل حقيقي استمر حتى الفجر تقريبًا: غنينا ورقصنا، بسخريتنا وضآلتنا، في الليل الخانق على ضوء شعلة كبيرة. كنا صاخبين وثملين من الكحول الذي -لدهشة الجميع- وزعه الباسكي مجانًا، محاصرين في اللانهائية الثلاثية للبادية والليل والنجوم. جسَّدنا فَورة الأحياء من عشب وحيوان وإنسان، وأضفنا إلى الامتداد اللانهائي المحايد للجمادات، خفة الهذيان الملونة والمأسوية والهزلية، التي جعلتنا نعيش في تعددية من العوالم الحصرية والمختلفة، والمبنية وفقًا لقوانين الخيال التي تتفوق بالطبع في صلابتها على قوانين المادة.

من البديهي أن تكون مهمتي الأولى، بعدما أنعشت جسدي في البحيرة، هي فحص المرضى للوقوف على حالتهم بعد ثمانية أيام من ابتعادي عنهم. عليَّ أن أقول إنه لو كان المرضى العقليون بصفة عامة ينتمون إلى هذه الفئة أو تلك، مثلما حاول الحكماء في كل العصور تصنيفهم بكثير أو قليل من الحظ، فإن التقلبات المختلفة لحالاتهم الفردية لا يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير، وعلى الرغم من أن الأسباب الخارجية تؤثر في سلوكهم، كما تحققت في مرات عديدة، فمن الصعب التكهن أو حتى إصدار حكم لاحق وواضح بشأن الظروف القادرة على التأثير فيهم تأثيرًا حقيقيًّا. والحق أنه خلال أيام غيابي الثمانية، لم يُظهر المرضى أي علامة خارجية على التحسن أو التفاقم، وذلك الاستقرار الذي لوحظ في العديد من حالات الاختلال العقلي، هو ما

دفع أستاذي العزيز الدكتور فايس، أكثر من مرة، إلى التساؤل حول إن كان الاستقرار الأكبر الذي ظهر في الحالات الأولى ليس هو ما يميز المجانين عن الأصحاء، بصرف النظر عن النوبات الحادة كالتي تعرض لها ترونكوسو على سبيل المثال. ومع ذلك، لا بد لي من الاعتراف بأن فاعلية الممرضين العسكريين الذين أوكلتُ إليهم مسؤولية الاعتناء بالمرضى، أسهمت أيضًا في الحفاظ على هذا الاستقرار.

بعد ساعات قليلة من فحصهم، وفي أثناء الحفل، استطعت التيقن من أن الوداعة الظاهرية للمخيم تخفي بين طياتها أكثر من صراع، وأن أكثر التصرفات المعتوهة استهجانًا ندت عن أشخاص يُفترض أنهم طبيعيون. بعد العشاء، جاءت المرأة الفرنسية التي تحدثت معها مرتين أو ثلاثًا في بداية رحلتنا، لتخبرني ببعض الأمور التي حدثت في المخيم في أثناء غيابنا. ورغم أن كلمتها لم تبد لي جديرة بالثقة تمامًا، نظرًا إلى التناقضات الكثيرة التي تمكنت من ملاحظتها عندما حكت لي عن حياتها الخاصة والأسباب التي دفعتها -حسب قولها- إلى ممارسة مهنتها، فإن الأشياء التي ذكرتها، حتى وإن وجدتُ فيها مبالغةً للوهلة الأولى، وربما مغالاةً بسبب الغيرة، وربما أيضًا بسبب الشعور بالامتعاض المهني، فقد بدت محتملة جدًّا: وفقًا للمرأة، في أثناء غيابي أقامت الأخت تيريسيتا -التي قبل أيام قليلة باغتتها المرأة نفسها وهي مستلقية بين المروج مع جنديين- علاقات جسدية مع «كل» الرجال الذين بقوا في المخيم، باستثناء الممرضين والرقيب لوثيرو والهندي سيريريه. وفقًا للمرأة، كان الجنود يتناوبون كل ليلة على دخول عربة الراهبة، وخلال النهار يدعونها لتناول الشراب معهم في متجر الباسكي. لقد اعتادوا قضاء الوقت معًا، وفقًا للمرأة، وفي ليلة أو ليلتين نامت هانئة ومستلقية على العشب بين الجنود. كان ثمة مجموعة صغيرة من خمسة أو ستة أفراد لم تنفصل عنها،

وفعلت الراهبة الصغيرة معهم ما يحلو لها، بينما تصرفوا كأنهم حاميتها الشخصية. خلال النهار، إذ لم يجدوا ما يفعلونه سوى انتظار عودتنا، ذهب الجنود للصيد على الجانب الآخر من البحيرة، للترفيه عن أنفسهم ومحاولة تناول شيء آخر غير اللحم المقدد، ورافقتهم بلفافة بين شفتيها جعلتها عابسة طوال الوقت. وفقًا للمرأة، كانت الراهبة الصغيرة، على مرأى ومسمع من الجميع، تبتعد بضع خطوات وترفع تنورتها إلى خصرها وتقضي حاجتها كالرجال. بعيدًا عن أنشطة الأخت الشهوانية، فإن تلك التفاصيل هي التي دفعتني إلى تصديق قصة المرأة الفرنسية، لأنني سبق ولاحظت في الأخت تيريسيتا ميلًا إلى السلوك الذكوري، كأنها في سعيها المستمر إلى الدمج بين الحب الإلهي والإنساني، أرادت كذلك أن تجمع بين الجنسين في شخصها. إن الكراهية التي بثتها الراهبة الصغيرة في نفس المرأة التي حكت لي بحنق ما حدث في غيابي، مردها في الحقيقة إلى سوء فهم منها، لأن تصرفات الراهبة شملتها هي الأخرى، ولا بد أن الفكرة خطرت لها حينما بدأت في تبشير عاهرات المدينة، فقررت بهذه الطريقة تنفيذ الأمر الذي تلقته مباشرةً -حسب قولها- من المسيح في بيرو العليا. بمعنى آخر، بدلًا من تبشير النساء الممتهنات حياة السوء، تعرضت هي للتبشير من جانبهن، وما اعتبرته النساء إهانة من الراهبة الصغيرة كان -بطريقة ما- تكريمًا لهن.

لاستيضاح الأمور، أبعدت المرأة عن أذني ووعدتها بالاعتناء بالأمر، نظرًا إلى أن البُعد التجاري للأشياء لم يكن خارج نطاق استيائها، وذهبتُ لرؤية الرقيب لوثيرو. ربما أثبتت المراوغات المحيرة بعض الشيء التي وجدتها منه أن المرأة لم تبالغ، لكن عندما حثثته على استعادة صدقه المعتاد، اعترف لي بأن الشائعات في رأيه تحمل شيئًا من الصحة، لكن بما أن جميع الجنود متورطون في الأمر، سيكون من الصعب الحصول على التفاصيل اللازمة

منهم. قال لي الرقيب إن الجنود بدلًا من استغلالها، بدا أنهم يحمونها بل ويطيعونها. لقد أعطت انطباعًا بأنهم يقدرونها حقًّا، وليست هي التي غرست فيهم الطاعة بل هم أنفسهم مارسوها بشكل عفوي، من منطلق احترام جاد يبدو أنها تبثه فيهم دون معرفة السبب. كان لوثيرو شديد العقلانية لدرجة أنه لم يفهم أن الراهبة الصغيرة -مهما بلغت براعة شخصيتها- مجنونة وأن واجبي بصفتي طبيبًا هو محاولة علاجها من جنونها وعدم السماح لها بتوريط نصف سكان العالم فيه، لذلك اتفقنا على منع تكرار تلك التعقيدات الكريهة فيما تبقى من أيام السفر.

في اليوم التالي، بعد الحفلة، شق علينا الانطلاق بالقافلة، وفي منتصف الصباح كان الجنود لا يزالون نائمين في ظل العربات، لأنهم خلدوا إلى النوم عند الفجر بعد حساب مسبق للمسار الذي سيسلكه ذلك الظل في الصباح. أما الخيول فلم تُتح لها حتى فرصة إجراء تلك الحسابات، ولم تحظ في ذلك المكان الخاوي الشاسع بشجرة واحدة تستظل بظلها. الأمر أن صيف سان خوان -كما يسمونه في المنطقة- قد بلغ ذروته في تلك الأيام. كان قد وصل خلسةً رويدًا رويدًا، وأذاب في أيامه الأولى طبقة الصقيع المتراكم خلال الأسبوع الجليدي الأول بعد المطر، وبعدما زاد من سخونة الهواء والأرض، صنع للنباتات غير الصبورة محاكاةً عابرةً للربيع. من التربة الرمادية المتصلبة بفعل البرد، بدأ العشب الجديد يتبرعم ليصبغ سطح البادية بالأخضر مرة أخرى، لكن في غضون يومين فحسب، لكيلا أقول ساعات قليلة، ارتفعت درجة الحرارة إلى الحد الذي بدأت معه وريقات الأشجار في التساقط، وأجدبت الحقول مرة أخرى في لمح البصر لتتحول إلى امتداد أصفر لا نهاية له. قضينا عدة أيام دون أن نرى غيمة واحدة في السماء ذات الزرقة العميقة المضطربة، لا شيء سوى الشمس المتوهجة التي تمر على الهواء والأرض والأشياء فتتركها

ناضبة وحارة، ولعدم هبوب أي نسمة هواء، ولأن الليل بحرارة النهار، لم يكن لديها وقت لإنعاش أجسادها. إن ذلك التنور الهائل الذي عبرناه خلال أبرد شهر في السنة، وتلك الدائرة الصفراء الكبيرة التي نتقدم فيها بشق الأنفس، والمحصورة تحت قبتها الزرقاء التي لا تتخللها نهارًا سوى بقعة الشمس القاحلة، التي تسودُّ ليلًا وتمتلئ بالنقاط المضيئة، كان هو المشهد الوحيد المحيط بنا، ومن شدة تطابقه الذاتي في كل جزء من أجزائه القابلة للتبادل، توهمنا في بعض اللحظات أننا عالقون في الجمود التام. عند نقطة معينة بدا تحركنا في النهار أمرًا مستحيلًا، لكن انتظار الغروب للسفر مع نسمة الهواء، كما قال أوسونا، كان أمرًا مناوئًا بالقدر نفسه، أولًا لأن توقفنا في وسط البادية حيث لا نملك ما نستظل به سوى عرباتنا يبدو أكثر إرهاقًا من السفر، لأن حركتنا يمكن أن توفر لنا نسمة هواء مهما كانت ضئيلة، وثانيًا لأن الجو لا يبرد في الليل بما فيه الكفاية، لكن إذا خيمنا فسوف يساعدنا الظلام على الراحة، إذ يعفينا من الشمس لبضع ساعات. مع الحر بدا أن صمت البادية المقفرة يزداد، كأن كل الأنواع التي تسكنها تعجز عن الحركة وترقد منهكة وخاملة. نحن أيضًا، من ادعينا السيادة عليها جميعًا، سرنا كالمنوَّمين رجالًا ونساءً، مدنيين وجنودًا، مؤمنين ولا أدريين، مستنيرين وأميين، عقلاء ومجانين، يساوي بيننا ذلك الضوء الساحق وذلك الهواء الحارق الذي يُذهب العقل، ويقلصاننا إلى أحاسيسنا الفاترة المتطابقة ليمحوَا اختلافاتنا. اعتاد المرضى أن يناموا طوال النهار محبوسين في عرباتهم، وفي الليل بالكاد يُطلون إلى الخارج، باستثناء الراهبة الصغيرة المحاطة دائمًا بحرَسها من الجنود، كثيرون منهم شبه عراة بالكامل، يلبسون بالكاد سروالًا داخليًا ضيقًا وممزقًا يغطيهم من الخصر إلى ما فوق الركبتين بقليل، ويكشف عبر تمزقاته عن أجزاء معينة من أجسادهم كان من الحكمة أن تظل مخفية، وهو ما يعَد

مظهرًا غير محتشم لم يعُد يلاحظه أحد، بل إنه بدا محترمًا مقارنةً بالنساء اللاتي اعتدن التجول في الحر القائظ وأثداؤهن في الهواء الطلق، وأحيانًا عاريات تمامًا. لدى مرورنا على أحد الأنهار، كان الجميع تقريبًا يتجردون من ملابسهم دون حتى انتظار حلول الظلام، ويذهبون للمرح -بمتعة حيوانية- في المياه الفاترة المضطربة. لقد دفعتنا الرحلة، التي امتدت لفترة أطول من المعتاد، وبطريقة غير محسوسة، إلى إرساء قواعد خاصة لحياتنا، ودفعتنا التقلبات المناخية، التي تتابعت فيها الفصول في غير أوانها بسرعة تتابع الأيام والساعات، بالإضافة إلى التكوين الفريد لقافلتنا، إلى خلق كون حصري يزداد اختلافًا بمرور الزمن الذي كنا نعيش فيه قبل رحيلنا. وعلى الرغم من أن سلطتنا قد تراخت، فقد سهُلت معرفة أنها لم تعد ضرورية: في حمى تلك الأيام غير الواقعية، بدا أن الاهتمامات العادية قد اختفت. لم يبق سوى القليل من الضغينة: استنكر سيريريه بمرارة مسألة ابتعادنا الذي يتضح يومًا بعد يوم، عن القواعد التي غرسناها فيه، التي مثلت مرجعه الوحيد في أي عالم ممكن، وأما نياتو سواريث الذي لم يبتعد عن عربة سيده، مثل كلب وفي لكنه مشوش بعض الشيء، رمقني بنظرته الحاقدة التي ارتأت أنني المسؤول عن الانهيار الرهيب الذي حدث لترونكوسو، وليس الجنون. لكن حتى كراهيته، في تلك اللانهائية المنبسطة الصفراء، فقدت زمام الأمور.

لما أعلن أوسونا عن قدوم عاصفة سانتا روسا بحلول اليوم الثلاثين من الشهر، ظللنا نتطلع جميعًا، بقلق لكن بشك، لنرى ما إذا كانت الغيوم المخلصة تتقدم نحونا من الجنوب الشرقي الذي نتجه إليه، محملةً بالأمل أكثر منها بالمياه. لكن في الأيام الأولى من الترقب لم تظهر ولو واحدة. من كثرة مراقبة السماء الخاوية التي تغير لونها مع جريان الضوء، فقدت هالتَها المألوفة نتيجةً ليقيننا بأنها دومًا موجودة هناك، وصارت غريبة، ومعها

الأرض الصفراء وكل ما يحيط به الأفق المرئي، بما في ذلك نحن أنفسنا. كشفت الوجوه الملفوحة المتعرقة التي ضاقت أعينها وانفتحت أفواهها وتجعدت أجبنتها، عن تعبير استفهامي دائم. تحدثنا قليلًا في بعض الأحيان، وتبادلنا كلمات مكتومة أحادية المقطع، وفي أحيان أخرى تحدثنا في مجموعة من فردين أو ثلاثة بشكل عام، وتبادلنا مونولوجات طويلة مجزَّأة، مرتبكة ومتسرعة، كأننا فقدنا في السهل الرتيب الغريزة أو المفهوم الذي يفصل بين الداخلي والخارجي، كما فقدت اللغة التي منحنا إياها العالم جذورها داخلنا، وبدأت تتحدث بنفسها، منفصلةً عن الفكر والإرادة اللذين، بمجرد أن خطونا خطواتنا الأولى في هذا العالم، تعلمنا من خلالهما كيفية استعمالها.

وأخيرًا، بدأت الغيوم تصل إلينا ذات مساء. نظرًا إلى قدومها في ساعة باكرة، فقد كانت أوائلها كبيرة وناصعة البياض وحوافها على هيئة أمواج، وحين مرت على مستوى شديد الانخفاض، تسبب ظلها في إظلام وجهها السفلي المقابل للأرض. كنا نأمل أن نرى اسوداد لونها، وانطلاقها من الأفق في كتلة رمادية أردوازية لا نهاية لها، لتغزو السماء بأكملها في غضون برهة وينهمر منها المطر. لكن لمدة يومين متهالكين صامتين، ظلت تتعاقب في السماء قادمةً من الجنوب الشرقي كما أعتقد أنني ذكرت سلفًا، واختفت وراءنا في نقطة ما خلف ظهورنا عند أفق سارح. تبعًا لفترات اليوم تغيرت أشكالها وألوانها بل وطفت بسرعات مختلفة، كأن الرياح التي عانينا كثيرًا غيابها عن مستوى سطح الأرض، تزداد غزارةً هناك بالأعلى. أحيانًا كانت صفراء، برتقالية، حمراء، أرجوانية، بنفسجية، لكنها أيضًا ظهرت خضراء وذهبية وحتى زرقاء. وعلى الرغم من تشابهها جميعًا، فلا يوجد منها، ولم يوجد منها منذ نشأة العالم، ولن يوجد منها حتى النهاية المجهولة للزمان اثنتان متطابقتان، وبسبب الأشكال المتنوعة التي تتخذها، وبسبب الصور

التي يمكن التعرف عليها والتي تتفكك شيئًا فشيئًا حتى لا تعود تشبه أي شيء، بل وحتى تكوِّن شكلًا مناقضًا للذي كانت عليه قبل لحظة، تصورت أن لها جوهرًا شبيهًا بجوهر الأحداث، فهي تنتشر في الزمن مثلها تمامًا، بالألفة الغريبة نفسها للأشياء التي -في لحظة وقوعها نفسها- تتبخر في ذلك المكان الذي لم يزره أحد من قبل، الذي نسميه الماضي.

سيبدو الأمر خياليًا إلى حد ما لقرائي، لكننا طيلة أيام انتظرنا الماء بفارغ الصبر، وبدلًا من الماء هطلت النار. حدث ذلك في التاسع والعشرين من أغسطس عام ألف وثمانمئة وأربعة. إذا كانت هذه الدقة تثير ريبة قارئي المحتمل، وتوحي إليه بأنني أستعملها لإيهامه بصدقي، فأنا أرغب في توضيح أن هذا تاريخ لا يُنسى بالنسبة إليَّ، لأنه يمثل أغرب يوم في حياتي. قبلئذ بعدة ساعات كانت رائحة حريق نفاذة، أخذت تزداد وضوحًا وقوة، هي محور أحاديث القافلة، ولكن لعدم هبوب أي نسمة هواء أو وجود أي علامة مرئية للنار على امتداد الأفق بأكمله، صعُب تحديد مصدر الرائحة. بالنسبة إليَّ فإن التعبير القلق الذي بدا على أوسونا واجتماعاته السرية مع الرقيب لوثيرو وسيريريه، تُعد هي الأدلة الملموسة الوحيدة على أن هذه النار الخفية المنتشرة في كل مكان حقيقية جدًّا، لذلك عندما خرج سيريريه في جولة استكشافية نحو الجنوب، واقترح أوسونا تحويل مسارنا قليلًا باتجاه الشرق، أدركت أن الوضع يبدو لخبرائنا أكثر خطورة مما تخيلت بمراحل. شرح لي أوسونا أنه لو كانت هناك نار، فربما تأتي تلك النار من الجنوب، ولهذا السبب ركض سيريريه بحصانه في ذلك الاتجاه لتحديد مدى بعدها، وقد حاد أوسونا بالقافلة نحو الشرق لقلة احتمالية انتشار الحريق في الأراضي الرطبة القريبة من النهر. وفقًا لأوسونا، لو كانت هناك نار -وهو ما يمكن تأكيده- فربما مردها إلى سقوط شعاع من البرق على إحدى تلك العواصف الجافة

التي تستبق الأمطار الغزيرة أحيانًا بعدة أيام، قبل هطولها في المنطقة. أما بخصوص النار، ودائمًا وفقًا لأوسونا، فقد تكون غير مهمة، أو على العكس من ذلك، قد تشكِّل جبهة تحتل عدة فراسخ؛ ستساعدها الحرارة والعشب الجاف على الانتشار ببطء بسبب غياب الرياح، لكن إذا تصادف هبوب الرياح الجنوبية الشرقية التي عادةً ما تصاحب عاصفة سانتا روسا، فإن سرعة انتشارها ستتضاعف في وقت قصير. ومن ثم فقد اتخذ أوسونا ولوثيرو الاحتياطات اللازمة لتحويل مسارنا نحو النهر.

زعم أوسونا، الذي تكررت نظراته المتوجسة نحو الجنوب، أننا يجب أن نسرع، لكنني إن لم أقل ذلك حتى الآن، أعتقد أن الوقت قد حان لإيضاح أنه حتى لو كانت عرباتنا تجرها أربعة خيول، فإننا رغم تفوقها في السرعة على عربات البضائع التي تجرها الثيران، وناهيك بالحديث عن رعاية المرضى الذين ننقلهم، تقدمنا ببطء شديد. لو طالت رحلتنا عن اللازم، فالسبب لا يقتصر على العوائق الطبيعية والحوادث التي أخرتها، بل يكمن خصوصًا في بطء المركبات التي تكونت منها القافلة، التي تحتم على فرسان حاميتها أن يتكيفوا مع وتيرتها. في مساء الثامن والعشرين، بدأت تلوح غيوم سوداء كثيفة وساكنة على يميننا، نحو الجنوب، بينما نتجه شرقًا. ظننت لبرهة أن العاصفة التي طال انتظارها أخذت تتكون، لكن حين بدأ أوسونا ولوثيرو يضايقان السائقين لتسريع وتيرة سيرهما، ويدققان النظر بقلق في الكتل المسودَّة التي تحجب الأفق، أدركت أنها ليست غيومًا. عند حلول الظلام، ظل البريق الأخير المحمرُ الذي يبقى دائمًا في السهل بعد غروب الشمس، متوهجًا طوال الليل، ليحتل الأفق بأكمله ناحية الجنوب. في الظلام المتماثل شديد السواد، بدت النقاط الصفراء للنجوم البعيدة أكثر ألفة وطيبة من الشريط المحمرِّ المتقلب الذي رسم بسُمكه العريض قوس الأفق نحو الجنوب الشرقي.

للمرة الأولى منذ رحيلنا، لم نتوقف في تلك الليلة إلا لتغيير الخيول المنهكة. عند طلوع الفجر انطمست النار خلف ضوء الشمس، لكن الكتل الصخرية ذات الدخان الأسود بدت أكثر ارتفاعًا حتى ليشعر المرء بأنها تعلو إلى ما بعد الأفق، إذ تدنو منه بصورة مقلقة. بعد إمعان النظر فيها للحظة، قال الرقيب إننا إذا واصلنا طريقنا شرقًا فإن النار لن تمنحنا وقتًا لبلوغ النهر، وعلينا تغيير اتجاهنا مرة أخرى والتراجع نحو الشمال. هكذا بدأنا نعود من حيث أتينا والنار في أعقابنا. لكنني بينما أكبح جماح حصاني حتى لا أبتعد كثيرًا عن العربات التي يسافر فيها مرضاي، راودتني فكرة غامضة عن حكماء الشرق تقول: «من يقترب يتراجع». يمكن القول إننا نحن أيضًا، في الواقع، حققنا هدفنا نوعًا ما، بتراجعنا في جزء كبير من مسارنا.

مهما بلغت سرعة تحركنا، فقد ظهر الجدار الدخاني دائمًا على المسافة نفسها، وفي بعض الأحيان بدا أنه يقترب كأنه يسافر أسرع منا. في وضح النهار استطعنا التيقن من أننا لم نهرب وحدنا: كانت الحيوانات البرية، التي شعرنا بوجودها طوال الوقت لكنها نادرًا ما أظهرت نفسها، متناسية الاحتياطات الموروثة عن أسلافها، تركض هي الأخرى نحو الشمال، وفي معظم الأوقات أسرعَ من النار ومنا. ظهر حشد من الطيور في الهواء فوق رؤوسنا، وسمعنا دويًا متواصلًا من الصياح والنعيق والزعيق وغير ذلك، لكنني من خلال مراقبتها للحظة استطعت التحقق من أنه على الرغم من ابتعاد جزء كبير منها إلى الاتجاه نفسه الذي نسلكه، بدا أن الكثير منها يتجه نحو النيران. اعتقدت أن الحريق أصابها بالتشوش فالتبس الأمر عليها، لكن بعد ساعات قليلة، حين وصلت النار إلينا، أدركت أن بعض الطيور تحلق فوق الحريق، وأكد لي أوسونا ذلك في وقت لاحق، لكي تأكل الحشرات المتناثرة في

كل الاتجاهات، ولا سيما تلك التي طبختها الحرارة، بإصرار وتهور وشراهة حتى سقط العديد منها محاصرًا بين ألسنة اللهب.

عند الغروب وصلنا إلى بحيرة كبيرة لم تسنح لنا الفرصة برؤيتها في الأيام السابقة، نظرًا إلى أنها تقع ناحية الشمال الشرقي من المسار الشمالي الغربي-الجنوبي الشرقي الذي سلكناه في عودتنا. تفاديناها ووضعناها بيننا وبين النار، وتوقفنا لنستريح من الإنهاك الذي أصابنا. كانت البحيرة ذات شكل بيضاوي غامض، يبلغ طولها قرابة ثلاثمئة متر، وتمتد بالتوازي مع خط الدخان الداكن الذي يحجب جزءًا كبيرًا من الأفق. عند وسط البحيرة، لا بد أن المسافة بين شاطئيها قد تساوت مع نصف طولها تقريبًا. لم يكن الرجال ولا الخيول على استعداد للمضي قدمًا، وبدا أن العديد من الحيوانات البرية اتخذت القرار نفسه. طيور زقزاق ونعام أمريكي وأرانب برية وبلشونيات وغوناقات وسمَّان، وحتى زوجان من سبع الجبل يتجولان حول الماء. على الرغم من أن وجودنا أزعجها، لم تجرؤ على الابتعاد عن البحيرة، لذلك حافظت على مسافة بيننا وبينها، وبما نستطيع أن نطلق عليه منطقًا جيدًا جدًّا، لأنني لا أرى طريقة أخرى لفعلها، استنتجتْ أننا عدو أقل خطورة من النار. ولأن زوجَي سبع الجبل أقلقا النساء، طاردهما جنديان ضاحكين، وإن أظهر الحيوانان شراسة في البداية، فحين دنا منهما الجنديان وكلاهما يلف حبل صيده، ابتعدا هاربَين وتوقفا على مسافة معينة، وشرعا يرتجفان ويتفلان.

نادرًا ما تمكنت من تأمل غروب أجمل من ذلك، والسهل عامر بهذا الأمر، فمع حركة مغيب الشمس التي لا تنتهي، وعدم وجود عائق يعترض النظر، يستغرق أدق شعاع ضوئي وقتًا حتى يختفي في الظلام الذي يمحو كل شيء. عندما لامس قرص الشمس الهائل خط الأفق الغربي، أخذ العشب الأصفر يتألق، وبدا أكثر بريقًا أمام التناقض الذي صنعه جدار الدخان الجنوبي، في

حين أن البحيرة التي تعكس الضوء المتموج التي لا يعكر صفو سطحها أي اهتزاز يذكَر، كانت صفحة حمراء أولًا، وكأنما ظلت تبرد في الوقت نفسه الذي يبرد فيه الضوء، تمامًا كالهواء والأشياء والسماء، فقد استحالت زرقاء وأخيرًا سوداء: وحده خط الأفق الأحمر في الجنوب الشرقي هو ما أضفى على سواد الليل المتماثل شيئًا من التنوع.

لو ظن أحدهم أن الظروف التي مررنا بها قد منحتني وقتًا للإعجاب بالغروب فهو مخطئ، لأن الأمر حدث وسط الانهماك العام، إذ كان الجميع، باستثناء المرضى، لديهم ما يفعلونه، ولأن ذلك الجمال الخارق اللامبالي للشفق ظل يتشكل، ثم وصل إلى الكمال، ثم تلاشى في الليل. باستعمال معيار ممتاز، قرر أوسونا والرقيب أنه على الرغم من أن الناس والحيوانات سيخيمون على شاطئ البحيرة، يتحتم علينا وضع العربات في أبعد نقطة ممكنة داخل البحيرة، الأمر الذي استغرق وقتًا طويلًا، لأننا اضطررنا إلى البحث عن أجزاء من قاع البحيرة لا يتسبب عندها الوزن في إغراق العربات حين نريد إخراجها من الماء بمجرد زوال الخطر. من المؤكد أن المكان البعيد بما يكفي عن الشاطئ لكنه ليس شديد العمق بحيث لا يسمح بتغلغل المياه داخل العربات، لهو شيء متناقض ليس من السهل العثور عليه. كان الليل معتمًا عندما أنهينا الأمر. امتلأ الجو برائحة الحريق، وعلى مسافة يصعب تحديدها، خلف العربات المغمورة حتى نصفها في الماء، أومض الشريط الناري الأحمر ومضةً خفيفةً ومرتعشة.

بقينا مخيمين على الشاطئ نحاول -في الليل المعتم- أن نستشعر علامات محتملة تحذرنا من تقدم النار. بعد أن تعودت أعيننا الظلام بدأت تميز الصور الظلية الأكثر كثافة للأشياء التي تسكن السواد المخيِّم. جمعنا مرضانا -أنا والممرضون- للاعتناء بهم بشكل أفضل. بعد فترة من الظلام

أضيئت عدة شموع وقناديل، لكن الرقيب نصح بإطفائها لتوفير مسح أفضل للأفق من قلب الظلام الدامس. سمح لي بترك شمعتين مشتعلتين تسهلان علينا مراقبة المجانين. إحقاقًا للحق، لم أتوقع حدوث اضطرابات سوى من بيردي الأكبر والراهبة الصغيرة، لأن برودِنثيو بارًّا ظل غير مبالٍ كالمعتاد بأحداث هذا العالم، والعلامة الوحيدة على تفاقم حالته التي أظهرها في تلك الظروف، هي أن زاد من قوة إحكام قبضته، وعلى الرغم من أن ترونكوسو أظهر بعض لمحات الاضطراب الطفيفة، فقد اتضح أن المرحلة الأخطر قد ولَّت ومن غير المرجح أن يعاني نوبة جديدة في الوقت الحالي. من ناحية أخرى لم ينفصل نياتو عنه، فأيقنت بأنني أستطيع الاعتماد عليه في حالات الطوارئ: العبد المخلص الذي يحمي سيده الذي في محنته، سيده في الأوقات العادية يعذبه ويهينه، إنها المفارقة الأبدية التي تثير وستثير حيرة الفيلسوف الأبدية. أما بيرديثيتو، فلم يكن ثمة خطر من أن يغيب عن أنظارنا في خضم الهرج والمرج العام، لأنه لم يلازمني فحسب، بل تشبث أيضًا بكم قميصي ولم يفلتني. تجلت حماسته المتزايدة في تعدد الأصوات المنبعثة من بين شفتيه، وفي الأسئلة المتواصلة التي يوجهها إليَّ بصوت يزداد خفوتًا وارتعاشًا، لدرجة أنني لم أفهمها حتى، لكنني شعرت بالقلق إزاء ذلك الوضع، ولم أتوقف عن الإنصات إليه مع تركيز انتباهي على علاماته الخارجية، وإجابته -وبخاصة في أكثر اللحظات جدية- عن أي شيء يجعلني أكرره عدة مرات، كما هي عادته. ورغم خطورة الوضع المتزايدة، فقد ضحك الممرضون من حوارات الصُّم التي أجريناها معًا. وعليَّ أن أقول إن الأخوين بيردي مثَّلا أصعب مشكلتين يمكن التعامل معهما في تلك الأوقات المناوئة، لأن حماسة الأخ الأكبر ازدادت أيضًا مع اقتراب الخطر، وفي لحظات من التوتر لم يصدر عنه إلا جملته الأبدية «صباحًا ومساءً وليلًا»، التي يقولها بألف تنغيم مختلف

كأنها محادثة عادية، التي لم يوجهها لأحد بصفة خاصة. كلما تعاظم الخطر بدا صوته أقوى، وصار الإيقاع والتنوع الذي ينطقها به أسرع. وأما الأخت تيريسيتا التي استمتعت أحيانًا بمضايقة الأخوين، فقد تركتهما وشأنهما في تلك الليلة، على الرغم من أن أسباب الأمر غير محمودة، إذ أمضت جزءًا كبيرًا من الانتظار وهي تهمس وتمزح في الظلام مع جنود حرسها الشخصي، وبدافع الحكمة، ولا سيما لأنني اعتقدت أن الجنود سيتولون حمايتها، توقفت عن التحقيق وراء تلك التصرفات، التي امتدت حتى عندما حوصرنا بالنيران واضطررنا إلى أن نلوذ بالبحيرة حتى وصل الماء إلى أعناقنا. فعند نقطة البحيرة حيث احتشد الجنود حولها، أمكن سماع أصوات تحت الماء وصيحات وتأوهات واضحة، ومن المعروف بالفعل أن الخطر -لأسباب غامضة- يحفز الشهوة.

هزتنا صدمة غير متوقعة، وعلى الفور تقريبًا، تلقينا مسرَّة لا تقل مفاجأةً عوضتنا عن الذعر الذي أصابنا. في الصمت شبه التام الذي تابعنا فيه، بحذر وقلق، مسار الأحداث، مجتمعين على شاطئ البحيرة، جذبتنا ضوضاء كان من الصعب -على الأقل بالنسبة إليَّ- معرفة كنهها في البداية، لكنها اتضحت شيئًا فشيئًا حتى صارت قعقعةَ حوافر قطيع من الماشية يتردد صداها على الأرض، وفي الوقت نفسه امتلأت أجواء الليل بصخب خوار مذعور يقترب أكثر فأكثر. كان خوفنا الرئيسي من الماشية -التي من الواضح أنها هاربة من النيران، ومن الجلبة التي أحدثتها لا بد أنها تشكل قطيعًا كبيرًا إلى حد ما- يتمثل في أن يؤدي الرعب الأعمى الذي دفعها للهرب في الظلام، إلى عدم إحساسها بوجودنا خلال تدافعها ومن ثم دهسنا. سمعنا الحيوانات تقترب بأقصى سرعة، وبدأنا نختلج في الظلام عندما لامست الحوافر الأولى الماء عند نقطة ما على شاطئ البحيرة المقابل، ودفعنا الضجيج المائي الذي أحدثته

أرجلها، بالإضافة إلى الخوار المرتعب الذي تردد صداه في الليل (شعرت بيد بيرديثيتو تسحب كم قميصي بقوة أكبر) إلى الاعتقاد بأننا لا نستطيع تجنب الكارثة، عندما بدأنا ندرك تدريجيًا أن الحيوانات تبتعد نحو الطرف الغربي للبحيرة حيث الشاطئ أكثر ضحالة، بعضها عبر الماء والبعض الآخر عبر المنطقة المحيطة بالشاطئ، حتى سمعناها تعبر وتستمر في ضرب الأرض بحوافرها وهي تبتعد من خلفنا نحو الشمال. حصلنا على تفسير فوري لهذا التغيير المفاجئ في المسار، مع صوت خبب حصان يقترب دون عجلة، وبتلك القدرة التي تمتع بها لسماع ما هو خفي، عرف أوسونا -من خلال صوت الحوافر- أنه حصان سيريريه. كبح الهندي جماح حصانه على مسافة معينة، وعرَّف نفسه في الظلام وانضم إلينا. على ضوء أحد القناديل وفي وسط دائرة من الوجوه القلقة المتعبة، روى بجديته المعتادة أنه كان يعدو على بُعد نصف فرسخ من جنوب مخيمنا، عندما سمع قطيع الماشية يتدافع نحو البحيرة، فتقدم مسرعًا بشكل قطري واعترض القوة وحولها نحو الطرف الغربي من البحيرة. قال سيريريه إنها على أية حال مجموعة صغيرة من الأبقار التي لم تكن لتسبب كارثة كبيرة، ربما باستثناء العربات، لكنها من شدة ذعرها أحدثت جلبة أكبر بكثير مما هي عليه في الواقع. يمكن إثبات كفاءة هؤلاء الرجال على العيش في السهل كما يعيش البحارة في البحر من خلال الحقيقة التالية: اتفق سيريريه مع أوسونا والرقيب على الاجتماع على ضفة نهر باراناه، من الناحية الشرقية، ولكن بعد تقدير الوقت الذي ستستغرقه النار للوصول إلينا، من خلال حساب المسافة التي تفصلنا عن النهر، وصل إلى الاستنتاج نفسه الذي توصل إليه الخبيران الآخران، فقرروا أن المكان الوحيد في المناطق المجاورة الذي يمكننا فيه حماية أنفسنا من النيران هو تلك البحيرة التي مكثنا فيها. تجدر الإشارة إلى تفصيلة مهمة:

وحده سيريريه كان يستطيع الفرار من النيران بسهولة، إذ يمكن للفارس أن يتحرك أسرع بعشر مرات من قافلة عربات. وفي وقت قصير، كان سيحرز تفوقًا على النار بحيث لن يشكل ذلك الحريق الذي يستعد لالتهامنا أي خطر عليه. ومع ذلك، رغم معرفته بأنه سيتعرض للخطر نفسه الذي نواجهه جميعًا، عاد إلى المخيم. بعيدًا عن الاحترام المهني المحض الذي ربما يستحقه أوسونا والرقيب، فإنه لم يحمل أدنى شعور بالود نحو أيٍّ من أعضاء القافلة الآخرين. في الشهر الذي استغرقته رحلتنا، سمِعَنا سيريريه نسخر ورآنا ندوس على الأشياء القليلة المقدسة عنده في هذا العالم، الحقائق القليلة التي ارتأى أنها تستحق الإيمان، وقد تمكنتُ غير مرة من رؤية الازدراء والغضب والاستنكار مرسومًا على وجهه عندما يحكم على أحد أفعالنا. ورغم ذلك، فقد عرَّض حياته للخطر وعاد إلينا. على الأرجح لم يساوره أدنى شك في أننا أعضاء القافلة سنحترق في نار الجحيم إلى الأبد، لكن لا هو ولا نحن نعرف بالضبط لماذا، أمام النار الحقيقية التي تقترب، قرر الانحياز إلى جانبنا.

وصلت إلينا تلك النار فجرًا. احتمينا بالماء عدوها القديم، ورأيناها تتوقف وتتراقص على شاطئ البحيرة. امتدت جبهة الحريق إلى ما لا نهاية، من الشرق إلى الغرب. كانت طقطقة ألسنة اللهب تصم الآذان، والطيور النهمة التي اندفعت بين غيوم الدخان لتأكل الحشرات المتفحمة، متحمسة للحرارة والخطر والنار، وربما لوفرة الطعام، أطلقت صرخات شنيعة وغريبة على طائر، وبينما تسودُّ في ظلام الليل ثم تبرق فجأةً في وهج ألسنة اللهب، بدا كأنها ظهرت بغتةً من عالم آخر، من عصر آخر، من طبيعة أخرى قوانينها تختلف عن قوانيننا. أضاء الحريق البادية المحيطة كلها، حتى اكتسبت بريقًا مفرطًا كأنها حفلة فخمة بعض الشيء، وبينما تضاعفت ألسنة اللهب لدى انعكاسها في البحيرة التي تحولت مياهها إلى لون برتقالي متموج، شعرنا

نحن من بداخلها، غاطسين حتى أعناقنا في هذا العنصر الملتهب المحمرّ، بأننا محاصرون في قلب الجحيم نفسه، وبخاصة لأنه ربما بسبب حرارة الأرض المرتفعة والامتداد اللانهائي للهب، يمكن لبشرتنا أن تحس بارتفاع درجة حرارة الماء، إلى درجة أننا بدأنا نتساءل -في قرارة أنفسنا بالطبع، لأنه باستثناء الأخوين بيردي اللذين لم توجد طريقة لإسكاتهما، لم يتحدث أحد- إن كانت ستغلي في أي لحظة. كان الدخان، الذي بدا من بعيد ثابتًا وصلبًا كجدار، يبدو عن قرب سائلًا مضطربًا يتلوى بجنون، ومن بين كتله المهتزة والسميكة التي يتغير لونها كل لحظة، تتصاعد بغتةً -لتنفجر في الهواء وتنطلق في كل الاتجاهات كالقذائف- أعمدة غاضبة من الشرر والمواد النارية التي تطير وتطقطق فوق رؤوسنا أو تسقط علينا، أو في الماء حيث تخمد فجأة وتتحول إلى قطع سوداء صغيرة تطفو على السطح، أو ربما تحلق فوق عرض البحيرة بالكامل وتسقط على الجانب الآخر، وراء الشاطئ، حيث بدأت بعض الحرائق الصغيرة المتناثرة في الاشتعال. تعلق بيرديثيتو برقبتي وتمتم في أذني -الواحدة تلو الأخرى- بعبارات غير مفهومة، لكن أخاه الأكبر توقف عن الكلام أخيرًا، وظل متصلبًا وشاحبًا من الرعب، والماء يصل إلى رقبته، لكنه أدار ظهره إلى النيران لكيلا يراها.

كان من الصعب حساب عرض الجدار الناري ذلك؛ الحق أن النار طوقت البحيرة واستمرت في الانتشار نحو الشمال، وفي لحظة معينة، بدا السطح البيضاوي للبحيرة الذي حوانا بداخله بالإضافة إلى الخيول التي حاول مجموعة من الجنود إبقاءها في الماء بشق الأنفس ولم يتمكنوا من فعل ذلك سوى لأنهم قيدوها ببعضها بعضًا، والكلاب التي سئمت من النباح والحيوانات البرية التي لم ترِد الابتعاد عن الماء مهما كان الثمن، والطيور التي ترفرف في الهواء المحمرّ؛ تلك المرآة المائية التي سبق أن رأيناها هادئة ومستوية

وقت الغروب، بدت كابوسًا بيضاويًّا رسمه فنان مجنون ووضعه في إطار من اللهب.

بعد مُضيٍّ بعض الوقت أدركنا أن الفجر قد بزغ، لكن الدخان يحجب ضوء الشمس. ليس الدخان وحده، ففي الوقت المحدد، كما أعلن أوسونا، أتت عاصفة سانتا روسا من الجنوب الشرقي: إنه صباح اليوم الثلاثين. انتقلت النار نحو الشمال، وحين بدأ الدخان ينقشع، رأينا السماء مغطاة بغيوم كثيفة لونها رمادي مزرقٌّ. كانت البادية سوداء من حولنا، لكنها مبذورة بجمرات صغيرة محمرَّة، تمامًا كسماء ليلية مرصعة بالنجوم. من الأرض السوداء الفحمية، خرجت خيوط عديدة من الدخان الشفاف الهزيل، واختفت حين بلغ ارتفاعها مترًا. لم نفقد شخصًا واحدًا، ولا حيوانًا واحدًا، ولا عربة واحدة. ولكن على الرغم من أن النار غادرت في رحلتها الغبية شمالًا بعدما أعطتنا موعدًا آخر عوضًا عن تلك المرة، لم نستطع الخروج من الماء لأن الأرض حتمًا كانت لا تزال حارقة، مثل أرضية فرن طيني. تسلق الباسكي إلى عربته واختفى على أطرافه الأربعة بالداخل، وخرج مرة أخرى ومعه ثلاثة أباريق من مشروب (الجن) ألقاها في الهواء، فتحرك الجنود بمهارة وحيوية -رغم التعب والحرارة الحارقة- لالتقاطها. بدأت الأباريق تنتقل من يد إلى يد وسرعان ما تجددت الحيوية. بعدما خرجنا سالمين من النار بلا سبب، لم يعد لدينا الكثير لنخسره. لو التهمتنا ألسنة اللهب لالتهمت هذياننا معنا، وهو الشيء الوحيد الذي نملكه حقًّا ويميزنا عن تلك الأرض المسطحة الصماء. وبما أنها تجاوزتنا بلا مبالاة وازدراء تقريبًا، دون أن تتوقف حتى لإبادتنا، يستطيع هذياننا الذي خرج سالمًا أن يبدأ مرة أخرى في تشكيل العالم على صورته.

إن الأمطار الغزيرة التي هطلت ليوم كامل، وتخللها برق مرعب مثَّل لنا مدعاة جديدة للخوف، لم تقتصر مهمتها على إخماد الجمر وتبريد الأرض،

بل أعادت الشتاء الذي فقدناه في منتصف رحلتنا، لنواجه ذلك الصيف القادم في غير أوانه، الذي أخل بالنظام الطبيعي للفصول. أما الآن، فمع عودة الشتاء إلى موضعه يمكن انتظار الربيع. سافرنا بوتيرة بطيئة لمدة يومين أو ثلاثة عبر أرض سوداء ميتة رمادية، اخترقها مطر رذاذي بارد وحولها إلى كتلة من العشب المتفحم والطين والرماد. اتشحت السماء بسواد الأرض نفسه، واستحالت المياه التي تساقطت بلا هوادة رمادية وجليدية. عدونا بخيولنا في إرهاق وتركيز، مخدَّرين ومتبلدين من أثر البرد ووهميين بعض الشيء، وكدنا ننسى، بعد كل تلك التقلبات، سبب رحلتنا. لكن في اليوم الرابع، تركنا البيداء المحترقة خلفنا، وفي تلك التي عبرناها متجهين دومًا نحو الجنوب الشرقي، بدأت لمحات من الأخضر الرقيق في الظهور بين الأعشاب الميتة للشتاء الذي يشارف على الانتهاء. في اليوم الخامس أشرقت الشمس مرة أخرى في سماء زرقاء ما بها من غيمة، وعبر هواء شديد النظافة والصفاء بسبب المطر، مررنا على بعض الرعاة، ولم يلبث المساء أن يحل حتى أبصرنا أولى المَزارع. أخذ الناس يحيوننا في أثناء مرورهم، ويحدقون إلينا بسبب مظهرنا غير المألوف، لأننا رغم قذارتنا واسودادنا من الشمس وكذلك النار والدخان والرماد، ورغم إرهاقنا وبؤسنا، لم نبد مستكينين ولا مكروبين. في أفنية البيوت امتلأت أشجار الخوخ -نافدة الصبر كعادتها- بالزهور الوردية. لقد أحببت نفسي أكثر بقليل مما كنت عليه في بداية الرحلة، وبدا لي العالم، رغم كل شيء، طيبًا في ذلك اليوم. في صباح اليوم التالي، على بعد قرابة خمسمئة متر باتجاه النهر، أبصرنا أعلى الوَهدة مبنى أبيض طويلًا، وفي الخلفية ثلاث أشجار سنط فارعة. وكما تقول الرعوية الرابعة: هذه المرة قالت الأقدار نعم.

